ذكريات عارية

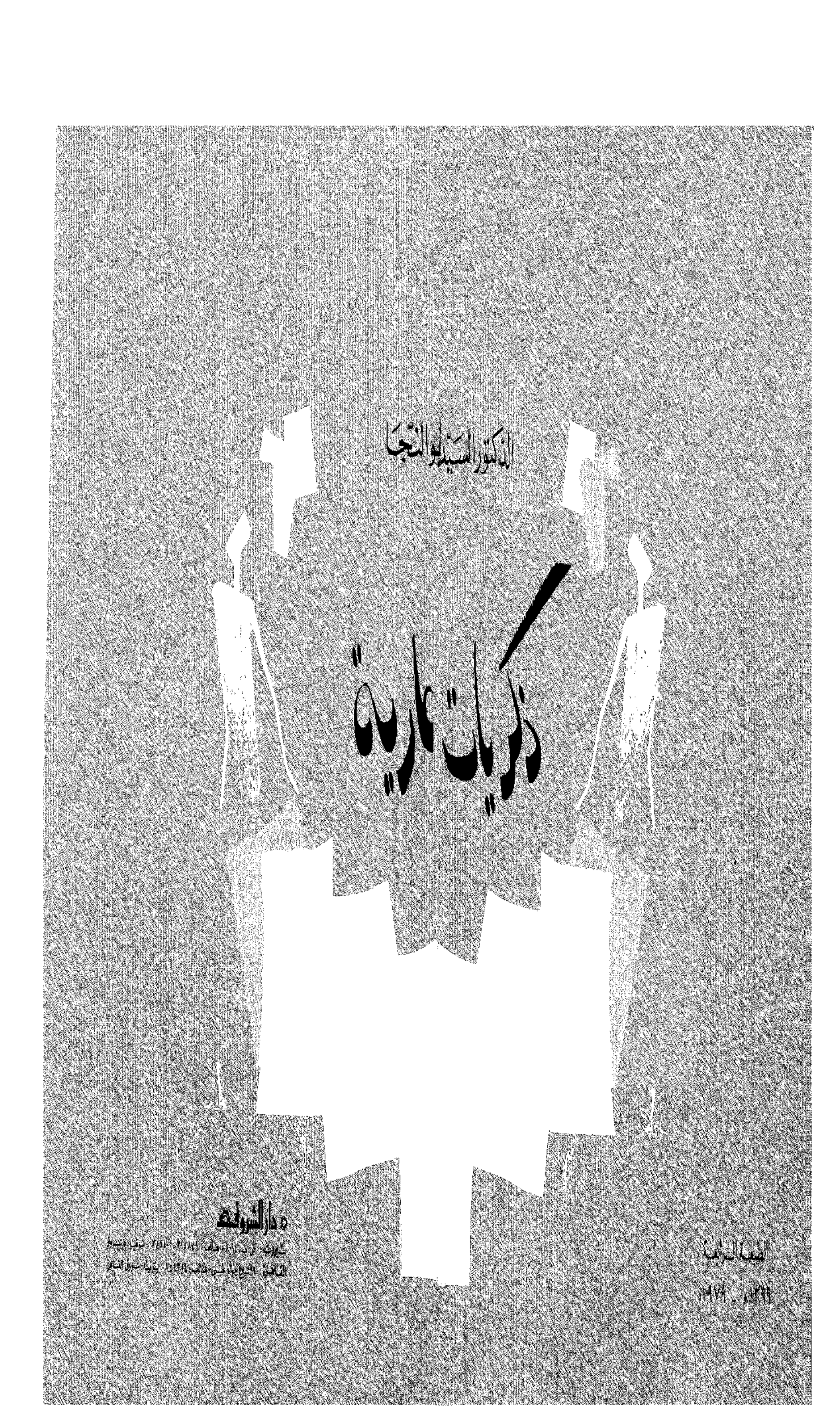
الدكتور السيّد أبو النّجا

دار الشروق



ذكريات عارية ذكريات عارية ذكريات عارية ذكريات عارية ذكريات عارية

ذكريات عارية ذكريات عارية ذكريات عارية ذكريات عارية ذكريات عارية



الدكتور السيد أبو النجا
ذكريات عارية
دار الشروق
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

الإهداء

إلى الملايين

من المواطنين الصالحين

رشيد أبو النجا



مزيداً من العري في هذه الطّبعة

«غيرت رأيي» هو الاسم الذي اقترحه أنيس منصور لهذه الذكريات في طبعتها الأولى بعد أن قرأ أصولها ليكتب مقدمتها فوجدني قد غيَّرت نظرتي للحياة بعد أن عدت من بعثتي في انجلترا قبل الحرب العالمية الثانية بأسبوع واحد ، ولكن نزعة التسويق غالبتني حين وجدت أن كلمة «عارية» فيها تورية قد تشد الناس إلى المعنى القريب لا إلى معناها البعيد وهو الصدق والتجرد . وقد وقع القراء فيما توقعت فصدر من هذه الذكريات ثلاث طبعات ، وانتصر التسويق على الأدب والفلسفة !

ولم يكن في التسويق غش وإنما كان فيه تشويق . فلو لم يكن في الذكريات مادة طيبة لما صدرت طبعتها الثانية ولا الثالثة بل ولما صدرت هذه الطبعة الفاخرة بعد نفاد الطبعات الثلاث .

لقد قرأ الناس الطبعة الأولى فوجدوا في مادتها صدقاً عارياً عن كل زيف ، وكأنما الكاتب قد تجرد من ثيابه التي يستر بها نفسه وهو في الستين ليسير بينهم كما ولدته أمه . ذلك لأنه اعترف بأنه بشر لا ملاك ، والبشر يخطئ ويصيب . وهو حيواني قبل أن يكون إنساناً فهو ينصاع لنوازعه قبل أن يعمل بعقله ، وهو ريفي قبل أن يصبح قاهرياً ولذلك تركت القرية بصماتها في جسمه وعقله فباعدت

بينه وبين الرقص في الحفلات ولعب التنس في النوادي والشطرنج في المقاهي ، وزودته بكرش من أكل الثريد ، وبكَيّ في قفاه وصفته تذكرة داود لشفائه من حمى عارضة !

لقد بدأ الكاتب حياته بعمامة فَسَدتْ على الفور فأصبحت طربوشاً يدخل به مدارس الحكومة فيتلقى العلم بعقله ولكنه يظل يعيش بثقافته في أحضان الريف والأزهر حتى يسافر في بعثة إلى انجلترا فتفرض عليه القبعة أن يقرأ من اليسار إلى اليمين ، وأن يكتب ما يفهمه من اليسار إلى اليمين أيضاً . فإذا أراد أن يحسب حصيلة اليوم غلبت عليه الأرقام الافرنجية والآلات الحاسبة فلم يعد أسلوبه طيّعاً كما كان ، وإنما أصبح مطرّقاً كحيثيات المحاكم . على أنه عمل بعد ذلك في الجامعة ثم في الصحافة والإعلان فذاب المركّز الذي عاد به من انجلترا في محلول من هذه الممارسات ، وهكذا أصبح إنساناً يتحدث بعربية أصيلة ، ويلوك بين شدقيه انجليزية مستوردة ، ويفصح عن نفسه بفرنسية عرجاء .. وأصبح بين الاداريين كاتباً ، وبين الكاتبين مديراً ، بل صار بين الجامدين متحرراً ، وبين المتحررين جامداً .

وها هوذا قد بلغ السبعين عند صدور هذه الطبعة الرابعة فلم يقنعه هذا العمر بأن يقبع في بيته ما دام شبابه الرتيب قد ادخر له شيئاً من العافية لا يزال يؤهله لأن يقود سيارته ويزاحم بها مواكب الطريق ، ويغشى مكاتب الصحف والشركات ثم يعود آخر النهار راضياً عن نفسه لأنه لم يعد يشتغل بالأعمال الإدارية اليومية ، وإنما يغترف من تجاربه الماضية ما ينشئ به جديداً .

هأنت ترى إذن أن صاحبنا ليس متواضعاً كما ظننت أول الأمر ، وليس مغروراً كما قد يبدو لك ، ولكنه يضع نفسه بلحمها ودمها على المشرحة أمام أطبائه وهم قراؤه لأنه يرى في ذلك شفاء مما يعانيه أغلب الكتاب عندنا وهو المكاثرة بما فعلوا ويفعلون .

هذا هو ما قصدت إليه حين اخترت للعنوان « ذكريات عارية » . وقد كنت يوماً في نادي الجزيرة بعد أن صدرت الذكريات فإذا بصديقي الأستاذ أحمد دانش يناديني ويقول « هات عشرين قرشاً » قلت لماذا ؟ قال لقد اشتريت ذكرياتك العارية ووعدت نفسي بسهرة ممتعة فإذا بي أجدك تتحدث عن ثورة سنة ١٩١٩ وعن الأزهر والشيخ المراغي !

هذه هي قصة العنوان ولأعرض الآن على قرائي مزيداً من سوآتي ... سوآتي التي لم أكن أستطيع أن أبوح بها قبل الآن خوفاً من السلطان . لقد مضى عليّ وقت كنت أعتقد فيه أن السلبية هي أعلى درجات الشجاعة ، فلم أكن أحب أن أمدح أحداً من الحاكمين لأنه لم يكن في وسعي أن أنتقد فيهم شيئاً وإلا عرضت نفسي للنفخ والواحات وأنا لست فدائياً . ولم أكن أحب أن أنتقد أحداً من أعداء الحاكمين لأنني لا أستطيع أن أذكر شيئاً من محاسنهم وأنا لست منافقاً وإنما أنا مفكر .

كنت إذن من رجال الإدارة فقط : أنفذ القانون في عملي ولو كنت غير مقتنع به لأنه واجب الاحترام ، وأضع الإدارة في خدمة السياسة مهما كان رأيي فيها لأن هذا هو ما تقضي به إدارة الأعمال .

وقد يرى بعض ذوي الرأي أن في هذا جبناً لا يليق بالجامعيين ، ولكنني أقول لهؤلاء إن في الدنيا قلة قليلة من الفدائيين لا أدعي أن لي فضلهم ، وكثرة كثيرة من المتملقين لا أحب أن أكون منهم ، وألوفاً من ذوي المهن لا يشتغلون بالحزبية وإنما يخدمون بلادهم بالتفاني في أعمالهم ، وهؤلاء أحب أن أنسب نفسي إليهم .

وفي الواقعة التالية ما يجسد هذا الاتجاه . فقد كنت في سنة ١٩٥٠ مديراً عاماً لشركة الاعلانات المصرية وفيها عدد كبير من اليهود . وجاءني خطاب من اليد السوداء بجمعية الاخوان المسلمين تتهمني فيه بالتعاون مع أعداء الدين وتهددني بالاغتيال إذا لم أحضر في يوم حددته إلى مقر الجمعية بالحلمية في تمام الساعة الحادية عشرة مساء للدفاع عن نفسي وكانت قد اغتالت من قبل أحمد ماهر والمستشار الخازندار وغيرهما . وكنت أعرف الشيخ حسن البنا لأنني كنت أتولى رياسة شركة التوزيع المصرية التي توزع جريدة الاخوان المسلمين فلما أطلعته على الخطاب لم يستنكره وانما نصحني بالذهاب في الموعد وأقسم أنه لو كان ابنه من صلبه متهماً لما سمح لنفسه أن يتوسط للعفو عنه ، فلم أجد بدأً من أن أذهب . وفي الموعد المحدد خرج شاب يبدو أنه طالب في الجامعة إلى حيث أجلس فهتف قائلاً : « محكمة » وأخذت أوراقي ودخلت إلى غرفة فيها منضدة : المنضدة يجلس إليها ثلاثة شبان ومدع عام . ووقف المدعي فترافع ضدي ولكنه لم يهتم بالوقائع اهتمامه بأن يوجه إلى شخصي اتهامات أقلها الخيانة .. وانتهى بطلب الحكم بالاعدام .

هنا تفضلت المحكمة فسمحت لي بالدفاع عن نفسي ، وتحدثت

في هدوء وحزم عن جهودي في جريدة المصري وفي تمصير شركة الاعلانات وقدمت المستندات التي تثبت أنني أنشأت مسجداً في الشركة وأنني عينت فيها عدداً كبيراً من المصريين ثم ختمت مرافعتي بأنني لا أستحق الاعدام بل قد أستحق الشكر .

وخلت المحكمة للمداولة ثم أصدرت حكمها التالي : « حكمت المحكمة **على** السيد أبو النجا بالبراءة **دون الشكر** » .

وحين قامت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أحاطت ثلة من الجنود بمبنى جريدة المصري بشارع القصر العيني من الصباح الباكر فوجد عامل التليفون من واجبه أن يخطرني وكان أصحاب المصري متغيبين ، فذهبت على الفور في السادسة صباحاً ، فوجدت في انتظاري أمراً من ضابط عظيم من ضباط الثورة قالوا إن اسمه «جمال منصور» – ثم عرفت فيما بعد أنه جمال عبد الناصر – يقضي بأن أصدر على الفور عدداً خاصاً من الجريدة عن قيام الثورة . وبعد قليل جاء محمد ابو الفتح – وهو من الأسرة المالكة للمصري – فقال ضاحكاً : « قل لي من الذي سينتصر – الملك أم الثورة – وأنا أنصحك بأن تصدر هذا العدد أو لا تصدره » ولم يكن أمامي إلا أن أتفق مع مدير المطابع – وكان من أقرباء صاحب المصري – على أن يعد صفحات الرصاص ثم يتركها تسيح ، ويعدّ غيرها لتسيح أيضاً ، ويستمر هكذا فيقنع الضباط بأننا ننفذ تعليماتهم حتى تجيئه مني كلمة السر في التليفون وهي « فوراً » فتبدأ عملية الطبع . وبعد ساعات قليلة جاءني الاستاذ مرسي الشافعي والمرحومان حسني سلمان ومحمد البهي فأخبروني بأن مرتضى المراغي وزير الداخلية قد سلم لرجال

الثورة بطلباتهم فخرج العدد الخاص إلى الأسواق مبكراً كأنما كان نصيراً للثورة مهما كانت النتائج .

وبعد قليل اختلف جمال عبد الناصر مع اللواء محمد نجيب وكان المصري مؤيداً للثاني وكنت أنا ميالاً للوقوف على الحياد في انتظار النتيجة مثل باقي الصحف فزارني صديقي وجيه أباظة وقال إنه يعرف أنني مختلف مع أحمد ابو الفتح لأنه يناصر محمد نجيب ولذلك فإن جمال عبد الناصر يريد مقابلتي ليكلفني برياسة التحرير إلى جانب الإدارة . قلت لوجيه إنني لست منحازاً لعبد الناصر ولا لنجيب ولكنني لا أريد للجريدة أن تموت في معركة شخصية .. وإذا كان لا بد لها من الموت فليكن في معركة من معارك الحرية والاستقلال . وأنا حين أختلف مع رئيس التحرير فإن ولائي هو دائماً لصاحب الجريدة . هكذا تعلمت في إدارة الأعمال ، وهكذا علّمت تلاميذي في الجامعة . ولذلك سافر وجيه اباظة إلى بيروت ليقابل محمود ابو الفتح ويستعين به على رئيس التحرير وقد علمت فيما بعد أن الرئيس الراحل ضحك كثيراً حين سمع باجابتي وأعجبته صراحتي فلم يبعدني فيمن أبعدهم بعد قفل المصري وان كان لم يعتبرني يوماً من أنصاره .

ولعل موقفي هذا هو الذي دعاه فيما بعد إلى أن يوافق على أن تعمل كريمته معي في دار المعارف بشرط ألا تستغل اسمه وألّا تتقاضى أكثر مما تتقاضاه زميلاتها من خريجات الجامعة الأمريكية وأن تخضع للكشف الطبي وتحضر في المواعيد المقررة وتمضي على كشوف الحضور .

وبمناسبة العمل في دار المعارف أقول انني فتحت نوافذها على جميع الثقافات وسمحت لمطابعها أن تطبع بالأجر كثيراً من كتب الدعاية السوفيتية . ويوماً زارني الوزير المفوض فقال : «انني يا سيادة الرئيس جئت لأشكرك على جهودك الصادقة في خدمتنا ولكنني أجد من حقي أن أشكو لك أحد مساعديك فهو دائم المعاكسة يرد على خطاباتنا بالرفض والتغالي في تقدير التكاليف ، وقد علمت أنه قد تعلم في أمريكا ! » قلت له مستنكراً : «اننا هنا نؤدي واجبنا دون تفرقة بين الاتجاهات السياسية كما ترى ، ويسوءني أن يكون معي من تتحدث عنه فهل تعرف اسمه ؟ » فأخرج من جيبه ورقة أمعن النظر فيها وتهجّى الاسم هكذا ABULNAGA فلم أتمالك نفسي من الضحك وقلت : «ابو النجا هو اسمي» قال لا بد أن هناك ابو النجا آخر . قلت : «من الأسف أنه ليس في الدار إلا ابو النجا واحد» وهكذا انحى الوزير باللائمة على مخابراته واعتذر لي .

وفي مناسبة أخرى بعد هذه الواقعة قابل السفير السوفيتي الرئيس أنور السادات شاكياً من عدم تعاون السلطات المصرية معه في شأن معين فابتسم الرئيس وسأله عما حدث معي فطأطأ السفير رأسه وأبدى أسفه فعلق الرئيس قائلاً : «قد يكون ما تشكو منه الآن شبيهاً بما كان مع دار المعارف ! »

ولأعد الآن إلى قصة قفل المصري فقد كان أحمد ابو الفتح على اتفاق مع الاستاذ الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين بأن المصري إذا مسّه سوء فستقوم المظاهرات في كل مكان للدفاع عنه . وعلم جمال عبد الناصر بالاتفاق فزار الهضيبي وقرأ معه الفاتحة

على أن يفرج عن الاخوان في السجون وأن يترك لهم حرية الاشتغال بالدين على ألا يشتغل الاخوان بالسياسة . فلما هاجم صلاح سالم جريدة المصري في ميدان عابدين اتصل أحمد بالهضيبي ليستنهضه ففوجئ بالاعتذار ، وسارع أحمد بترك القاهرة إلى بيروت على متن طائرة لشركة مصر للطيران .

وماذا بعد ؟

أما بعد فهذه عينات مما ستقرأ في هذه الذكريات . وهي قد تسيء إلى شخصي في نظر تلاميذي واخواني ولكنني أجد في مجرد ذكرها شجاعة أدبية أعتز بها .

إنني واثق أن غيري قد اضطرته الظروف إلى أن يلوذ في تصرفاته بأكثر منها ولكنه يخاف من الاعتراف . ومن أجل ذلك قال عبد العزيز فهمي «إن التاريخ مجموعة أكاذيب» وهو قول فيه شيء من الصحة فقد انتقد بعض المؤرخين الخديوي اسماعيل لأنه أغرق مصر في الديون ، ثم دافع عنه بعضهم في كتاب «اسماعيل المفترى عليه» وقد كان أغلب المؤرخين يضعون عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد في الدرجة الثانية من الزعماء ، فلما جاءت الثورة رفعتهم فوق سعد زغلول .

أين الحق إذن ؟ اننا نراه في النتائج المنطقية للوقائع ، ولكن المنطق يحسن التعبير عن الحق لا عن الحقيقة ، والحقيقة لا يعلمها إلا الله .

السيد ابو النجا

هذه الذكريات

ليس في نية الكاتب وهو يتحدث عن نفسه أن يستعلي بها على حقيقتها ، ففي هذا مجانبة للصدق ، ومكاثرة بما لا يملك . كما أنه ـ لو حدث ـ يلغي قصده من كشف نفسه ، وهو أن يصل منها إلى ما يصعب تحقيقه على سواه ، فلو تصدى لكشفها غيره لكان على الأرجح أقل علماً بخباياها ، ولو كان أكثر موضوعية في تناولها .

وليس في نية الكاتب أن يتغاضى عن ذكر ما يؤهله للتقدير ، ليقول الناس إنه متواضع ، فهذا استجداء للثناء لا يرضى به بديلاً عن الصدق . كما أن التواضع الذي قد يدعيه هو في حقيقته مركب نقص ، لأنه خوف من الاتهام بالخيلاء .

وليس يزعم الكاتب أن ما يقدمه في هذه الذكريات من آراء يجيء بالضرورة مطابقاً للحق . كلا ، فالرأي ينبثق من عقله كما ينبثق عند سواه . وعقله مغلوط في بعض نواحيه . كما أن رأيه ينبع من مكونات كثيرة من بينها بيئته . والبيئة إناء يلون الرأي بلونه ، ثم إن الرأي يكتسي بنوازع صاحبه ، وهي تتسلل إلى قلمه دون علمه بل إن الرأي يخرج من بين ثقافته وخبرته وهما أصلاً غير محايدين . والثقافة عصبية وإن لم تكن بالضرورة متعصبة ، والخبرة كلما اشتد عمقها بعدت عن الرأي وانحازت إلى الانطباعات ، فزادت من سيطرتها على حرية الفكر .

إن الكاتب يحكم عقله في نوازعه قدر جهده ، ويقيم في نفسه حاجزاً بين عاطفته ورأيه قدر إمكانه ، ويجتهد في التفرقة بين الصديق وصاحب الحق ، ولكن بعض الناس يحملون هذه التفرقة أحياناً على أنها تنكر للأول أو مجاملة للثاني . ومع أن الكاتب يجتهد في تجريد نفسه أشد الاجتهاد ، فهو يعترف أنه لا يوفق في هذا على الدوام ، لأنه كإنسان لا يستطيع أن يفكر بعقله فقط ، وإنما يفكر بكل ما فيه من عقل وعاطفة وجسم صحيح أو عليل . إن برداً عارضاً أو اضطراباً في الهضم قد يكون له تأثير خفي في رأيه ، حتى قد يكون في حالة من الحزن أو الفرح فتمتزج هذه الحالة النفسية برأيه وتكون عنده نزوعاً لم يكن يتكون لولاها .

والكاتب يعتقد أنه مواطن صالح ، فهو لا يدعي لنفسه أكثر من هذه المنزلة ، ولا يصطنع التواضع فيرضى بأقل منها . إنه يحترم القانون لأن القانون ناموس التعامل ، ويحترم الشرطي لأنه أداة القانون ، ويحترم رؤساءه لأنهم يمثلون الدولة ، ويحترم مرؤوسية لأنهم ليسوا أقل منه ، ويحترم مواعيده مع الناس ، لأنه يعدها عقوداً بينه وبينهم . وهو بمقياس برنارد شو إنسان فاضل لأنه أعطى مجتمعه أكثر مما أخذ منه ، وبمقياس سلامة موسى إنسان خامل لأنه ليس رجل ثورة . والثورة ضرورية لرقي الأمم بين وقت وآخر .

إن له رأيه السياسي كمواطن مثقف ، ولكنه لم يحترف السياسة يوماً في حياته ، وإنما احترف الإدارة علماً وعملاً ، ووضعها في خدمة بلاده ، وهو يعتقد أن العالم العربي إذا كان متخلفاً عن أوربا وأمريكا في التكنولوجيا فهو أشد تخلفاً عنهما في الإدارة ، ولو قورن المهندس العربي

بالمهندس الأجنبي ، أو قورن الكيميائي العربي بالكيميائي الأجنبي لكان كل منهما أقرب إلى نظيره من المدير إلى المدير ، وعلى الرغم من أن الكاتب قد جاوز الستين فإن تفكيره الإداري لم يشخ ، لأنه لا يزال ينمو . إنه يتتلمذ على تلاميذه كل يوم إيماناً منه بأنه إذا كان أستاذهم بحكم السن فيما مضى ، فبعضهم أساتذته اليوم بحكم ما تهيأ لهم من تفوق علمي .

والكاتب بهذا يرى أنه ليس أقل استحقاقاً للتقدير من السياسيين ، فمشكلتنا مع إسرائيل هي أن نكون أو لا نكون . ومشكلتنا مع الاستعمار هي أن نبلغ سن الرشد في استقلالنا ، ومشكلتنا في الاشتراكية أو اليمينية هي أن نصل بأيهما إلى مضاعفة الدخل ، ومشكلتنا في الاجتماع هي أن ننجح في تحديد النسل والطلاق وتعدد الزوجات .

إن الكاتب يعتقد أن الطريق السوي للتحرر هو أن نكافح الاستعمار في أنفسنا ، فالاستعمار مرض مستوطن كالبلهارسيا والإنكلستوما لا يهاجم إلا الضعفاء والفقراء ، والشعارات والمظاهرات لا تقضي عليه وإنما يقضي عليه العلم والإنتاج .

إن المبادئ لا تعيش إلا في ظل الامكانيات . فالنظافة من الإيمان ، لكن أين للفلاح الفقير أن يكون نظيفاً إذا لم يكن لديه ماء نقي وصابون ؟ والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها ، ولكن ألا يدل الواقع على أن الحاجة أمّ الانحراف ؟

لذلك فإن الكاتب يؤثر المحاضر على الخطيب ، ينصت للخبير أكثر من الأستاذ ، يفضل الندوة على الاجتماع العام . يستفيد من التقرير

أكثر من المقال ، يخاف من اللمعان إذا لم يكن للذهب ، وينصرف عن رجل الدين إذا لم يكن هو نفسه إعلاناً حياً عن التدين .

والكاتب يعرف أن الحق وسط بين باطلين ، ولذلك يكره التطرف ويحب الوقوف في أحكامه بين الجبن والاندفاع ، بين التقتير والإسراف بين الإيجاز والإطناب ، وهو اتجاه لا يجعل منه شخصية فذة ، وإنما يجعل منه إنساناً سوياً .

ولكن لماذا يكتب وهو من رجال الادارة ؟

إنه يعتقد أن رجل السياسة إذا كان مطلوباً منه أن يجيب عن هذا السؤال : « من أين لك هذا ؟ » فيقدم بياناً بممتلكاته ، فإن على رجل الادارة أن يقدم حساب الأرباح والخسائر عن حياته فيكتب قصتها بالحق ، لتكون اعترافاته بإصاباتها وأخطائها نبراساً يهتدي به الذين يجيئون بعده .

وما دام صاحبنا يتقيد بالصدق فهو يجيب : « إنه في الحلقة السابعة من عمره ، يشبع رغبته في أن يسجل حياته . إنه يعرف أن علمَه سيطوي بعد أيام أو بعد أعوام . وهو يود بهذه الذكريات الصادقة أن يبقى علمَه مرفرفاً بعد مماته . إن الناس ـ لأنهم أخفقوا في مد آجالهم ـ قد وجدوا في الذكرى امتداداً طبيعياً لأعمارهم ، فعكفوا على إقامة التماثيل لعظمائهم ، وتسمية الشوارع والميادين بأسمائهم . واستخدم الأثرياء منهم أموالهم في إقامة المساجد والكنائس والمستشفيات ، بل في تشييد الأهرامات والمدافن . أما المواطنون العاديون ـ مثل صاحبنا ـ فهم يستخدمون قدراتهم في رسم الصور القلمية عساها تعيش . ولعل

فكرة الموت ورغبة التخليد هما اللتان تعللان مجيء التبرعات من الأغنياء في سن متأخرة ، وكتابة الناس مذكراتهم في سن متأخرة كذلك .

ولكن الرغبة في التخليد ليست كل شيء . إن وراء هذه الذكريات هدفاً أسمى هو أن يزيد إيمان الناس بالله . وإذا كان العلم يؤكد لنا أن لكل نتيجة سبباً . فإن الواقع يرينا أن من الناس من جدّ ووجد ، ومنهم من جد وأخفق ، كما أن منهم من لم يكن يستحق بعمله شيئاً من النجاح ، ولكن الظروف هيأت له أكثر مما يستحق . إن هذا الكون لغز محير ، وما نعرف منه قطرة في بحر من المجهول ، فعلينا ألا نيأس من الحياة إذا أخفقنا ، وألا نستنيم إذا أصبنا منها ما نبغي . ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ، ولكن لنؤمن دائماً أن للقدر يداً فوق أيدينا .

هدف آخر يكتب من أجله هذه الذكريات . إنه يقدم فيها نموذجاً لإنسان عادي بدل أن يتحدث عن الإنسانية . ولعل من الخير أن نتمثل شخصاً صحيحاً بدل أن نقرأ عن الصحة . ولعل من الأفضل أن نشاهد فتاة فقيرة بدل أن نقرأ عن الفقر . إن الإنسان لا يزال أهم موجود على هذه الأرض ، فهو الذي اكتشف القارات والحاسبات الإلكترونية ، وركب متن الطائرات والصواريخ . ودراسته لا تزال أعقد من دراسة الميكانيكا والكيمياء ، فلعل هذه الذكريات تصلح صورة قلمية لاتجاهاته إذا لم تكن تحليلاً علمياً لقدراته .

ولكن هل تأثر الكاتب في عرض ذكرياته بالأيام لطه حسين ؟

إنه يحب القصص منذ كان يكتبه ، وهو طالب في مدرسة التجارة العليا ، فتنشره المجلات الأدبية – ومنها الرسالة – اعترافاً بمستواه . والقصص بعض بضاعته التي يقدمها الآن في دار المعارف ، ثم

إنه وجد نفسه منذ صغره في توافق مع شخصية طه حسين ، بعد أن قرأ له كتاب « الأيام » فعرف منه أن عميد الأدب العربي نشأ في بيئة أزهرية كان هو يعيش فيها ، وأن نشأة العميد كانت حزينة ، وكان الكاتب لا يزال يعاني هذه النشأة .

ثم إن طه حسين أصبح مديراً لجامعة فاروق والكاتب مدرس بإحدى كلياتها ، فأتيح له أن يرى طه حسين الجامعي بعد أن تابعه عميداً للأدب العربي .

وترك الكاتب الجامعة إلى الصحافة فاتصل بطه حسين وزير المعارف ، ولمس في تصرفاته اشتراكية أصيلة غير مطرقة صدر عنها مبدؤه المشهور : « التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن » .

ثم ترك الكاتب مهنة الصحافة إلى مهنة الكتاب ، فتولى نشر « الأيام » مع ما ينشره من كتب طه حسين . ورأى بالأرقام مدى إقبال القراء على هذا الكتاب وتأثرهم به .

على أن الكاتب اختلف في الرأي مرة مع طه حسين وإن كان قد نزل أخيراً عند رأيه .

كان الكاتب مديراً لجريدة المصري ، وكان يعمل معه صحفي يتأخر في تقديم مواده ، فتتأخر الجريدة بسببه ، وبعد أن أنذره غير مرة فصله من عمله ، فوصل الخبر إلى الدكتور طه حسين ، وكان الصحفي أحد تلاميذه في كلية الآداب ، فغضب لذلك غضباً شديداً ، وعلم صاحبنا بالأمر فاتصل تليفونياً بالدكتور ، ليعرف سبب غضبه ، ودارت بينهما هذه المناقشة :

ـ هل صحيح يا دكتور أنك غاضب مني ؟
ـ ومن أدراك يا سيدي أنني غاضب ؟ هل هي عقدة الذنب ؟
ـ أؤكد لك يا دكتور أنني لا أشعر بخطأ فضلاً عن ذنب ، ولكنني أجد من واجبي أن أسترضيك حين تغضب .

ـ يا سيدي أنت مدير ، ومن واجبك أن تحضر وأن تتصرف في مواعيد محددة . أما الكاتب فهو يكتب حين يستوحي لا حين تريد أنت .

ـ إنه ـ حين تعاقد معي على أن يعمل صحفياً ـ قد قبل أن يقيد نفسه بمواعيد الجريدة .

ـ لا يا أخي . إن حرية الكاتب لا يمكن تقييدها بعقود .
ـ ليكن . ويكفي هذا الصحفي أنه تلميذك لكي يستحق العودة إلى عمله إنني كمدير أرى أن الحفاظ على صداقتك للجريدة كسب يزيد كثيراً على خسارتها بإعادة تلميذك .

ـ إنك تعتقد أن منطق المكسب والخسارة هو منتهى ما يصل إليه النجاح ، وأنا أؤكد لك أن في الحياة من المثل العليا ما يعلو على هذا المنطق .

قلت : هذا درس جديد أضيفه إلى مكسبي . وانتهى الحديث .

لقد خرج الكاتب من هذه المناقشة بأن رجال الأدب لا يجوز مطالبتهم بأن يكونوا رجال أعمال . إنهم زهور تملأ الدنيا عبقاً ، والزهور تنبت في الحدائق لا في المصانع والحقول !

وماذا بعد ؟

أما بعد فإن كتابة هذه الذكريات تنبع من رغبة شديدة الإلحاح على نفس صاحبنا في أن يقف في وجه اتجاه عارم عند أكثر الكتّاب العرب . إن كل واحد منهم يسرد ذكرياته فيتحدث عن الخطأ الذي أوشك الطرف الآخر أن يقع فيه لولا يقظة الكاتب وحرصه على التزام المصلحة العامة . وهو اتجاه لو ترك الناس حبله على غاربه لجعل من التاريخ مجموعة أكاذيب ، أو في الأقل القليل مجموعة من أحلام اليقظة لا تصلح مرآة للحقائق ، وإنما تصلح مرافعات أمام الرأي العام .

إن كتّاب الذكريات أكثرهم ملائكة فهم لا يخطئون . وإن أخطأوا فلا بد أن يكون ذلك لظرف طارئ ، أو لتفادي خطأ أكبر . هم دائماً من أسر كبيرة ، وقد نشأوا من أكرم أبوين ، وكانوا في مقدمة التلاميذ خلقاً وعلماً ، وكانت فيهم رجولة مبكرة على خلاف الجيل الجديد . فلما تقدمت بهم السن اختاروا مهنهم عن حب وإيثار ، وجاهدوا في سبيل اختيارها حتى هيأوا لأنفسهم تلك المكانة الملحوظة التي وصلوا إليها . وهيهات أن يعترفوا لقرائهم أو لأنفسهم بأنهم بشر يتبادلهم الفقر والغنى ، وتقلّبهم الظروف بين الخير والشر . إنهم لا يؤمنون بأن أكبر مؤلفات الكاتب حياته ، وبأن البشرية تطالبه بأن يكون صادقاً مع نفسه في عرضها على القراء .

إن جان جاك روسو كتب ذكرياته فقال فيها إنه ولد من أبوين غير شرعيين . وعبد الحميد شومان صاحب البنك العربي يفاخر في كل مكان بأنه بدأ حياته قاطع أحجار . وسعد زغلول يعترف في مذكراته بأنه كان يلعب القمار .

ولقد سعد صاحبنا بالفصول التي استقبلت بها الصحافة المصرية

الطبعات الأولى والثانية والثالثة من « ذكريات عارية » ؛ فقد كتب عنها الدكتور أحمد زكي في مجلة العربي الكويتية ، وعلي أمين في الأنوار اللبنانية ، وموسى صبري وأنيس منصور وأحمد زين وفهمي عبد اللطيف في الأخبار ، وأحمد بهجت في الأهرام ، وعبد الرحمن فهمي وإبراهيم الورداني في الجمهورية ، وماهر قنديل في مجلة حواء ، ومحمود سالم في مجلة الإذاعة والتليفزيون ، وصالح جودت في الكواكب والهلال ومحطة الإذاعة وفي مجلة الجديد .

وسعد صاحبنا بالندوة التي أذاعتها عنها « سامية صادق » من القاهرة ، والندوة التي أذاعتها محطة الإسكندرية واشترك فيها الدكتور إبراهيم عشماوي أستاذ الأدب العربي بجامعة الإسكندرية ، وبالندوة التي عقدها تليفزيون القاهرة واشترك فيها الدكتور السعيد مصطفى السعيد مدير جامعة القاهرة الأسبق والأستاذ محمود عوض الصحفي اللامع . والندوة التليفزيونية التي عقدتها جيلان حمزة في برنامج « في المرآة » .

وسعد صاحبنا بتكريم الصحفيين له بهذه المناسبة بنادي الجزيرة ، وبالصورة التي اشترك في إخراجها الفنانان الكبيران محمد يوسف وجمال كامل ، وباللوحة الكاريكاتورية التي قدمها له الرسام الكبير مصطفى حسين . كما سعد حين قررت وزارة التربية والتعليم « ذكريات عارية » كتاب مطالعة في المدارس الإعدادية والثانوية .

ولكن بعض أصدقاء صاحبنا استاءوا من كلمة « عارية » لأنها تنافي الوقار . وبعض أقربائه في الأزهر وفي الريف غضبوا من صراحة الذكريات لأنها تسيء إلى مكانتهم بين ذويهم ، فرأى صاحبنا أن

يصدر هذه الطبعة الرابعة لتؤكد تمسكه بالاسم ، ولتزيد إمعانه في الصدق ، وبذلك تصلح اعتذاراً عن الطبعات السابقة .

وبعض القراء أخذ على صاحبنا أنه غمط نفسه حقها حين نسب نجاحه إلى مجتمعه بعاداته وظروفه ، وإلى سنوات طفولته التي تكونت فيها مركباته وكادت تتجمد ، وإلى وسطه الثقافي والاجتماعي ، وإلى وطأة الحوادث وتنوعها . وصاحبنا يقول لهؤلاء : إنه كان دائماً حراً في الاختيار ولكنه اختيار الجبر . . وبعض القراء لم يجد في الذكريات عرياً لأن صاحبنا ارتفع فيها بالحب إلى الثلث الأعلى من الجسم . وإلى هؤلاء يقول صاحبنا : إن الحب جمال ، أما الجنس فهو « إزالة ضرورة » . والحب يقود إلى شرف الزواج ، أما الجنس فهو اعتداء على آدمية المرأة إذا لم يكن مشروعاً . إن الإنسان الحيوان ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخور كما يقول هنري ثورو .

إن صاحبنا يصف ذكرياته بأنها « عارية » لأنها حقائق مجردة . وهو يرجو أن تنجح هذه المحاولة فتدعو إلى حقائق أكثر عرياً ! ذلك أن في هذه الذكريات تزويراً بالحذف . فكل ما فيها حق . ولكنه ليس كل الحق برغم أن في هذه الطبعة فصلين جديدين وإضافات كثيرة .

إن صاحبنا يتحدث بصدق كامل حين يكتب عن طفولته وصباه ، ولكنه حين يتحدث عن عمله في الصحافة وفي الجامعة يرعى كرامة الأحياء ، ويتحاشى مسئولية القانون . وحين يتحدث عن كهولته يكتب على هامش نفسه لأن ما يكتبه عن صميمها لا يعجبه ، وما يعجبه لا يستطيع أن يكتبه . وكل ما يرجوه أن تدعو هذه المحاولة إلى محاولات أنجح .

مُقَــدّمَــة

بقلم : الدكتور شوقي ضيف

هذه ذكريات يشيع فيها ألوان من النقد الذاتي والموضوعي ، فهي ليست خواطر عن طفولة وصبا وشباب وكهولة ، وما بعد الكهولة فحسب ، بل هي أيضاً ملاحظات ناقدة عن الكاتب ونشأته وتربيته ، وعن بعض من عرفهم في حياته : في المدرسة وفي الأزهر ، وفي الجامعات المصرية والغربية ، وفي الصحافة وفي دور النشر ، منهم المدرس والعامل ورجل الأعمال والسياسي والصحافي وأستاذ الجامعة والوزير والطباع والآذن والموظف الكبير والصغير والفتاة المصرية والأوروبية : أنماط متباينة من الناس ، وذاكرته تسجل وترصد ، وهو يلاحظ وينقد ، ويبوح ويمعن في البوح والصراحة ، دون تحفظ أو مداورة أو مواربة ، ولا شك في أن كثيرين سيحاكونه في كتابة ذكرياتهم بهذه الصراحة المفرطة المحببة إلى النفوس .

ودائماً موقفان متقابلان يمتزجان : موقف الكاتب الراوي ، وموقف الناقد الساخر ؛ إذ يكثر الدكتور السيد أبو النجا من نقد كل شخص وكل شيء ، وينقد العادات الريفية التي كان يبصرها في قريته الصغيرة ، وينقد نفسه في كثير من تصرفاته مصوراً بعض عبثه في صباه وبعد صباه ، على نحو ما يحدثنا عن ذكرياته في

الجامع الأزهر ، وضيقه بكثرة من كانوا ينامون في ساحته وأروقته من الباعة وأصحاب الحرف ، فكان يتخذ من الورق ما يشبه « ماسورة » ويحشوها لا بالتراب ، ولكن بالشطة ، ويستلقي بجوار أحد النائمين وينفخها في أنفه في أثناء شهيقه ، فينهض مفزوعاً ولا يعود بعدها أبداً . وينقد تربية أبيه له مصوراً كيف كانت تقوم على الخوف والقهر مع البر والعطف والحنان ، ويعرضه دون أي حجاب حين يذكر عنه إلحاحه على مستر « فرنس » ناظر الخديوية الثانوية أن يعاقبه بالضرب المؤلم أمام رفاقه من التلامذة ، لأنه عبر عن شعوره الوطني ذات يوم إزاء أحد مدرسيه من الإنجليز ، ولا يخفى أن زملاءه في المظاهرات كان منهم الجريء الذي يفتح لرصاص الإنجليز الباغين صدره غير هياب ولا وجل ، ومنهم المتخاذل الذي كان يفر على وجهه أو يستخفي مروعاً مذعوراً . ويصف حياة الأزهر وما كان يحفها من تخلف ، وحياة الأزهريين وقيامها على الشظف الشديد . وينقد نظام الكشف الطبي عند التحاقه بالتعليم العالي ، وكيف كان يضطر كليل البصر من أمثاله إلى الغش والخداع ، وينقد أيضاً نظام القبول في هذا التعليم ، وكيف دفع به إلى مدرسة لا توافق هواه ، هي مدرسة التجارة العليا ، وكما يقول المثل القديم : رب ضارة نافعة . وينقد بعض أساتذته في تلك المدرسة ، لأنهم لم يكونوا يرعون في امتحاناتهم لطلابهم عهداً ، ويأسى لبعض الصحافيين أن يكون مثل دوّارة الريح ، فهو في الصباح يكتب في صحيفة حزب حتى إذا كان المساء كتب في صحيفة خصومه بائعاً نفسه بثمن بخس دراهم معدودات . ويحمل على بعض من كانوا

يتجرون بالحزبية ، كما يحمل على بعض المنتسبين إلى الدين ممن لا يتجاوز عندهم أطراف اللسان وحركات أعضاء الجسم دون أن يمس ضمائرهم وسلوكهم . وينقد ما كان من شيوع المحسوبية البغيضة في التوظف أيام أن كان الحكام يعزون ويذلّون ، ويبسطون الرزق لمن يشاءون ، ويكفونه عمن يشاءون دون وازع أو رقيب ، ويسخر من نفسه سخرية مرة لولعه بالمظاهر حين أصبح مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة بالظاهر ، وتدور به الأيام دورات ، وتمده الصحافة ودور النشر بشخصيات كثيرة يضع كلاً منها في مكانه السوي ، وهو عادة من الشباب الممتاز – ينزل أو ينزله – مكاناً عليًّا ، والمعوج – ينزل أو ينزله – مكاناً زريًّا ، ويعرض بعض تجاربه مع الناس مصوراً ما كان يهدي بعضهم لبعض من الشر والكيد والمكروه تصويراً لاذعاً .

وكل هذا النقد يجسمه الدكتور السيد أبو النجا في أشخاص وأحداث ، ونحس أنه يحاول بقدر وسعه أن يتحرى الإنصاف ، مبتدئاً دائماً بإنصاف قارئه من نفسه في ملاحظاته ، وفيما يطلعه عليه من خفيات حياته وأسرار عمله ونجاحه فيه ، حتى ليعترف بما استلزمه نجاحه أحياناً من بعض الخبث والدهاء . وقلما نشعر عنده بمبالغة ، إذ لا يواري ولا يداري ، وكأنه يريد أن ينقل الواقع نقلاً مطابقاً له دون أي تزيد ، مما يطبع كلامه بطوابع الوضوح واليسر والسهولة ، وهي طوابع تشفع بغير قليل من السخرية والفكاهة والدعابة ، مما يملأ نفس القارئ شوقاً إلى متابعة القراءة حتى الفراغ من الكتاب .

ومن أطرف ما نقرأ فيه من فكاهات خطبة لسيف الإسلام أحمد ، مندوب المملكة المتوكلية اليمنية في مؤتمر فلسطين الذي انعقد بلندن سنة ١٩٣٨ ، بدأها بقوله : « أيها السادة ! إن الخلاف القائم بين الإنجليز والعرب سببه العفاريت » ! وتمادى سيف الإسلام في هذه الخطبة المضحكة والمترجم المصري يغير – وقد تصبب عرقاً – في معانيها بما يلائم المؤتمرين ومؤتمرهم ، ونترك للقارئ إكمال قراءتها في موضعها . ولعل كل ما كتب عن تخلف اليمن في عهد تلك المملكة الحالك لا يبلغ في التعبير والتصوير مبلغ هذه الخطبة التي لا تعد خطبة ، وإنما تعد عبثاً عقليًّا كبيراً ، تهوي فيه من حالق كل قواعد المنطق ، حتى لنشعر بفقدان توازننا ، وإذا بنا نستغرق في الضحك دون نظام ، أو قل في فوضى كفوضى ما نقرأ من الكلام . وتلمع في الذكريات من حين إلى حين بارقة الدعابة ، حتى في أثناء ما يسرده الدكتور السيد أبو النجا من بعض الأحداث ، على شاكلة ما يرويه حين استقال من الجامعة ليدير شركة الأخبار المصرية لقاء مائة وخمسين جنيهاً شهريًّا . بعد أن كان راتبه من الجامعة خمسة وثلاثين جنيهاً لا غير ، قفزة أو وثبة لم تكن في الحسبان . وقد مضى يذكر كيف كان يعيش براتبه الجامعي المحدود ، فقد كان يشتري الدجاجة فيشرحها تشريحاً ليتناول مع أسرته نصفها في يوم ويحتفظ بنصفها الثاني ليوم تال ، بسبب ضيق ذات يده ، وكانت الفاكهة المشتراة بلحاً حتى ينتهي موسم البلح ، فتصبح جوافة حتى ينتهي بدوره الموسم ، وكان يسكن في حي العباسية فانتقل إلى حي الزمالك الأنيق ، وكان أولاده يتعلمون في المدارس الأميرية فنقلهم إلى المدارس الخاصة ، وكان يتنقل في « الترام » فأصبح يتنقل في سيارته

وحده أو مع أسرته ، كما أصبح يقيم الولائم الفاخرة للمتعاملين معه من أصحاب الأعمال .

ويلفتنا في الذكريات تطور عقلي واضح لصاحبها في مراحل حياته ، فهو في نشأته محمل بخرافات وتقاليد كثيرة تلقاها من أسرته ومن بيئته التي أحاطت به ، حتى لنراه مندمجاً في بعض الطرق الصوفية ، وما تزال خبرته بالناس من مختلف المنازع تدفعه إلى التفكير السليم ، وإلى أن يلقي عن كاهله أثقال التقاليد والخرافات ، حتى يوشك وهو في التعليم العالي ، أن يتخلص من كل تلك الترهات . ويذهب إلى الغرب في بعثة ، فيتكامل تحرره العقلي ، ويستقر في نفسه أن الغاية المثلى للمناقشة البحث عن الحقيقة لا غلبة الخصم وقهره ، وأن المجاملة شيء والنزول عن الحق شيء آخر لا يتصل منها بسبب . ونؤمن دائماً بصدق لهجته وشدة إخلاصه ، وإن كنا نعتب عليه لإكباره الإنتاج ومغالاته الشديدة به ، حتى لتصبح الحياة بدونه شاحبة ، بل مقفرة كطلل مهجور ! وحقًّا بدون الإنتاج تكون الكارثة أو الكوارث الاقتصادية ، ولكن ينبغي أن نذكر بجانبه دائماً معاني الحياة الروحية ، فليس كل ما في الحياة إنتاجاً ، ولو صح ذلك لخلت الحياة من مباهجها ومفاتنها التي تغذي فينا الشعور بالجمال ، ولأصبح الإنسان يعيش لينتج ، لا ينتج ليعيش معيشة تسمو به إلى معاني الحق والكمال ، إلا أن تكون هذه المعيشة نفسها ضرباً من ضروب الإنتاج .

ويؤكد الدكتور أبو النجا في غير موضع من ذكرياته أن كل ما أصابه من توفيق أو نجاح إنما هو ثمرة ظروف عارضة خارجة

عن إرادته ، وكأنه يريد أن يقول في إصرار إن شيئاً من نجاحه أو توفيقه لم يؤد به إلى غرور ولا إلى ما يشبه الغرور ، فهو يعرف قبل غيره قدر نفسه ، وهو تواضع حميد ، ومنه تسري أسراب كثيرة إلى الذكريات ، وتسري معها بساطة مسرفة ، ولعلها هي السبب في عدم العناية بالأداء أحياناً واستخدام بعض الكلمات الدارجة . ولا أرتاب في أن الدكتور أبو النجا يقصد إلى ذلك قصداً حتى يرفع الكلفة بينه وبين القارئ ، ويحل محلها ألفة شديدة ، وهو يستعين عليها بوسائل كثيرة ، بلغته اليسيرة وبصدقه وصراحته وتواضعه ودعابته ، مما يجعل هذه الذكريات خفيفة سائغة قريبة إلى نفوس قرائه.

رَأس أزهـري في طربُوش

لم يكن يوماً زعيماً سياسياً . فلا هو انتظم في عضوية إحدى لجان الطلبة خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، ولا دعا مرة في إحدى المناسبات السياسية للإضراب في مدرسته احتجاجاً أو ابتهاجاً . كان تلميذاً مجتهداً فقط : يحضر إلى المدرسة بحارة الروم في موعدها المقرر ، ويدخل الفصل في هدوء ، فيبقى فيه إلى أن يرى الأدراج قد خلت من حوله ، فيأخذ ما شاء من كتبه وينصرف إلى منزله في الباطنية .

ولعل السر في هدوئه أنه فقد أمه قبل أن يبلغ السنة الأولى من عمره فتولته إحدى المرضعات ، ثم أسلمته إلى إحدى الخادمات ، فلقي من جهلهما ما يلقاه أهل الريف من سحابة على العين ، وأمراض مستوطنة ، وخرافات تملأ الرأس الصغير ، وبقي الطفل يلعب الكرة « الشراب » مع أترابه في أزقة القرية حتى دخل كتّاب الشيخ « أبو درويش » ، ووصل في حفظ القرآن إلى سورة القصص ، فأعد رأسه لدخول العمامة ودخول الأزهر .

ولكن قريباً له جاء مع أبيه يوماً في زي الأفندية ــ وكان تلميذاً في إحدى مدارس الإسكندرية ــ فأثار بزيه إعجاب أهل القرية جميعاً ، وكأنما كان يحمل عصا سحرية ، فإذا والد الصبي ــ وكان من شيوخ الأزهر ــ يدخل عليه منبسط الوجه والعمامة ويقول : « ستلبس بدلة مثل قريبك وتدخل المدرسة » .

وجاء يوم الرحيل إلى القاهرة ، فدارت الدنيا بالصبي من كثرة العوامل التي تدعو إلى فرحه والعوامل التي تدعو إلى حزنه . إنه يترك قريته الصغيرة إلى « مصر » ، أم الدنيا ، ليرى معجزاتها التي منها ـ كما كان يسمع ـ أن الماء ينساب في ماسورة تمتد مع الحائط ، والنور يتدفق في خيط يتدلى من السقف ، وأن الترام يجري وحده فوق قضبان دون أن يجره حصان ، وأن حديقة الحيوان فيها أسد يزأر وفيل ينأم ، وفيها من عجائب البحر ما يقلب الفلك وهي تسير . ثم إن في مصر مسجداً لسيدنا الحسين ، ومسجداً للسيدة زينب ، فيهما تقام الموالد الحافلة والأذكار .

كان يطرب حين يفكر في هذا كله ، ولكنه كان يحزن حين يخطر بباله أنه سيترك امرأة عمه إلى امرأة أبيه . إن الأولى هي التي قامت بدور أمه منذ فقدها ، فاحتضنته ، وأحاطته برعاية لم يكن يتمتع بمثلها طفل في القرية . لم ترزق بخلف فصبت حنانها فيه ، وكانت فارسة تركب الخيل ، وزعيمة تسير على رأس نساء القرية كلما كان فيها محزنة ، أو كان فيما جاورها ما يستحق المشاركة . كان الصبي يحب القاهرة بعقله . ولكنه كان يكرهها بقلبه ، لأنه لا يستطيع أن ينتزع نفسه من دنياه الصغيرة التي نشأ فيها ، ومن ناسها الذين عايشوه ، ومن ساقيتها التي كان يطيب له أن يدور فيها حتى ينفد الماء من بئرها فتظهر الأسماك متخلفة في القاع .

وركب القطار مع والده من « أبو كبير » لأول مرة . وفي حي الباطنية بالقاهرة قضى ليلته الأولى ، فلما كان الصباح ذهب به أبوه إلى بائع الملابس بالغورية ، وطلب منه أن يعد للصبي ما يلزمه لدخول

المدرسة ، فاختار الرجل بدلة وحمالة وقميصاً وربطة عنق طواها جميعاً في غلاف دون أن يستشير الطفل في اللون أو الوالد في المقاس ، فقد كان واضحاً أن هذه هي تجربتهما الأولى . ولم ينهض الوالد لممارسة حقه كمشتر إلا حين طلب منه الرجل جنيهين كاملين ، فاستعان الوالد بما يحفظ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما روى عن السلف الصالح ، حتى بلغ التأثر بالرجل مبلغه فقبل أن ينزل بما يطلب إلى جنيه ونصف .

وجاء يوم المدرسة التحضيرية ـ وكانت الجمعية الخيرية بدرب الجماميز ـ فحاول الصبي أن يرتدي ملابسه ، ولكنه عجز . واستغاث بوالده ، فوضع الحمالة في عنقه ، فلم تؤد مهمتها على الوجه المطلوب ، ثم عرف من خرومها أنها لأزرار البنطلون ولكنه يدير أطرافها حول وسط الصبي فلا تستقيم ، ويمطها فتأبى أن تستطيل . إن فيها جهازاً للتطويل لا يستطيع أن يستخدمه ، والساعة اقتربت من الثامنة ، فلم يجد سبيلاً إلا أن يأخذ ولده في ملابسه الداخلية إلى الطريق العام !

كانت الأسرة تسكن في حارة ملتوية لا يغشاها أفندية ، كانت حافلة بصنوف من صناع الأحذية والمراكيب الذين لا يكفون عن الدق طول النهار وطرفاً من الليل . أما الأفندية فكان لهم مسار آخر يتصل بمفترق قريب ، وكان السكان يذهبون إلى هذا المفترق كلما احتاجوا إلى شيء من البقالة أو الفجل . وإلى هذا المفترق جاء موظف في طريقه إلى المصلحة يشد حبّات مسبحته في عصبية بادية ، وكان يردد في سره عبارات لا خشوع فيها ، وكأنه يتوجه إلى الله قائلاً : « هات علاوة .. هات علاوة » ، ولذلك لم يرتح له الشيخ أول الأمر ، لكنه ـ تحت

ضغط الظروف ـ استوقفه ، وأخرج له ملابس الصبي من « البقجة » راجياً أن يدله على طريقة استعمالها . فارتسمت على فم الأفندي ابتسامة خفيفة ، ولكنه رحّب بالمهمة ، وشرح للشيخ وظيفة الحمالة بشعبها الثلاث ، أما ربطة العنق فبقيت معقدة أشد التعقيد ، ولذلك قنع الشيخ برؤية ولده وقد استدارت الربطة حول عنقه .

وجلس الصبي في الفصل شديد الضيق بمقعده الخشبي ، وبما يحيط بجسمه من ضوابط : فالحذاء في قدمه ، والربطة في عنقه ، والطربوش على رأسه ، والجاكتة تحوط صدره ، والبنطلون يشد بطنه ويفصل رجليه ، مع أنه كان إلى الأمس القريب يمرح في القرية في جلباب فضفاض ، ويلعب الكرة بقدميه العاريتين .

ولاحظ الشيخ سعيد مدرس الفصل أن الصبي لا يشارك زملاءه في مرحهم ، ولا يشترك معهم في إجاباتهم الجماعية عن أسئلته ، فناداه من بينهم ، وطلب إليه أن يطالع الصفحة الأولى من القراءة الرشيدة ، فإذا بالصبي يلتهمها بعينيه التهاماً ويقرأها متدفقاً « أرنبٌ جملٌ . حصانٌ . قطةٌ . غزالٌ . . » فدهش الشيخ سعيد لمقدرة الصبي . وسأله عن اسمه ، فأجاب في نفس واحد : « السيد الصادق عبد المعطي أبو النجا من كفر عيسى أغا مركز فاقوس شرقية » ، فضحك الشيخ سعيد من سذاجة الصبي وسأله عن أبيه ، فأجاب في نفس واحد أيضاً : « الشيخ محمد الصادق أبو النجا من علماء الأزهر الشريف بحارة الباطنية نمرة (٦) » . وكان والد الصبي قد لقنه كل هذه المعلومات وأعادها عليه مرات حتى حفظها خوفاً من أن يضل في طرقات القاهرة فيتعذر عليه أن يدل على منزله .

قال الشيخ سعيد : « أين تعلمت يا شاطر ؟ » فأجاب الصبي : (حفظت من القرآن حتى سورة القصص في كتاب سيدنا الشيخ « أبو درويش » وتعلمت الحساب حتى الكسور الاعتيادية في مدرسة الشيخ عبد الواحد) . فربت الشيخ سعيد على كتفه وقال : « ما شاء الله انتظرني يا بني بعد الدراسة فإنني أريد أن أذهب معك لمقابلة أبيك».

وحاول الشيخ سعيد أن يقنع والد الصبي بنقله إلى السنة الأولى في مدرسة أخرى ـ ولم يكن في مدرسة الجمعية الخيرية سوى السنة التحضيرية ـ ولكن الوالد أصر على ألا يرسل ولده ـ وكان في السابعة ـ إلى مدرسة بعيدة فيتعرض في الطريق لعربات الكارو والحنطور .

ولم يكن بالشقة التي يسكنها الصبي إلا مصباح صغير نمرة (٥) يضاء بالكيروسين يتداوله أفراد الأسرة فيتنقلون به من غرفة إلى أخرى. ولذلك كان يستذكر دروسه في الأزهر الشريف الذي كان يضاء بغاز الاستصباح . واشترى له أبوه مصباحاً نمرة (١٥) كان يربطه بحبل في العمود فيضيف إلى نور الغاز نور الكيروسين . وكان لهذا الامتياز أثره في التلاميذ الذين كانوا يستذكرون في الأزهر ، فتقرب منهم كثيرون إلى الصبي ، ليسمح لهم بالمطالعة معه في ضوئه .

وكان بين الأولاد تلميذ في الجمعية الخيرية يتوسم فيه والد الصبي الفطنة والذكاء ، ففي إحدى الأمسيات جاء الوالد للتفتيش وسأل ابنه إن كان قد تعلم شيئاً من الإنجليزية ، فأجاب بالنفي ، ولكن هذا التلميذ خالفه في خبث ، وأنشأ يلقي أحرف الأبجدية الإنجليزية في تتابع ـ ـ وكان قد حفظها من قبل ـ فظن الوالد أن التلميذ بدأ ينطق هذه اللغة فعلاً بعد أيام قليلة ، وثار على ولده ، وأقسم ليضعن أرجله في الفلقة ،

فبكى الصبي ما شاء الله له أن يبكي ، وضحك زميله ما شاء الشيطان له أن يضحك .

وجاء يوم عقد فيه الشيخ سعيد امتحاناً لتلاميذه ، وأعلن قبله أن من يكون الأول سيعين « ألفة » على الفصل ، فسعد الصبي بهذا الإعلان لأنه كان يطمع في أن يكون على رأس فصله ، ولكن شيئاً خفياً كان يقلقه ، فماذا يحدث يا ترى لو ظهرت النتيجة دون أن يكون فيها « الأول » ؟ !

وعلى الرغم من هذه السذاجة البادية كان الصبي أول التلاميذ وصار الأول في السنوات كلها بعد أن انتقل إلى مدرسة العقادين حتى حصل على الشهادة الابتدائية . وذلك لأن دراسته الأولى في كتاب الشيخ « أبو درويش » ومدرسة الشيخ عبد الواحد كفلت له تفوقاً على أقرانه في اللغة والحساب ولكن ذهنه بقي ريفياً لم يتفتح . كانت معلوماته أكثر .. وثقافته أقل .

كانت دنيا الصبي تحدها تلال المقطم من الشرق وميدان العتبة الخضراء من الغرب . وكانت السوق هي الغورية والسكة الجديدة . أما الموسكي فللأغنياء فقط : في وسطه محل الجمال للملبوسات وفي نهايته محل الماوردي للمفروشات . وما بعد العتبة الخضراء حرام على المصريين ، لأن محال سلامندر وشيكوريل وشملا أجنبية للمبرنطين : الحديث فيها رطانة ، والداخل إليها يتمتع بالامتيازات الأجنبية ، والأسعار فيها فوق دخول الفلاحين والموظفين .

وكان صاحبنا لا يرى بأساً في أن يخرج بالشبشب ، لكنه إذا نوى الذهاب إلى العتبة لبس ما يساوي عنده « البنجور » ، وهو الجاكتة

فوق الجلباب مع الطربوش والحذاء . فإذا كان الجو حاراً في الصيف ركب « سوارس » بثلاثة مليمات ، وإذا ارتفع ما في جيبه إلى خمسة مليمات ركب أوتوبيس سيد يس ، وتلفت ذات اليمين وذات الشمال عساه يرى أحداً من أصدقائه سائراً على قدميه ، فيحييه ، ليلفت نظره إلى العز الذي هو فيه .

وكان يقضي عصر الخميس بالتناوب بين شبرا وقصر النيل مع بعض من يكبرونه سناً من الأزهريين . أما شبرا فبقرب النيل لغسل الملابس ونشرها ، ثم إنفاق الوقت في لعب الكرة حتى تجف ،وأما قصر النيل فلمص القصب حيث كان يزرع في أرض المعرض الحالية . وكانت الجماعة تدفع قرشاً واحداً تشتري به من الزارع عشرة عيدان تجدّ في مصها حتى إذا أتت على أغلبها بدأت تعتدي على العيدان المزروعة حتى تحس باكتفاء فتجهز على ما بقي من عيدان مشتراة .

كان صاحبنا ينفق في هذا ومثله أوقات فراغه لأنه كان لا يحب بيته . إن أمه ليست فيه ، وامرأة أبيه تعطيه ابنتها الصغيرة ليحملها ، فيضيق بها بعد حين ، فيقرصها في فخذها لتبكي ، ثم يتظاهر بإسكاتها فتقبل أمها عطفاً عليها ، ولكن الأم كانت تعنفه على خيبته في مداعبة أخته ، وتغلظ له في القول أحياناً كثيرة . والبيت كان فراغاً كله إلا من سرير والده الذي يمثل المرتفع الوحيد في الشقة . كانت الأرضية من البلاط المعصراني ، وكان لكل فرد حشية ترفع من مكانها متى قام من نومه . والطعام يتألف في أغلب الأحيان من مستخرجات الفول حتى يجيء يوم الجمعة فيتحلق الجميع حول طبلية عليها رطل من اللحم المسلوق وطبق من الثريد .

لقد كان أبوه يتقاضى في الشهر ثلاثة جنيهات ، ينفق منها ثمانين قرشاً في إيجار الشقة ، ويعتمد في الخبز على « الجراية » وهي ستة أرغفة تأتيه يومياً من وقف خيري ، مع تكملتها بدقيق يأتيه من أرض زراعيه يملكها في الشرقية ، فيخبز منه في فرن البيت ما يكمل به حاجة الأسبوع وقد جرى العمل على أن تباع الجراية صباح الجمعة ما دام في البيت خبز طازج ، وبالثمن تشترى وجبة فول . وكان صاحبنا يقوم بهذه المهمة فيدور بالأرغفة في سوق الجراية على من يتوسم فيهم الرغبة في شرائها ، ويعود فيأخذ طبقاً كبيراً يملؤه فولاً وزيتاً .

وفي أيام الدراسة كان أبوه يعطيه خمسة مليمات يشتري بها إفطاره ويلف له رغيفاً وقطعة من الجبن أو العجة لغدائه ، فإذا لم يكن في البيت ما ينفع للغداء أعطاه خمسة عشر مليماً للإفطار والغداء معاً ، وترك له حرية التصرف . وإذا بدت هذه المعاملة قاسية اليوم فإن وقعها على صاحبنا لم يكن بمثل هذه القسوة . فقد كان ينظر إلى المخالطين له من الأزهريين فيجد نفسه أحسن منهم حالاً وأكرم مستوى . كان يرى الأزهري يشتري من بائع الطرشى بمليمين هو مع الخبز كل غدائه ، ويعود إلى نفس البائع في المساء برغيف يطلب منه أن يرش عليه شيئاً من ماء اللفت ، فيكون الرغيف المبلل كل عشائه . أما وليمة الأسبوع فهي طبق من الفول المدمس يطهى مع سمن من المحلبة وبصلة مما في الخزانة ، أو هي طبق من الفلافل يشترى من عند « مهيأ » ومعها بعض الطحينة . وحين تبلغ السعة مداها يجتمع الفول والفلافل في وجبة واحدة ، فتنتقل الأيدي من لون إلى لون . وإذا سخا الأزهري على نفسه انتقل إلى « المسمط » فطلب ثريداً ولحم رأس بقرش كامل .

أما الأطعمة الأخرى كالكباب والفاكهة وصنوف الحلوى فلم تكن في رأيه للتغذية ، وإنما كانت للتفكه مرات في السنة ! .

إن صاحبنا كان يتردد على دكان صغير في الكحكيين يبيع الفول المدمس مع الشاي والقهوة ، فيتناول إفطاره كاملاً بالملاليم الآتية :

مليم

١ فول وزيت حار

٢ ½ رغيف عيش بلدي

١ كوب شاي بالنعناع

½ بقشيش مقابل كوب أو كوبين من الماء المثلج

والمجموع الكلي خمسة مليمات ! !

وكان لصاحبنا قريب يتردد على بائع طرشى فيروي له في كل مرة حلماً جديداً من الذاكرة ، فيه مثلاً « أنه رأى في المنام طائراً أخضر على شجرة مورقة ، وقد غرد الطائر فتدفق النور وأشرق وجه النبي الكريم من تحت الشجرة ، وهنا تقدم بائع الطرشى وفي يده إبريق . الإبريق فيه ماء . والماء يفوح منه عطر . وأخذ يصب الماء من الإبريق على يدي النبي وقدميه حتى أكمل وضوءه وقام للصلاة » ... وهنا تكون النشوة قد بلغت قمتها في نفس بائع الطرشى فيغتنم الشاري هذه اللحظة ويقدم طبقه طالباً أن يضع فيه البائع « بمليم طرشى » فيملأه البائع خياراً ولفتاً وبصلاً زلفى إلى الله وعرفاناً بجميل الشاري .

ويذكر صاحبنا أنه اشترك يوماً مع ثلاثة من أصدقائه الأزهريين في وجبة فول فدفع كل منهم نصيبه وأعطى كبيرهم صغيرهم عشرة مليمات يذهب بها إلى « مهيأ » فيشتري فولاً وزيتاً ، فاعترض الثالث

على هذه الفخفخة وقال : « دع الزيت بالله عليك وهات بالقرش كله فولاً خالصاً ليأخذ كل منّا حظه كاملاً » .

كان الأزهريون يعرفون جيداً معنى التقشف ويرددون قول الشاعر إمام العبد :

لولا بقية دين أمسكت قلمي   لقلت إن إله العرش لم يـرني

وكان الأزهر معهداً ومسجداً ومسكناً : يتعلم فيه الأزهري ويصلي ويعيش . ومتى جاء الليل تجول المسجد إلى ساحة للنوم تحتوي مائتين من ذوي العمائم والطرابيش والطواقي . وتضم الطلاب والمقرئين والشحاذين . وفي رمضان يكثر عدد المقرئين في العاصمة فيتوافدون في المساء على الأزهر ليناموا على حُصره ولينعموا بدفئه ، ومعهم ما جمعوه في المقابر من بلح وفطير .

وفي إحدى الليالي ضاق الصبي بهؤلاء المتطفلين ، فتآمر مع زملائه على مطاردتهم . لقد حشا كمية من الشطة في ماسورة من الورق ، ورأى حانوتياً مستغرقاً في النوم ، وقد أسند رأسه فوق ربطة مما أعطاه الله في أثناء النهار ، فنام إلى جانبه ونفخ الشطة في أنفه في أثناء شهيقه ، فنهض واقفاً من أثر ما حل به ، وإذا هو يرى صبيين يجريان وفق ترتيب سابق فجرى في أثرهما ، وقام الذي كان نائماً فنثر ما في الربطة على أرض المسجد ، وتجمع الأزهريون من كل مكان ليأكلوا ويشمتوا . وتكرر هذا الفصل مرة بعد أخرى مع المقرئين والحانوتية حتى امتنعوا جميعاً من غشيان الأزهر . .

وبقدر ما كان صاحبنا يكره المقرئين الذين يجيئون من المقابر كان

يتطلع إلى مولد الحسين في كل عام ليمتع نفسه بسهرة حتى الصباح في منزل أحد المريدين ، وكان يلقي فيه الشيخ المحلاوي تواشيحه فيدب على الأرض بقدميه ، ويرفع يديه إلى السماء كلما جاء في القصة اسم الرسول والتابعين . وكان يظهر على المسرح أول الأمر في عباءة موشَّاة بالقصب يتخفف منها بعد قليل بسبب الحر ـ أو هكذا يتظاهر ـ فيبدو في جبة وردية ، ثم يخلع الجبة لأن الحر يلاحقه ويبدو في قفطان من القز المخطط يحيط بوسطه حزام معقود من أمام عقدة فنية .

ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الحي جميلاً في جميع فصول السنة إلا في الشتاء حيث ينزل المطر فتتحول الحوارى إلى بحيرات يتعذر السير فيها ، فيجد باعة البطاطة من الأربح لهم أن يتحولوا عنها إلى استخدام عرباتهم في نقل الآدميين .

وقد ينزل المطر على الأسقف الخشبية للمنازل فلا تحجبه عن الغرف ، وإنما تفسح له في الطريق ، فإذا السكان يستقبلونه في جرادل يضعونها في وسط الغرف ، ثم يستديرون حولها فيتبادلون الحديث على خرير الماء حتى يمتلئ الجردل فتحمله إحداهن لتفرغه في الحمام ، ثم تعود به ليؤدي رسالته من جديد .

ولكن هذا الحي مع ذلك كان مسرحاً لأحداث سنة ١٩١٩ . كانت المظاهرات العاتية تتجمع في صحن الأزهر . ثم تتدفق منه هائجة غاضبة بعد ما سمعته من الخطب والقصائد ، وإن صبينا ليذكر سعداً وهو يعتلي منبر الأزهر بعد صلاة الجمعة فيقول : اعاهدكم عهداً لا أحيد عنه وهو أن أموت في السعي لاستقلالكم فان فزت فذلك ، وإلا تركت لكم إتمام ما بدأت به ، ويذكر الشيخ

مصطفى القاياتي وهو ينشد قصيدته عن تهجم الإنجليز على مساكن الفلاحين بالبدرشين فيقول :

أومَا علمتم ما جرى   بالبدرشين من الدمار
سلبوا الحلى من النسا   ء وخربوا البلد العمار

ويذكر من قصيدة حافظ إبراهيم في مظاهرة قامت بها السيدات قوله :

خرج الغواني يحتججـ   ـن ورحت أرقب جمعهنه
وأخذن يجتزن الطريـ   ـق ودار سعد قصدهنه
وإذا بجيش مقبل   والخيل مطلقة الأعنة
وإذا الجنود سيوفها   قد صوبت لنحورهنه
والورد والريحان في   ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا   عات تشيب لها الأجنة
فتضعضع النسوان والـ   ـنّسوان ليس لهنّ مُنّه
فليهنأ الجيش الفخور   بنصره وبكسرهنه

وهذا الشعر السياسي يعود بذاكرة صاحبنا إلى وراء ... إلى واقعة دنشواي التي قال فيها شوقي :

يا دنشواي على رباك سلام   ذهبت بأنس ربوعك الأيام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها   وبأي حال أصبح الأيتام
نيرون لو أدركت عهد كرومر   لعرفت كيف تنفذ الأحكام
السوط يعمل والمشانق أربع   متوحدات والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر   تدمي جلود حوله وعظام

هكذا راجت سوق الشعر في الحي بسبب السياسة ، فعالج غيرها

من الأغراض ، فلما عاد الشيخ النجدي شيخ « الشراقوة » من الحج استقبله الشيخ الأحرازي بقصيدة كان مطلعها :

عجبي لبحر فوق ظهر سفينة   كيف استطاعت أن تسير وتعبرا

ولما رقي الشيخ محمد شاكر سكرتيراً عاماً للأزهر هنأه الشيخ الأحرازي بقصيدة قال فيها :

تنقل فدتك النفس فالمنصب الأعلى يناديك أهلاً مذ رآك له أهلاً
خطبت له كفئاً كفيلاً بمجـــده خبـيراً بـه شيخاً مهيا له طفلاً

لقد اندمج الصبي في وسطه الجديد فأصبح يحب الشعر ويقرضه، ولكن قريته بقيت حبيبة إلى قلبه ، يحن إليها كلما انتهت السنة الدراسية وقربت إجازة الصيف ، وقد كان يستعد للسفر فيشتري فانلات ملونة ذات كم طويل وجلبابين من الزفير الفاخر وزجاجة من القسيس ذي العطر الحاد وعصا من الأبنوس يتوكأ عليها فيبدو كبير المقام . وهو لا يزال يذكر صيف سنة ١٩١٩ ، فقد نزل من القطار في ههيا ، لأن القطار تعطل فيها ، وامتطى دابة كانت في انتظاره ، لتحمله إلى كفر عيسى . وفي الطريق مر على بلدة شرشيمة فإذا فلاح منها يتعرض له ويطالبه بالنزول من على حماره ، فلما سأل الصبي مرافقه عن سبب ذلك ، طلب إليه أن يطيع ، فالبلدة واقعة في تفتيش أحد الأمراء ، والأمير هناك . وسار الصبي مطرقاً مع مرافقه خلف الحمار ، حتى جاوز البلدة .. وأدرك الصبي أحد الأسباب التي أدت إلى قيام ثورة ١٩١٩ ، وإن بقيت غير معلنة ..

زَهْـرَةُ الصِّبَا تتَفتَّح
١٩٢١

اشتد عود الفتى ، بعد أن أصبح مراهقاً يقف على أبواب الرجولة ، وكان يستعجلها فيحلق ذقنه قبل أن ينبت بها شعر ، ويدخن أمام الناس برغم أن التدخين يسبب له السعال ، ويمسك في يده « منشة » يهش بها على نفسه دون أن يكون في الجو ذباب ولا ناموس .

وقد بدأ يتأذى من أثر كي بالنار في قفاه أحدثه أعرابي ليشفيه من حمى أصيب بها وهو صغير ، فكان يسير وقد شد رأسه إلى خلف ليمتد شعره فوق قفاه فيغطي أثر هذا الجرح . وكان شد الرأس يستدعي شد القامة ، وشدها يفرض مشية فيها خيلاء .

ويبدو أن الشعور بالنقص من أثر هذا العيب الجسمي قد انقلب بمضي الوقت إلى شعور بالاستعلاء ، فقد لاحظ الفتى أنه حصل على الشهادة الابتدائية ولما يصل إلى الثالثة عشرة من عمره ، ورشحه مجموع درجاته لأن يدخل المدرسة الخديوية ، وكانت تتقدم المدرستين الأخريين في القاهرة ، وهما التوفيقية والسعيدية . يضاف إلى هذا أنه متفوق في النحو والصرف ، لا يكاد الشيوخ من أعمامه يرونه مع أبناء عمومته حتى يمطروهم بوابل من الأسئلة في إعراب جملة معقدة مثل « ف القنديل زيتاً » وفي تحويل المبني للمعلوم إلى مبني للمجهول مثل : « كان الله

في عونهم » لتصبح « كين في عونهم » وفي اسم الفعل لتتحول جملة « اجلس يا غلام » إلى « جلاس يا غلام » وفي اسم الإشارة للمؤنث السالم مع التأكيد لتصبح « هؤلاء » هؤليائكن .. إلى آخر هذه المعمّيات التي لا تؤدي إلى تبسيط اللغة وتحبيبها إلى التلاميذ ، وإنما إلى تعقيدها وإبعادها عن أفهامهم الصغيرة .

وكان تفوقه في حل هذه المشكلات اللغوية يزوّده بشحنة من الاعتزاز بالنفس ، فيتيه على أترابه بعلمه . ويستعلي عليهم باستقامته ، ولكن فتيات الأسرة كن يفضلن سائر الفتيان عليه ، لأنه كان في رأيهن « كفقهاء الكتاتيب ومشايخ الطرق : لا يعرف النكتة الحلوة ، ولا المرح الجذاب . لقد تأخر به الزمان فعاش في غير زمانه » .

كانت القاهرة تغلي بالثورة ، وكان الرصاص يتساقط كالمطر من بنادق الإنجليز ، وكان القناصون من الطلبة والعمال يصطادون الإنجليز في الشوارع عند خروجهم من المكاتب ، وكانت الاجتماعات والخطب سبيل التوعية للشعب كلما صودرت الصحف واحدة بعد أخرى .

وأراد الفتى يوماً أن يعبر عن كراهيته للإنجليز ، فاتفق مع عدد من رفاقه في الفصل على ألا يقفوا للمدرس الإنجليزي حين يدخل . وكان ناظر المدرسة هو مستر « فرنس » . فلما بدأ التحقيق سأل الفتى : لماذا لم يقف ؟ فأجاب : « كنت أبحث عن ريشتي التي وقعت تحت التختة » فسأل التلميذ الذي يجلس خلفه فقال : « كنت أعطيه إياها » ، فاستشاط الناظر غضباً ، وقضى بسجن الاثنين ثلاثة أيام ، والسجن كان في زنزانة مع الخبز الحاف . فلما كان العصر لم يعد الفتى إلى بيته في الموعد ، فبحث عنه والده في كل مكان إلا في المدرسة . ولما عاد

في المساء ، وعرف منه الخبر ، ذكره بمبدئه الذي كان يعيده عليه دائماً وهو أنه يضرب ابنه ظالماً أو مظلوماً ، ولكنه اكتفى بتعنيفه هذه المرة حتى الصباح . وذهب إلى الناظر يستفسر عن جلية الأمر ، فلما عرف منه ما حدث ألح عليه ألا يترفق بولده ، وأن يضربه في فناء المدرسة أمام سائر التلاميذ شرط ألا يحرمه الدروس . فرق قلب الناظر ، وأخذ يتلمس المعاذير للفتى ، ثم صفح عنه وعن زميله .

فيما عدا هذه الحادثة لا يذكر الفتى أنه كان محرضاً على شيء ، كان يسير مع إخوانه في المظاهرات فتدفعه في سيرها إلى حيث تنتهي ، أو إلى حيث تفرقها الشرطة ، فيبحث عن نفسه فإذا هو في مكان لا يعرفه . فيسأل الناس عن الطريق حتى يصل إلى حي الأزهر حيث يسكن .

لقد أصبحت المظاهرات لكثرتها شيئاً عادياً في حياته ، ولم يكن يفهم لها هدفاً سوى أنها بديل عن الدروس : تبدأ بالتصفيق ، فيكون دعوة إلى التجمع في فناء الكرة حيث يعتلي القائد كتفي أحد إخوانه ويهتف : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » فيردد الجميع هتافه ، وتدب الحمى في نفوسهم فيتدفقون نحو الباب الخارجي ، ويسدون المسالك في الحلمية حتى يتركوها إلى حي لاظوغلي . ولم يكن الفتى يعرف سبباً لاختيار هذا الحي بالذات في كل مرة ، حتى أخبره أحد زملائه أن الوزارات تقع فيه . وكان يقع فيه أيضاً بائع فول متخصص في بيع الشطائر : يملأ الرغيف فولاً وفلافل وفلفلاً أخضر وطماطم ، ويبيع ذلك كله بخمسة ملاليم ، فيزود الفتى نفسه بواحد من هذه الأرغفة المنبعجة ليقوى على السير وترديد الهتافات . وكانت المظاهرات

تلتقي في الميادين فيمتزج بعضها ببعض ، وتكبر حصيلتها ، ويستفحل أمرها ، فلا يرى رجال الشرطة بداً من استخدام خراطيم المياه في تفريقها . ويعود الفتى إلى أبيه مبتل الملابس فيعنفه أشد التعنيف .

وكانت النفوس البشرية تظهر على حقيقتها عند ظهور الشرطة . فمن الناس من يثبت في المعركة ، فيتناول الأحجار ويقذف بها في وجوه الإنجليز ، ومنهم من يقذفها في كل ناحية فيصيب بها الجنود المصريين وزملاءه من المواطنين ، ومنهم من يجري إلى أقرب برميل للنفايات فيختفي فيه ، ويطل برأسه بين وقت وآخر ، ليحض الناس على الثبات في المعركة ! ومنهم ـ مثل الفتى ـ من يجري إلى الأزهر فيفتح كراسته ويعمل القلم فيها على التو .

كانت الدراسة تعتمد على القوة الحافظة في التلاميذ ، وعلى القدرة التلقينية في المدرسين . كان مدرس الجغرافيا يمتحن تلاميذه في المحطات التي يقف عليها القطار في سفره من القاهرة إلى الإسكندرية ، فيجيب التلميذ : قليوب ــ بنها ــ طنطا .. فيضربه المدرس بالمسطرة على يده قائلاً : « نسيت شبرا » فيقول التلميذ : « القطار إكسبرس يا أفندي » !

وكان الفتى يحفظ كتاب « عمر الإسكندري » في التاريخ عن ظهر قلب ، وتظل المحفوظات طافية فوق سطح ذهنه حتى يجيء الامتحان فيفرغها على ورق الإجابة مادة أولية لم تتفاعل في نفسه ، ولم تتحول إلى ثقافة . وقد همّ يوماً بحفظ قاموس اكسفورد ليتعلم اللغة الإنجليزية دفعة واحدة .

وكان مدرس اللغة العربية يعطي الفصل نماذج من الإنشاء يطلب

من التلاميذ حفظها ، ويذكر منها الفتى نموذجاً عن المطابع هذا نصه :

« هي المطابع . فحدّث عنها ولا حرج ، فإنما الشيء بآثاره ، والرجل بأعماله ، والسيف بحده ، أنظر بما تقدمت الأمم وارتقت ، وأخذت زخرفها وازينت . وبما استنارت عقول أفرادها ، واتسعت مداركها ، وهديت الصراط المستقيم ، ونالت الخير العميم ... » إلى آخر هذه الألفاظ المصفوفة .

ولم يكن هذا الاتجاه غريباً على الفتى ، فهو من بيئة أزهرية . كان يرى أخاه في الأزهر يحفظ الحساب حفظاً ، فإذا جاء الامتحان لم تخرج الأسئلة عن عدد مختار من المسائل التي درسها الطلاب في أثناء السنة بنصها وأرقامها . وكان أخوه يكتب الحلول على ورقة الإجابة من حافظته لا من تفكيره .

وكان الشيخ في الأزهر إذا تكلم عن الفاعل والمفعول استشهد بالجملة التقليدية « ضرب زيد عمراً » ، وكان الطلاب يستشهدون أيضاً بهذه الجملة ، فلا يجرؤون على جعل الضارب محمداً والمضروب بكراً . وقد سمع الفتى أن أحد المجددين من الشيوخ قال لأحد القدامى « ارحم عمراً من ضرب زيد إياه » فرد عليه : « والله لا أرحمه حتى يرد الواو التي سرقها من داود » !

وكان النقاش بين الشيوخ إذا احتد ، وأراد أحدهم أن يتهم صاحبه بعدم الفهم قال له : هل أتحدث إلى « ما » ؟ مشيراً إلى أن « من » للعاقل و « ما » لغيره !

ومضى الفتى يدرس في الخديوية حتى جاء إليها يوماً مدرس من

خريجي دار العلوم عاد من بعثته في إنجلترا ، فتولى تدريس اللغة العربية للفتى في السنة الرابعة ، وقلب تدريسها رأساً على عقب . لقد طلب إلى تلاميذه أن يكتبوا في الموضوع الذي يختاره كل منهم ، فكتب بعضهم في الحب ، وكتب واحد عن « وردة على غصنها تتكلم » وكان الفتى متصوفاً فأنشأ يقول :

إلهـــي أنــت رب العالميـــنا ... فحــاسبنــا الهـــوينا أجمعينـــا

بعدلـــك لا تحــاسبـــنا ولكن ... بفضـــلك سـع جميع المسلمينا

ولفتت هذه الأبيات نظر الأستاذ هاشم ـ وهذا اسمه ـ فطلب الفتى وسأله عن نفسه ، فأنهى إليه أنه من مريدي الشيخ منصور « أبو هيكل » أحد مشايخ الطرق ، وأنه يكثر من الذكر تقرباً إلى الله ، عسى أن يصل يوماً إلى أن يكون شيخ طريقة . فأعجب الأستاذ هاشم بشخصية الفتى ، وأشعره بصداقته ، وشجعه على قرض الشعر .

وفي الأسبوع التالي كان الفتى قد وضع قصيدة في الغزل قال فيها :

حســناء تهجـــر حبهـــا ... فتــزيـــده حبـــاً لهــــا

وتميـــل عنـــه كلمــــا ... طلـــب الرضـــا ووداده‍ـــا

فدعـــا الهـــوى كـــي يشـفعا ... إن كـــان أذنـــب عنـدها

لكنهـــا أبــت الوصـــال وآ ... ثــــرت هجـــرانها

تعســـاً لـــه خاب الرجـــا ... ســـلب الفـؤاد فليـتهـــا

وأدتــــه . ذاك ولا البقـــاء بحـ ... الـــة يرثـــى لهـــــا

يـــا أخــت يوشـــع خـــبري ... لو قيســـت الدنيـــا بهـــا

أيكـــون ذاك تحـــدثـــاً ... بالحســـن أم ذمـــاً لها ؟

فاستشعر الأستاذ أن الفتى يحب ، وأنه خاب في حبه ، فطلبه في غرفة المدرسين ، وهناك روى لأستاذه قصته :

« جاءت ثريا مع أبيها وأمها من الشرقية ، وكان والدها أفندياً لم يكمل تعليمه ، فقدم يطلب عملاً في القاهرة ، ونزل مع أسرته ضيفاً علينا ، وكان من أقربائنا .

« كانت ثريا فارعة العود في سن ١٤ ، لها شفتان فيهما نداء يستهوى كلما ابتسمت ، ويهمس بالإغراء كلما سكتت . كانت تتحرك أمامي فتحرك عاطفتي من الأعماق . تواجهني فأغضى حياء من نظرتها ، وتستدير فتستقر نظراتي على كل جزء من جسمها لتمضغه عيناي . كانت فتاة وأنا فتى ، لولا أنني كنت مرتبطاً بعهدي مع الشيخ منصور .. هذا العهد الذي كان يفرض عليّ أن أتوجه بحبي إلى الله ، وأن أحصر طاقتي في التهجد والذكر ، وأن أنفق فراغي في قراءة القرآن ودلائل الخيرات .

« وخفق قلبي يوم جاءتني والدتها ترجوني أن أساعد ثريا قليلاً في الحساب لكي لا تنساه في أثناء تغيبها عن المدرسة . لقد غمرتني السعادة لهذا الرجاء ، وساورني الخوف من معقباته . أخذت أتصورها جالسة إلى جانبي تميل نحوي ، وتنصت لحديثي . وربما مست يدها يدي ، أو قربت أنفاسها من وجهي . ولكنني تذكرت عهدي مع الشيخ منصور ، فاستغفرت ربي من وسوسة الشيطان ، واستعذت بالله من الوقوع فيما يغضبه .

« وتوالت جلساتها معي ، فكنت أراها ترد براحتها خصلة شعرها ،

وتشد طرف جلبابها ليستر ركبتها ، فإذا طالت المدة استرخت في جلستها ، وتمطت وتثاءبت ، فتتزاحم الأخيلة في فؤادي ، فأنهي الجلسة ، وأتطفل على النوم لأن النوم لم يطلبني .

« واشتد الصراع في نفسي يوماً ، فأغلظت لها في القول ، فتركتني غاضبة وخاصمتني ، فسعيت لمصالحتها ، ودسست في جيبها ورقة عليها هذان البيتان :

أنت الثريـــا عــز من سمــاك وأنا الثرى أرجو هطول سماك
جودي علي بقطرة أبقى بهـــا حياً وإلا مت قبل رضــاك

« وأعتقد أن ثريا لم تفهم هذا الشعر لأنها لم تستجب له » .

ولم يضق الأستاذ بصراحة الفتى ، بل حمل هذه الصراحة على أنه أصبح يثق به ، فيعترف له كما يعترف بين يدي شيخه « منصور أبو هيكل » .

قال الأستاذ هاشم : « هل تعتقد أن ثريا بادلتك حباً بحب ؟ »
قال الفتى : « يبدو لي أنها لم تر حبي لأنه بقي في أعماقي » .

قال الأستاذ : « إن كبت الحب هو الذي جعلك تعبر عنه بالإغلاظ لها في القول » . قال الفتى : « هو ذلك » . واغرورقت عيناه بالدموع . فربت الأستاذ على كتفه وقال : « أنا أهنئك يا بني بنفسك . لا تضعف ، واسعد بصمودك للإغراء ، وبانتصارك على نداء الجنس . وعليك بالعبادة والرياضة فهما سياجك من السقوط » .

ومنذ هذا اليوم والفتى مكب على الصلوات والتسبيح . يصحو مع الفجر فيغتسل ويتوضأ بالماء البارد في الشتاء القارس . ويصلي الظهر

في المدرسة وسط التلاميذ على أرض الحديقة . ويقضي الوقت بين المغرب والعشاء فيما يسمونه صلاة الغفلة . وفيما بين الصلوات يذكر الله على مسبحة اشتراها ، وأصبح حريصاً عليها حرصه على أدواته المدرسية وكلما جاء يوم الخميس قضى عصره في زيارة الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، ومساءه في الذكر بحضرة الشيخ الدنداروي ، وكانت مجالاً لجمهور كبير من المجاذيب .

كان عهده مع الشيخ منصور أن يكرر على مسبحته « لا إله إلا الله » ، ويستمر على ذلك حتى يرى في منامه حلماً يقصه على أحد المأذونين بتفسير الأحلام من قبل الشيخ ، فإذا وجد في الحلم ما يبشر بروحانية متقدمة نقل الفتى إلى « الله » ومن أحلامه ينقله إلى « هو » ثم إلى « حيّ » ، وهكذا حتى يصل إلى « قهّار » ، فهذه هي المرتبة التي يصحّ له فيها أن « يسلك العهود » أي يعطيها . وكان الفتى يرنو لهذه المرتبة الكبيرة ، ولذلك كان فمه لا يقف عن ترديد اسم الجلالة .

وكان كلما سافر إلى الشرقية في إجازة الصيف حرص على زيارة الشيخ منصور ، فكان يركب دابة إلى « أبو كبير » يتركها في وكالة للحمير ، ثم يستقل القطار إلى السنبلاوين حيث يركب قطار الدلتا إلى أبي حريز ، وهي بلدة الشيخ ، ثم يعود بنفس الطريقة إلى قريته في المساء .

وفي إحدى الليالي الظلماء عاد من زيارته ، فركب حماره ، وسار وسط المزارع دون أن يرى طريقه ، فإذا الحمار يدخل في ترعة مستعرضة فيغوص فيها ، والفتى من فوقه يغالب الموج ويصرخ في طلب النجدة حتى أسعفه فلاح قريب منه .

واعتلى الفتى ظهر حماره والماء ينضح منهما حتى بلغ بحر فاقوس وكان عليه أن يعبره ، في مركب ذي سلسلة تشد فتدفع المركب نحو البر الآخر . ولكن المركب أبى مغادرة الشاطئ ، فظن الفتى أن المركب مغروز في الطمى ، وذكر شيخه ، واستغاث ببركاته ، وكرر أدعية خاصة أوصاه بها حين تواجهه مثل هذه الصعوبة . ولكن المركب لم يتحرك لأدعيته ، ولا لان لكرامات الشيخ منصور . ونظر الفتى في جانب المركب فوجد قفلاً كبيراً يربطه بعمود على الشاطئ ، ورأى أن الأدعية لا تفك الحديد فلا بد من فتح القفل بمعرفة « المراكبي » ووصل الفتى إلى منزله بعد منتصف الليل ، وهو سعيد بالمتاعب التي لاقاها لأنها تضاعف ثوابه ، وتقربه إلى قلب شيخه ، وتطلق النور الذي يشع في خياله من أستار الكعبة ، وتستدرج الطائر الأخضر الذي يراه في أحلامه يرفرف في السماء .

وألف الفتى مع أبناء عمومته في كفر عيسى فريقاً للعب الكرة ، فكان أبوه يغضب كلما رآه يكشف ما فوق ركبتيه ، وينهاه عن ذلك لأنه ينافي الكرامة . كما كان ينهاه عن السباحة في بحر فاقوس ، ويرسم على فخذه بالحبر علامة يحذره من أن تزول ، فيكون زوالها دليلاً على أنه نزل إلى الماء .

وإحكاماً للرقابه كان يحدد له أيام الاستحمام في البيت.ولا يزال صاحبنا يذكر يوماً تجرد فيه من ثيابه وجلس كالمعتاد في طشت مملوء ماء بارداً ليمزجه بماء يغلي على موقد أمامه فإذا خروف يدفع الباب برأسه وينقض على ماء الطشت فيشربه . وحار صاحبنا في موقفه فدخل في

ملابسه ونادى أفراد الأسرة ليملأوا الطشت من جديد ويحكموا باب الحمام .

إن هذا الباب لم يكن وحده هو الواهي ، وإنما كانت أبواب الحجرات كلها واهية . وكثيراً ما كان صاحبنا يصحو من نومه على صوت دجاج يدخل عليه فيملأ السرير ، وديكة تصيح فوق رأسه فتذكره بأن الفجر قد لاح .

ولكن هذا التضييق في القرية لم يستمر في القاهرة . فقد انشغل الوالد بدروسه في الأزهر ، وانتهز الفتى هذه الفرصة فألف مع أقرانه في الكحكيين نادي السباع المفترسة . واتخذوا من أرض جلال بالدراسة ساحة اللعب .

ومن الناحية الأخرى ألف عدد من أولاد البلد نادياً آخر باسم نادي العباسية ، وقامت بين الناديين منافسة شديدة كانت تؤدي دائماً بعد كل مباراة إلى التضارب وتمزيق الثياب والتقاذف بالأحجار . وكان الفتى معروفاً بسرعة العدو ، فوقع عليه الاختيار ليكون هجوماً أيمن ، ولكنه كان يستحوذ على الكرة فيجري بها دون أن يشرك معه أحداً حتى يقذفها خارج الهدف . ويتكرر هذا في كل مرة حتى يجد إخوانه من الخير أن يجعلوه أميناً عاماً للنادي يتوفر على الأعمال الإدارية ، وحراسة الملابس ، فيرى الفتى في هذا ما يجنبه شر أولاد البلد إذا لعب ، ويرضى به . ولم يمارس الفتى رياضة الكرة منذ ذلك الحين ، وإن كان قد بقي يحب التفرج عليها . ويتحمس لفريق الخديوية كلما لعب أمام فريق التوفيقية أو السعيدية .

ثم تحول إلى رفع الأثقال ، فانتسب لناد في السيدة زينب ، وكان

المشتركون فيه من التلاميذ والعمال ، والاشتراك قروشاً زهيدة ، فمكث يبني جسمه حتى تمكن من رفع خمسين كيلو ، ومن زيادة وزنه إلى خمسين كيلو أيضاً .

وبين الذكر والرياضة انصرف الفتى عن الحب وعن الدراسة ، فتأجل نجاحه إلى سبتمبر ، حين تقدم للملحق في اللغة الإنجليزية كان رسوبه في هذه اللغة أول رسوب صادفه في حياته الدراسية ، وآخر رسوب أيضاً .

وَبَدَأَ الشاب يُفكِّر

١٩٢٥

بدأ الفتى يكبر فيصبح شاباً بادي الرجولة . لم يكن يود أن يختار القسم العلمي في دراسته الثانوية لولا أن أباه أصر على ذلك بعد أن علم أن السوق امتلأت بالحقوقيين وخريجي الآداب . فلما نجح في البكالوريا وجد أن مجموع درجاته لا يستطيع أن يدنيه من الطب أو الهندسة ، فاتجه إلى مدرسة المعلمين . وشجعه أبوه على هذا الاتجاه بترديد قول شوقي :

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

ويوم الكشف الطبي رافقه ريفي من أقربائه إلى المدرسة ، وكانت في المبنى الحالي لمعهد التربية بالقصر العيني ، فلما أعلنت النتيجة ظهر أن الشاب راسب في النظر ، فغضب الريفي لذلك غضباً شديداً ــ وبخاصة أن الطبيب أعور ــ فدخل عليه دون استئذان ، وساءله مساءلة شديدة : « لماذا أسقطت قريبي في النظر وهو لن يحارب ؟ كل ذي عاهة جبّار ! » فجرى الطبيب وراءه ، وتماسكا لولا أن ناظر المدرسة تدخل في الأمر وباعد بينهما .

ولم يكن متاحاً بعد مدرسة المعلمين إلا مدرسة التجارة العليا لقلة الإقبال عليها ، فقد كانت الشركات تفضل الأجانب على المصريين ،

وكانت الحكومة تعين خريج الحقوق في الدرجة السادسة بخمسة عشر جنيهاً ، وتعين خريج التجارة في حرف « ج » بعشرة جنيهات . وقد سأل أحد الأصدقاء مرة والد صاحبنا في ذلك فقال إنه لا يعرف طبيعة هذه المدرسة ، فهي من ناحية لا تقبل إلا حملة البكالوريا وهذا من شأن المدارس العليا ، ولكن خريجيها من ناحية أخرى يتقاضون عشرة جنيهات وهذا من شأن المدارس المتوسطة !

وقد بقيت المدرسة على هذا الحال حتى جاء محمد محمود باشا في سنة ١٩٢٦ فقرر تعيين خريجيها في الدرجة السادسة وكان طلابها يلحون في ذلك حتى إن زعيمهم عبد الحليم محمود أعلن الإضراب يوماً ، فتجمع الطلاب وخرج حمدي بك ناظر المدرسة يقول إن الأمر انتهى فقد أمر رئيس الوزراء بتعيينهم في الدرجة السادسة فوقف عبد الحليم خطيباً وقال : « ومن يدرينا أن الأمر صدر ؟ لا بد من الإضراب احتجاجاً أو ابتهاجاً » .

انصرف الشاب من مدرسة المعلمين إلى مدرسة التجارة العليا ، فلما ذهب للكشف الطبي وجد الطبيب الذي كان في مدرسة المعلمين قد انتهى من مهمته هناك ، وجاء إلى مدرسة التجارة فتوقع منه شراً واتجه إلى الله فصلى ركعتين على أرض الحديقة . وفيما هو يركع ويسجد شاهده معاون المدرسة ـ وكان متديناً ـ فأثنى على استقامته واصطحبه إلى مكتبه ، وهناك قص عليه الشاب قصة قريبه مع الطبيب ، فطمأنه المعاون ، ووعده بأن يتولى بنفسه تغطية عينه في أثناء الكشف ، وبأن « يؤشر » على ظهره بما يرشده لفتحات العلامات . ولم يشكّ الطبيب في أمانة المعاون ، وإنما شك في أن النظارة مقعرة أكثر من اللازم . فلما

فحصها وجدها قانونية ، ففهم أن الطالب استبدل بنظارته الأولى نظارة جديدة . وهكذا دخل الشاب مدرسة التجارة العليا بطريق الغش ، وشكر للمعاون جميله ، وإن كان قد عجب لموقفه المتناقض ، فهو متدين يحب في الشاب تمسكه بالدين ، ولكنه يرى في مساعدته على الغش ما يخالف هذا الدين !

على أن هذا العجب يسير إذا قيس بالعجب الأكبر . فكيف تفرض قوانين التعليم على شاب يحب الطب أو الهندسة أن يتقدم للاشتغال بالتعليم ، فإذا لم ينجح كان عليه أن يصبح من التجاريين ؟ وهل هناك ملكات إنسانية صالحة لكل نوع من أنواع الدراسة والممارسة ؟ أليس في هذا إهدار لما يستفيده المجتمع من الاستعدادات الطبيعية لبنيه ، وإرهاق للناس بتكليفهم ما لا يطيقون ؟ .. وبدأ الشاب يفكر !

وانتظم في الدراسة بمدرسة التجارة العليا . وبعد بدايتها بقليل جاءه نبأ فاجع هو أن امرأة عمه توفيت في الزقازيق ، وكان عمه قد تزوج عليها فتاة صغيرة ، فكثت الأولى تعاني من ذلك حتى ألحّ عليها الداء ، ونقلها الزوج من القرية إلى حيث تسكن الثانية ، فأشقاها هذا مرة أخرى وماتت بالسكتة القلبية .

لو فقد هذا الشاب بصره لقنع بالسمع عن البصر ، ولكنه فقد صوت هذه السيدة وابتسامتها إلى الأبد ، فودّ بعد فقدانها لو استغنى عن سمعه وبصره جميعاً . ولقد كان قلبه يخفق بحبها على الدوام ، فخيل إليه بعدها أن هذا القلب لن يخفق بحب أحد . إن ذاكرته تمتلئ بصورها وهي تحنو عليه ، فتنقله من حجرها إلى فراشه ، وتحيطه

بعطف الأم ورعاية المعلم . ثم تفيض الذاكرة بالصور فتفيض العين بالدموع .

وعلم أنهم نقلوها إلى القرية ، فلحق بها هناك ، ولكنه بدل أن يجد مأتماً وجد ثورة عارمة . إن والده وأعمامه مجتمعون لتبادل الرأي فيما حدث من تعرض أهل المرحومة لنعشها في الطريق الزراعي أمام قريتهم ، وإصرارهم على أن تدفن في مدافنهم ، ما دامت لم ترزق من زوجها بخلف يسوغ دفنها في بلده مع أهله . ووالد الشاب ثائر معهم لأن أخاه وافق على ذلك حقناً للدماء .

ويل للموتى من الأحياء ! .. إن الأحياء مشغولون عن مصابهم في فقيدتهم بوضع كرامتهم فوق أيديهم والسير بها وسط الناس ، وقد خيل إليهم أن كرامتهم وقعت في الدنس ، فانكفئوا ليلتقطوها ، فتصادمت رؤوسهم وفقدوا هداهم .. وبدأ الشاب في حزنه يفكر !

ثم أفرغ حزنه الكبير في كتابة المذكرات التي كان يمليها عليه أستاذه في الاقتصاد ، فإذا امتحنه توقع منه أن يعيد في إجابته ما أملاه عليه بالحرف . وفي أحد الأيام ساءله عن معنى « ارتفاع الثمن سبب في الريع لا نتيجة له » فصحح الطالب الجملة قائلاً : « نعم ارتفاع الثمن سبب في الريع لا نتيجةٌ له » وبدأ يجيب ، لولا أن الأستاذ استوقفه وقال : « أنت لا تفهم شيئاً في النحو » ألا تدري أن « لا » نافية للجنس فما بعدها يكون مبنياً في محل نصب ؟ فاستأذن الشاب في أن يقول إن « لا » هنا حرف عطف . فسخر الأستاذ من جهل الشاب ، وشاركه الطلاب في سخريته . وفي اليوم التالي جاء الشاب ومعه كتاب « الأشموني في النحو » ، فالتف حوله جمهور من زملائه واقتنعوا برأيه . ولما جاءت

المحاضرة التالية رفع أحد الخبثاء منهم أصبعه وقال : «يظهر يا دكتور أننا بلداء في النحو ، فقد ثبت أن «لا» حرف عطف فعلاً» وطلب من الشاب أن يقدم المرجع الذي معه ، فأسرها له الأستاذ في نفسه .

وجاء الامتحان الشفوي في آخر العام فسأله الأستاذ : «آدم سميث ولد سنة كم ؟» فلما عجز عن الإجابة سأله : «طيب مات سنة كم؟» وأعطاه صفراً لولا أن الشاب انحنى للعاصفة واسترضى الأستاذ ، فرفع الدرجة من صفر إلى ثلاثين .

وقام الشاب من مكانه بعد أن فقد ثقته بالأستاذ ، كما فقد ثقته بالزمان . لقد سرق الزمان منه امرأة عمه ، وها هو ذا أستاذه يسرق منه نجاحه . لماذا ؟ ألأنه سمح لنفسه على استحياء بأن يناقش الأستاذ مناقشة علمية جادة ؟ وهل التعليم إلا تفاعل بين المعلم والتلميذ ؟ وكيف يسمح الأستاذ لنفسه بأن يظلم وهو في كرسي القضاء ؟ أسئلة نقرت رأس الشاب وهو على أبواب الحياة ، وأوشكت أن تفقده ثقته بمستقبله .

لقد ذكر أن هذا الاستاذ تغيب يوماً لمرضه ، فحل محله أستاذ مغرم بالإملاء هو الآخر ولاحظ الطلاب أنه يملي عليهم كلاماً سبق أن كتبوه ، فلما لفتوا نظره لذلك تبينوا أن الأستاذين معذوران فقد نقلا عن أصل إنجليزي واحد ! وبينما هما مشغولان في الإملاء كان حسن كامل الشيشيني أستاذ الجغرافيا الاقتصادية يفرغ رصاصه في صدور الإنجليز مع شركائه ماهر والنقراشي والحاج أحمد جاد الله ، ثم يجيء إلى الفصل في الصباح كأن شيئاً لم يحدث ، فيتكلم في السياسة حتى إذا دخل عليه حمدي بك ناظر المدرسة ـ وكثيراً ما كان يفعل ـ

غيّر الشيشيني مجرى الحديث فقال : « وهكذا يا أبنائي ينقسم العالم إلى قارات ، وتنقسم القارات إلى دول » .

ومع ذلك كان الشاب يحب ناظره حمدي بك ، لأنه كان أديباً كان يضع في وسط حديقة المدرسة لوحة عليها هذه العبارة : « قطف الزهور استئثار بالذات ممقوت » ، وكان يضع تحت كل زهرة ورقة عليها : « دعني أعيش » . ولما ماتت أم مصطفى النحاس أرسل إليه برقية عزاء قال فيها : « لم تمت من أنجبتك » ، وعلق البرقية والرد في فناء المدرسة .

لم تكن المدرسة تدرس المحاسبة ، وإنما كانت تكتفي بإمساك الدفاتر . ولم تكن تدرس إدارة الأعمال ، وإنما كانت تكتفي بأعمال السكرتارية . وكانت تدرس الحساب التجاري باسم الإحصاء .

على هذه الصورة سارت الحياة في مدرسة التجارة العليا ، فكانت امتداداً للحياة في المدرسة الخديوية . لم تكن حياة جامعية ، لأن جامعة القاهرة لم تكن قد جعلت المدرسة كلية من كلياتها . ولم تكن حياة خلاقة ، لأنها خنقت روح البحث العلمي والمبادرة الفكرية . ولكنها علّمت الشاب أن البنوك ضرورية للادخار ، وأن الفائدة جزاء رأس المال ، كما أن الأجر جزاء العمل ، فوجد في هذا النظر ما ينقض مبدأ يؤمن به ، وهو مبدأ القرض الحسن ، ولذلك بدأ يفكر ...

وقد وجد أن المظاهرات تنصرف عن الاصطدام بالشرطة إلى أغراض أخرى ، كلبس القبعة بدل الطربوش وتكوين جامعة عربية ، فسار يوماً في واحدة منها إلى بيت الأمة حيث خطب « سعد » ،

فخالف المتظاهرين في لبس القبعة ، ودعا إلى التمسك بالطربوش ، لأنه أصبح شعاراً قومياً .. واستطرد إلى الكلام عن الجامعة العربية فخالف فكرتها ، وقال : إن كل دولة في العالم العربي مشدودة إلى مستعمر ، ولا يمكن أن تتم الوحدة بينها إلا إذا تخلصت كل منها من أغلالها ، وقد هتف الشاب مع فريق ممن معه : « الاتحاد قوة » فرد سعد على الفور : « صفر + صفر = صفراً » .

لقد كان سعد في نظر الشاب نبي الوطنية حتى هذا اليوم ، فأصبح زعيماً تحتمل كلماته أن تناقش .

وتولى محمد محمود الوزارة فدعا إلى ردم البرك والمستنقعات ، وقال كلمته المشهورة : « أنا وحدي أقرر متى أسافر إلى لندن » ، يريد بذلك أن يتحدى الملك ، فقام توفيق دياب في حفل كبير للوفد يندد بهذه الأقوال ، وكان الشاب حاضراً فأثر فيه الخطيب ببلاغته تأثيراً كبيراً فانتظم على الفور في مظاهرة أحاطت ببيت محمد محمود بشارع الفلكي ، وقذفته بالطوب ، فأحاط بها رجال الشرطة وأصلوها سعيراً من الضرب بالعصي ، فعاد الشاب إلى بيته مثخناً بالجراح ، ممزق الثياب . ولما راجع نفسه بعد أيام وجد أن ردم البرك والمستنقعات عمل مستحب لا يستحق الرجم ، وأن تمسك رئيس الوزراء بحقه الدستوري اتجاه يستحق الإعجاب لا الثورة ، ففقد ثقته بالخطب الحماسية وبدأ يفكر ..

بقي الشاب على ولائه للأزهر ، وكان الإمام المراغي قد عين شيخاً له في أواخر سنة ١٩٢٧ ، وأصبح هذا التعيين حدثاً كبيراً ، فلم تكن

لحية الإمام طويلة بمقدار قبضة ، وإنما كانت مقصوصة لا تكاد تبرز من الذقن ، وكان لا يلبس « الفرجية » على عادة كبار العلماء ، وإنما يلبس « ككولة » . وكان نعله حذاء مفتوحاً برباط ، ولم يكن مركوباً أصيلاً . وقد سمع الشاب أن أحد الشيوخ تحدث يوماً في مثل هذا إلى صديق له فقال : « والله لقد سمعت ممن أثق بخبره والعهدة عليه .. » ثم انقطع عن الحديث وتلفت يميناً وشمالاً ليستوثق من أن أحداً في الخارج لا يسمعه ، وواصل حديثه بصوت خفيض : « سمعت أن الشيخ المراغي يمشط شعره ! » فصرخ الصديق : « يا شيخ ! قل كلاماً غير هذا » فأقسم الشيخ أنه لم يحرف فيما سمع ، وإن كان لا يقطع بصحته !

وقد أدخل الشيخ المراغي علم الطبيعة في المنهج فثار الأزهريون على هذه التسمية لأن فيها إلحاداً ، فاضطر إلى أن يطلق على الطبيعة « علم الخصائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى الأشياء » .

وزاد الطين بلة كما يقولون أن الإمام المراغي استهل عمله بإدخال الكهرباء في الأزهر . وحرّم النوم والطبخ فيه ، وفصل الأروقة من المسجد ، فسد أبوابها من الداخل ، وفتحها من الشارع ، ثم لم يكفه هذا فأدخل « النظام » في الأزهر تمييزاً له عن « القسم العام » فأنشأ فصولاً وضع فيها مقاعد خشبية للتلاميذ وطلب من الشيوخ أن يجلسوا على مرتفعات أمام المناضد ، فكان الكثيرون منهم يفضلون أن يخلعوا نعالهم ويتربعوا فوقها .

كان الشاب يرى ثورة المراغي على الجمود ، ويرى ثورة الجمود على الثورة ، فينحاز للإمام في المناقشات التي كانت تحتدم في كل

ركن من أركان الأزهر . وكانت تمر أمام عينيه أحداث تحفر تأثيرها العميق في فؤاده ، فيجد في المراغي ـ مع كل ما عمله ـ طبيباً يعالج ، والأمر في رأي الشاب قد يحتاج إلى جراح يفتح البطون . لقد سمع أن ثلاثة من الطلاب الأزهريين كانوا يترددون يوماً على أحد محلات الفجور ، فيعقد أحدهم زواجه بإحداهن ، ويشهد زميليه على العقد ، حتى إذا قضى وطره انتقل الثلاثة إلى أخرى ، فيعقد الثاني زواجه بها ، ويصبح الأول والثالث شاهدين .. ثم يتزوج الثالث !

وسمع الشاب أن أحد الشيوخ يزكي عن ماله ، فيعطي أحد الفقراء الزكاة ، ثم يقول له الفقير : « وهبتك هذا المال » ، فيتقبله الشيخ ، ويكون بذلك قد أبرأ ذمته وأدى ما عليه من زكاة .

وعرف الشاب مما شاهده كيف يكون الانحراف المهني في خدمة الغرض الشخصي ، وكيف يصبح تطبيق النصوص احتيالاً لا تفسيراً . خرج من مشاهدته بأن الدين تشريع سماوي لتحقيق الخير . وما دام كذلك فهو أهداف حية ، ولا يمكن أن يكون نصوصاً صماء ، هو روح لا إجراءات .. وبالرغم من أن رجال الدين هم رسل الفضيلة . وملاذ الإنسانية فإن فيهم منحرفين .. ولذلك بدأ يفكر ..

كان يقرأ الجرائد والمجلات ولا يثق في الحزبية منها . لقد كانت خالية من الأخبار ومملوءة بالمبالغات . كانت إحداها تحتفظ بصورة لزعيم الطلبة يظهر فيها رأسه ملفوفاً بالشاش بسبب جرح أصابه في إحدى المظاهرات ، وكانت الصحيفة تعيد نشر هذه الصورة كلما سارت مظاهرة جديدة مدعية أن الزعيم كان على رأسها واصطدم بالشرطة فجرح .

ويذكر الشاب أن أحد رؤساء الأحزاب أراد يوماً أن يسافر إلى طنطا في زيارة سياسية ، فتظاهر ألوف من العمال ليودعوه في محطة القاهرة ، فتعرض لهم رجال الشرطة ، فقذفهم المتظاهرون بالطوب ، فأطلق رجال الشرطة عليهم الرصاص ، ومات عدد منهم ، فعدل الرئيس عن السفر ، ولكن جريدة الحزب لم تكن تعرف أنه تخلف ، فظهرت بعد الظهر تصف الحماس الذي قوبل به في جميع المحطات ، والحفاوة التي استقبل بها في طنطا .

ويذكر الشاب أن من قبض عليهم من المتظاهرين احيلوا إلى المحاكمة فوقف مكرم عبيد المحامي مدافعاً عنهم في محكمة الجنايات واستهل مرافعته قائلاً :

يا حضرات القضاة :

في هذه القضية أرواح أزهقت وبضعة ألواح كسرت . أما الأرواح فقد ذهبت إلى بارئها وأما الألواح فمن أجلها نقدم لهذه المحاكمة .

وكان أحد كبار الكتاب يعمل في الصباح في جريدة الأحرار الدستوريين وبعد الظهر في جريدة الوفديين ، فكان في الصباح يكتب مقالاً في السياسة يهاجم فيه الوفد . وفي المساء يكتب مقالاً في البلاغ ، يرد به هلى هذا الهجوم ، ثم يتقاضى مرتباً من الجريدة الأولى ، ومرتباً من الجريدة الثانية !

لقد تعلم الشاب مما قرأه ورآه كيف يفرق بين الدين والمنحرفين من أهل الدين ، بين الوطنية وتجار الحزبية ، بدأ يخلي المبدأ من مسؤولية

التطبيق الخاطئ ، فلم يعد يندد بمبدأ لأن كثيراً من الآثام ترتكب باسمه ، ولم تعد الكلمة المطبوعة عنده مقدسة ، وإنما يجري عليها من الأحكام ما يجري على سائر الكلام .

وكانت بديعة مصابني متألقة في الكازينو المعروف باسمها على النيل . وكان صاحبنا حين يعتزم السهر فيه لا يفكر منذ الصباح إلا في النشوة التي تنتظره في المساء ، فإذا ارتفع الستار عن الراقصات في جو الموسيقى والدفوف ، وأخذت الخصور تتمايل ، والصدور ترجرج ، والصاجات تعلو ، تألف في نفسه من هذا طرب يرسل الإشعاع إلى أعماق كيانه .

وكان على النيل من الناحية الأخرى في روض الفرج كازينو الجزايرلي ترقص فيه فاطمة قدري وتغني . وكان رسم الدخول ثلاثة قروش ، ولكن الجلوس في البلكونة يرفع الرسم إلى خمسة ، وكان صاحبنا إذا تحسس جيبه فوجد فيه ما ينفع صعد إلى أعلى ، فأومأ برأسه إلى الجرسون الذي انحنى ، وجلس ساقاً على ساق ، ثم أبدى رغبته في تناول العشاء ، فإذا بائع السميط يهرول ليقدم لصاحبنا سميطتين ساخنتين وبيضتين مسلوقتين ، وقطعة من الجبن الرومي ، وشيئاً من الدُّقة ، فينقده عن ذلك قرشين كاملين ثم ينظر إلى أدنى في استعلاء على عباد الله الذين يجلسون على الأرض لأنهم لا يملكون ما يصعد بهم إلى السماء !

كان لا يفهم الطرب إلا على هذا النحو حتى جاء يوم .. إن نادي التجارة يبيع تذاكر بخمسة قروش لحضور حفلة تحييها أم كلثوم . وتردد صاحبنا أول الأمر في الشراء . فمن هي أم كلثوم هذه ؟ وهل معها فرقة

راقصة ؟ولكن أم كلثوم جاءت فأخرجت صاحبنا من نفسه ، وقدمت له الطرب في آهات لا في رقصات ، ونظر صاحبنا حوله فوجد الزملاء سكارى وما هم بسكارى ، وكأن المطربة إمام يصلي في محراب والعازفين من خلفها يتعبدون بالضرب على العود والكمان والقانون .

لقد تخلص صاحبنا من ترهاته الأولى و بدأ يفكر !

قُم للمُعَلم وفّه التَبجيلا
١٩٢٩

الأسرة كلها في فرح : نساء يزغردن ، ورجال يتبادلون التهنئة والقبلات ، وأطفال يرقصون في ميدان القرية الكبير حول صفيحة ملئت « شربات » ، وقد وقف فلاح وسيم يسقي منها كل قادم . لقد جاء عامل البريد إلى القرية هذا الصباح بالجرائد ، فإذا نتيجة دبلوم التجارة العليا منشورة في الأهرام ، والشاب في مقدمة الناجحين .. وبدأت الأفكار تتراقص في ذهنه !

إنه أول شاب في الأسرة يتخرج في مدرسة عليا . وها هو ذا على عتبة المستقبل السعيد ، وليس بينه وبين أن يقبض خمسة عشر جنيهاً في كل شهر إلا أن يجد عملاً في الحكومة أو إحدى الشركات ، وهذا يقتضي أن يسرع بالسفر إلى القاهرة ليسبق غيره في البحث عن وظيفة . ولكن أليس من المناسب أن يبقى يوماً آخر لاستقبال المهنئين من القرى المجاورة ؟ ترى ماذا تقول عنه الآن فتيات الأسرة ؟ لقد سخرت منه إحداهن يوم أن دخل مدرسة التجارة فتساءلت : « ولماذا لا يفتح دكاناً من الآن ؟ » .

ثم فكر في مسكنه الحالي في تحت الربع . إنه لم يعد صالحاً للعهد الحاضر . لم تعد كرامته تسمح له أن يدخل هذه الحارة المظلمة التي تسلمه إلى زقاق المسك . فيسير في منعطف طويل مسدود حتى يوشك

أن يصطدم بالحائط ، فيجد البيت إلى اليسار . ثم ما هذه السلالم العالية الملتوية ؟ إن الصعود فيها إلى الدور الخامس أمر عسير على الزملاء الذين قد يزورونه للتفاهم في العمل أو السؤال عن الصحة أو للتهنئة بالعيد . وأفاق من أحلامه على صوت أحد أعمامه يهنئه ويشد على يديه ، فقبل يده ، وطلب منه الدعاء ثم أوى إلى حجرته ليستريح .

رباه ! إن الدنيا لا تسعني . كيف أنفق خمسة عشر جنيهاً كل شهر ؟ لو انتقلت إلى أحسن شقة فلن تكلفني أكثر من جنيهين ، ولو أفطرت كل يوم « بغاشة » وتغديت « كباباً » وتعشيت « فراخاً » فلن أنفق ثلاثة جنيهات . ولن تكلفني ملابسي أكثر من جنيهين ، فأين يذهب الباقي ؟

لم ينم الشاب ليلته ، ولم يطق الانتظار في الصباح ، فانطلق إلى المعهد الديني بالزقازيق ، حيث كان يعمل والده وتزود منه بشيء من النقود ثم سافر إلى القاهرة .

كان ــ قبل تخرجه ــ كلما سار في شارع قصر النيل أغمض حياء من بناء جبار على الطراز الإنجليزي يشغله البنك الأهلي ، ويقف أمامه أحد رجال الشرطة ، فكان يسرع الخطى حتى لا يتهمه الجندي بالتلكؤ أمام البنك ، واليوم يريد أن يعمل فيه . ماذا لو ذهب إلى سكرتير المحافظ وعرض عليه نفسه ؟ ودخل فظل يسأل عن مكتب السكرتير حتى وجد نفسه أمام إنجليزي أحمر الوجه أزرق العينين . قال له في إنجليزية مصرية : « سيدي ، أنا خريج مدرسة التجارة العليا وترتيبي السابع ، وأود أن أعمل في هذا البنك إذا كان فيه وظيفة خالية » ،

فنظر إليه الإنجليزي في استعلاء وسأله : « هل أنت مصري؟» فقال : « نعم » ، فعاد ببصره إلى ما كان بين يديه من أوراق وقال : « المصريون لا يسمح لهم بالعمل في البنك الأهلي » .

وانصرف الشاب يجرر رجليه من التخاذل ، فهو يفهم أن يقول له السكرتير : « لا توجد وظائف خالية » . أو أن يعقد امتحاناً يسقط المصريون فيه . أما أن يواجهه بأن البنك الأهلي المصري لا يقبل المصريين في وظائفه فهذا آخر ما توقعه .

وكانت التجربة قاسية ، فانصرف عن المؤسسات الأجنبية كلها إلى بنك مصر . كان عبد الله فكري أباظة رئيس نادي التجارة مديراً عاماً لإحدى شركات البنك ، وكان هو الذي يرشح لوظائفه ، بتكليف من « طلعت حرب » ، فتقدم الشاب إلى عبد الله أباظة فوضع اسمه في كشف المرشحين . وخرج الكشف من مكتب طلعت حرب فإذا باسم الشاب قد شطب ، ووضع مكانه اسم أحد الزملاء المتأخرين عنه في الترتيب .

وكبر على الشاب هذا النبذ فذهب يشكو إلى طلعت حرب .

دخل عليه في شيء من الانفعال قائلاً : « يا سعادة البيه ، ضعوا قواعد للقبول ولو فاسدة . قولوا إن الطويل قبل القصير ، والرفيع قبل السمين ، ولكن لا تأخذوا الناس هكذا دون ترتيب » فابتسم ــ رحمه الله ــ في أستاذية ورزانة ، وكان يشبك يديه و يمدهما على مكتبه ، وقال : « اسمع يا شاطر .. لو كنت مكاني ، وكان عندك عميل أودع البنك مائة ألف جنيه دون فوائد .. هل تعرف بهذه المناسبة معدل الفائدة في حالة الإيداع ؟ » قال : ٣ ٪ ، فقال طلعت حرب : « عظيم ! إذن

هذا المودع ينزل للبنك كل عام عن كم ؟ » فأجاب : عن « ثلاثة آلاف جنيه » فاستمر الزعيم الاقتصادي : « والمودع لا يطلب الآن لقاء ذلك إلا أن أعين ابنه في البنك ، وهو زميلك ومتخرج معك في نفس الدفعة ، لولا أنك حفظت أكثر منه ، فتفوقت عليه في الامتحان وقد يكون في الحقيقة أحسن منك » . واقتنع الشاب على مضض ، وبدأ ينصرف ، لولا أن طلعت حرب فاجأه بقوله : « ولكنك ذكي تستحق أن تعين أيضاً » . وأرسله إلى إدارة الحسابات .

لم يكن الشاب سعيداً بعمله في بنك مصر ، فقد كان هذا العمل مقصوراً على جمع الأرقام طول النهار ، ولم تكن الآلات الحاسبة قد دخلت البنك . فما إن علم بعد شهر واحد أن وزارة المعارف تطلب مدرسين في مدارس التجارة حتى تذكر قول أبيه :

قـم للمعلـم وفّـه التبجيـلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

وتقدم بطلبه ، فعين مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة بالظاهر .

شعر المدرس بصغر سنه من جديد ، فمن التلاميذ من كان يبلغ الثالثة والعشرين وهو لم يبلغ الحادية والعشرين ، حتى إن أباه اشترى باسمه نصف فدان ، فأمضى العقد عنه بوصفه ولياً طبيعياً لقاصر . لقد ودّ لو قفز بعمره فوق الأشهر القليلة التي تحجبه عن سن الرشد ، ليقف على قدم المساواة مع زملائه المدرسين . إن أحدهم أرسل نكتة عنه قال فيها : إنه يأتي المدرسة على « مشاية » ، فكانت خنجراً جرح كرامته ولذلك أسرف في التظاهر بالتدخين ، وحرص على أن يركب الدرجة الأولى في الترام ، واشترى لنفسه « منشة » طويلة ، ووضع في الجيب الخارجي للجاكتة قلماً أحمر كان يدق به على المنضدة كلما دخل

الفصل . وشعر بالرضى حين صحب المدرس الأول إلى محل « جروبي » فلما رآه يطلب « ويسكي » طلب مثله ، وتحامل على نفسه ، فذاق الخمر ليفعل فعل الرجال !

ولم يقتصر أمر مركب النقص على هذا ، بل تعداه ، فخلق في سلوك صاحبنا صرامة وشدة . سمع مرة من أحد زملائه المدرسين أنه يعالج عند طبيب قريب من المدرسة ، وأن الطبيب أعطاه حقنة في غير موضعها أحدثت عنده خراجاً ، قال لزميله : « ولماذا تستمر في العلاج عند هذا الطبيب ؟ » قال : إنني أريد استرداد ما بقي من حقن لولا أنني مكسوف ، فعرض صاحبنا عليه خدماته في الحال ، وذهب معه إلى عيادة الطبيب . وهناك بقي الزميل في غرفة الاستقبال ودخل صاحبنا إلى غرفة الكشف . قال للطبيب : إن زميله موجود في العيادة ، وهو لا يريد الاستمرار في العلاج ، وقد كلفه أن يتسلم عنه باقي الحقن ، فغضب الطبيب وأمر صاحبنا بالانصراف ، فلما لم يخرج أمر « التمرجي » بإخراجه . وما أن مد التمرجي يده ليشده حتى أهوى صاحبنا بكفه على وجه الطبيب ! وتماسك الاثنان ، فزلت قدم الطبيب ووقع على الأرض ووقع صاحبنا فوقه ، ومن فوقهما أدوات العلاج من سماعة وقطن وحقن وسوائل . ودخل المرضى على طبيبهم فوجدوه على هذا الحال فخرجوا من العيادة مذعورين .

لقد كان صاحبنا مدرساً ، ولكنه كان في سن المراهقة الفكرية .

وفيما هو يصلح من النقص الذي يحسه دخل عليه يوماً في غرفة المدرسين أحد السعاة وفي يده ظرف ، وعلى فمه ابتسامة . فلما قرأ الظرف عرف أنه من أبيه ، ووجد العنوان هكذا : « مدرسة التجارة الدنيا

بالظاهر ـ إلى فلان المعلم بالمدرسة » وفهم لماذا يبتسم الساعي . إن أباه كتب الاسم غير مسبوق « بالأستاذ » ولا متبوع بلقب « أفندي » لأنه يرى أن الأبوة تقتضي تجريد الأبناء من ألقابهم عند مناداتهم ولو بالكتابة . وقد استخدم كلمة « معلم » اقتداء بشوقي ، واستخدم كلمة « الدنيا » لأن ولده تخرج في المدرسة العليا .. وتصور أن زملاءه جميعاً يسخرون منه ، فطلب إلى خاله أن يتوسط عند أبيه ليفهمه أن ابنه أصبح ذا حيثية تقتضي أن يعامل بشيء من التقدير ، فسعد الوالد بذلك ونزل عند مواصفات وضعها الخال .

وسار كل شيء على ما يرام ، فقد جاءه بعد ذلك خطاب من أبيه معنون طبق المواصفات ، ولكن الرسالة التي بداخله تقول إن أحد الموظفين في أسرة منافسة بالقرية يريد شراء « الدوار » الذي يملكه عمه وهو واقع وسط بيوت الأسرة ، ويطلب من ولده أن يبيع « زر طربوشه » إن اقتضى الأمر ، ليحضر ومعه مائة وسبعون جنيهاً هي ثمن الدوار . وكان الابن قد جمع هذا المبلغ من الدروس الخصوصية والتدريس في الأقسام الليلية . فسافر إلى كفر عيسى ، ووقع مع أبيه على عقد الشراء في الشهر العقاري وسط أقربائه . لقد شعر لأول مرة أنه أصبح رجلاً .

وعاد إلى القاهرة فرأى أن مسكنه لم يعد يليق بمركزه ، وصمم على أن ينتقل منه إلى الظاهر . وفيما هو يفكر في ذلك زارته صاحبة البيت مهنئة بالوظيفة ، وعرضت عليه أن تطبخ له غداءه كل يوم ، فلما تأبّى ألحت عليه في ذلك ، وقالت : إن العشرة الطويلة جعلت منه ابناً لها ، فلا بد أن تقوم نحوه بواجب الأم . وصار يعطيها خمسة قروش

كل صباح ، فيجد في الظهر أرزاً وخضاراً ولحماً وفاكهة . وطغى عنده حسن المعاملة على سوء المسكن فأجل مشروع الانتقال .

وذات يوم جاءته صاحبة البيت تطلب خدمة . إن ابنتها تريد فتح حساب جار في بنك مصر ، وهي ترجو منه أن يساعدها في ذلك لأنها تجهل الإجراءات المصرفية . فرحب بما تريد ، واتفقا على أن يصحب ابنتها إلى البنك في اليوم التالي . ولكن الأم استدركت قائلة : « أليس من الأفضل أن أعرفك بها الآن ، إذا لم يكن عندك ما يشغلك ؟ » فلم يمانع المدرس في ذلك ، وامتدت يده في حركة تلقائية إلى ذقنه وربطة عنقه تتحسسهما لتطمئن على أنهما في أحسن حال .

وجاءت فتاة بدا أنها تزينت للمناسبة ، وأعلن عن مقدمها عطر زكي كان يخطو قبل خطاها فجلست ساقاً على ساق ، وتحدثت في طلاقة تشهد لها بالخبرة والتجربة .

وفي الصباح ذهب معها إلى البنك فوجدها تجيد الكتابة وتجيد التصرف ، بل وجدها تملأ قسيمة الإيداع وحدها ، وتكتب في خانة صاحب الحساب اسم المدرس فلما لفت نظرها إلى أن صاحب الحساب هو صاحب النقود قالت في تخابث : « نعم هو أنت » . ورأت في وجهه حيرة فواصلت كلامها : « إنني أريد الحساب باسمك ليسهل علي أن أسحب وأن أدع عن طريقك دون أن أضطر للحضور بنفسي » ووقع الأستاذ في المصيدة !

أصبح الحساب الجاري مسوغاً لاتصال الفتاة بالمدرس في كل يوم ، كانت تسحب ثم تودع ما سحبته ، وتودع ثم تسحب ما أودعته

حتى عرف المدرس غرضها . إنها سيدة مطلقة تبحث عن زوج ، وأسرع بالانتقال إلى الظاهر ، ففهمت من الانتقال كل شيء وأقفلت الحساب الجاري .

كان المسكن الجديد قريباً من المدرسة فأصبح ملتقى معظم الزملاء ، يستريحون فيه بين الحصص ، وينامون إذا شاءوا وكان مدرسو التجارة بالإسكندرية والمنصورة وأسيوط إذا انتدبوا للقاهرة في الامتحانات يتخذون من هذا المسكن مقراً لهم ومنتدى . كان الجميع ينامون بعد الغداء ثلاث ساعات ، ثم يسعون بين المقاهي ، فيلعبون النرد ، ويتحدثون في العلاوات وكان قد استقر في ذهن صاحبنا أن من سمات الموظفين أن يجلسوا في المقاهي بعد ساعات العمل فيمسحوا أحذيتهم ، ويشتروا ما طاب لهم من الملابس الصغيرة والكتب والفاكهة . وكان يرى أن المقاهي هي ملتقى المستقيمين من المدرسين ، فإن أحد زملائه كان يبدأ سهرته في « جروبي » ، فيتناول فيه قدحين من الويسكي ، ثم يقصد حانة في عماد الدين ، فيشرب زجاجة من النبيذ أو البيرة ، وينتهي آخر الليل إلى خمارة بشارع محمد علي ، فيجرع من المشروبات الكحولية ما شاء الساقي أن يقدم ، ما دام لم يعد يستطيع التمييز بينها .

وكان المدرسون ينقلون المعلومات التجارية إلى أذهان تلاميذهم بطريقة اجتهادية لا تستند إلى قواعد تربوية من استقراء أو استنباط ، وإنما تعتمد على القدرة التعبيرية لكل مدرس ، وعلى قدرته البدنية أيضاً إذا اقتضى الحال ! ذلك أن معظم التلاميذ كانوا ممن تحولوا عن الدراسة الثانوية بعد أن أخفقوا فيها ، وكان معظمهم أكبر سناً من

صاحبنا ، فلم يكن أمامه إلا أن يلوذ بالاستقراء والاستنباط وهو لحسن الحظ ممن يحبون القراءة في علم التربية .

ويذكر صاحبنا زميلاً كان ضخم الجسم بارز الكرش . وكان من أجل هذا شديد الحساسية . وذات يوم أصابه برد فتغيب عن المدرسة أياماً ثم عاد ، فهنأه التلاميذ بالشفاء فشكرهم وأضاف أن المدرس كالشمعة تضيء لغيرها وتحترق . فجاءه من الصف الأخير صوت يرد « العفو يا بيه انت كُلُّب » فتعالى ضحك التلاميذ وخرج المدرس غاضباً إلى الناظر الذي طيب خاطره بقوله : « يا سيدي ان نور الكُلُّب أقوى من نور الشمعة ! » .

وقام التلاميذ مع هذا المدرس برحلة إلى مرصد حلوان فاستقبلهم هناك مندوب طلب إليهم أن يدخلوا المصعد أربعة أربعة .ودخل المدرس في مقدمتهم فصاح تلميذ : « هؤلاء أربعة » فأمسك المدرس بتلابيبه لولا أن تدخل المندوب وخلى بينهما .

كان هذا المدرس سريع الانفعال سريع الرضا . تشاجر مرة مع زميل له فقال له الزميل : « أنت غشاش » فهاج المدرس ورفع مقعده في وجه زميله قائلاً في انفعال : « أنا غشاش ؟ » فرد الزميل : « نعم غشاش ولص كمان » فهدأ المدرس على الفور وقال : « لا بأس ما دمت قد اعتذرت ! » .

وكان المدرسون يتناولون غداءهم كل يوم في المدرسة لقاء خمسة وعشرين مليماً عن الوجبة ، فكان المتعهد يقدم لهم بهذه الملاليم لحوماً ودجاجاً محمراً وخضراوات متنوعة وفواكه ممتازة . ذلك أنهم

كانوا مكلفين بمراقبة الطعام الذي يقدمه منقوصاً للتلاميذ المساكين !

وذات يوم تزوج أحد المدرسين ولم يقم عرساً ، فطالبه إخوانه بعد الزفاف بدعوتهم إلى عشاء خاص . فوعدهم بأن يكون العشاء في آخر الأسبوع ، ولكنه استمهلهم في تحديد اليوم ليسأل عروسه إن كانت تفضل الخميس أو الجمعة : وفضلت الخميس فتغيب المدرس ، وكان يسكن في مصر الجديدة ، ولم يكن عنده دروس في هذا اليوم ، ليشتري اللحوم والخضر والفاكهة . واتصل منذ الصباح بأحد الزملاء المدعوين ليتولى عنه إخطار زملائه ـ وكانوا عشرين ـ بأن الليلة هي الموعد . فوضع الزميل السماعة ونسي كل شيء ! انشغل في دروسه حتى الظهر ثم ذهب إلى بيته فتغدى ونام . وفي المساء ذهب إلى السينما فلم يخرج إلا وقد انتصف الليل . أما المدعوون فكانوا قد تفرقوا كل إلى شأنه وقد انتصف النهار وانتهت الدروس .

ووضع صاحب الدعوة ما لذ وطاب على المائدة وزينها بالزهور ، ثم بقي مع أنسبائه ينتظر . ولكن المترو يصل قطاراً بعد قطار فينهض مع أنسبائه ليطلوا من الشرفة ويتفرسوا في وجوه النازلين فلا يجدون من بينهم واحداً من مدرسي مدرسة التجارة بالظاهر ! وشعر بأن كرامته تتمرغ في الوحل فنزل بعد ساعتين كالمجنون يبحث في كل المظان عساه يلتقي بواحد منهم فيصفعه على وجهه .

وجاء يوم السبت فتقدم المقصر إلى صاحب الدعوة معتذراً ولكن هذا لم يطق أن يرد عليه أو أن ينظر في وجهه وأعرض عنه مدة طويلة برغم توسط الزملاء غير مرة لطلب الصفح عنه . وبعد أيام لمعت في ذهن الداعي فكرة فهب لتنفيذها . قابل زميله هذا في الصباح مبتسماً

لأول مرة وأسر إليه بأنه اقتنع أخيراً بحسن نيته ، ولكنه يريد أن يسترد اعتباره بين أنسبائه بأن يزوره الزملاء فيشربوا الشاي عنده . ورحب الرجل بهذا الحل اليسير . فأعد قائمة بأسماء المدعوين كتب في أعلاها موعد الدعوة وعنوان المسكن ، واستمضى كل مدعو أمام اسمه ليتعهد بالحضور في الوقت المحدد . وفي الموعد تماماً التقى المدعوون جميعاً على سلم الداعي ثم دقوا الجرس فخرج إليهم الخادم يقول إن صاحب البيت غير موجود ...

ومن عينات الاهتمامات في مدرسة التجارة بالظاهر أن زميلاً من الدرعميين ـ أي من خريجي دار العلوم ـ جاء يوماً إلى المدرسة وجيوب قفطانه محشوة بلحاً وزع منه على زملائه . قال الدرعمي إن البلح جاءه من « القرين » وهي بلدته ، واسترسل في التفاصيل فذكر أنه كان يفطر فولاً مع زوجته فإذا الباب يدق ومزارع يدخل بمقطف بلح . البلح من أخيه . وأخوه معتاد على إرسال هذه الهدية في كل عام . فأثنى الزملاء على البلح وطلبوا مزيداً منه فطالبهم بالاكتفاء .

وخطر لزميل ماكر أن يجلب المقطف برمته من المنزل فأرسل ساعياً إلى زوجة الدرعمي ليدعي أنه موفد من زوجها لاسترداد المقطف الذي تبين أنه ليس لهم ويذكر تفاصيل الفول والمزارع والقرين ودق الباب ليكون كل ذلك قرينة على صدق ما يقول . وكان أمام الزوجة طبق فيه بقية بلح فأفرغتها في المقطف وأحكمت إغلاقه وسلمته للساعي

وجاءت ساعة الغداء في المدرسة فوزع الزملاء بلحاً كثيراً على أنفسهم وعلى زميلهم الدرعمي وقالوا له : إنه وقد بخل عليهم بما عنده فقد اشتركوا في شراء خمس أقات من بقال في العتبة الخضراء بثمن

زهيد ، والبلح كما يرى أجمل ، فأكل منه الدرعمي مختبراً حلاوته ثم عقب قائلاً .. كلا . إن بلحي لا يزال أحسن !

كان صاحبنا يرى في سير هؤلاء الزملاء عزاء له عن وقته الذي يضيعه في المقاهي ، ولكنه استيقظ يوماً فوجد حياته مع ذلك فارغة ، فقرر أن يملأها بالزواج .

وكان قد رآها في سيارة أبيها ، فتاة صغيرة في الثانية عشرة ، نجحت في الشهادة الابتدائية وهي تتأهب لدخول الأميرة فايزة الثانوية كان أول لقاء له معها ، وبقي آخر لقاء حتى سمح له أن يراها بعد خمس سنوات في ليلة الزفاف ! لقد قدم خاتم الخطوبة لأبيها - وكان طبيباً - لأنه لم يسمح بتقديمه للخطيبة ، وقدم الشبكة للطبيب لأن التقاليد لا تسمح بالسلام وتبادل النظرات قبل كتب الكتاب ، وكتب الكتاب لا يصح أن يسبق الحصول على شهادة الكفاءة .

ومن الغريب أن صاحبنا لم يثر لهذه المعاملة ، فقد أقدم على الزواج من فتاته لسبب واحد هو أن أباها أعجبه ! راقته استقامته وأحب فيه تزمته ، فاستبشر خيراً بسلوك ابنته . وتمر أكثر من ستة وثلاثين عاماً على هذا الزواج الذي لم يجئ في إثر عاصفة من الحب ، فيتطلع إليه كل عام منها ليعرف معنى الخلود .

اتحد الكيانان فأصبحا كياناً واحداً في شخصين ، واستحالت عيوب كل منهما بفعل الحب الصحيح إلى توابل في حياتهما الزوجية تزكي طعمها وتخلصها من الرتابة . وتدافعت الأيام ، فخرج من موكبها خلف صالح نشأ في رعاية أبوين وحنان أميّن. ترى أكان هذا بمحض

المصادفة أم كان بفعل التوافق الموضوعي ؟ إن صاحبنا لا يدري ، ولكنه يعرف أن زواجه كان أكبر توفيق في حياته .

وبعد الزواج بقليل جاءه تكليف من مراقب التعليم التجاري في أثناء الإجازة الصيفية بفحص كتب في الحساب التجاري لاختيار أصلحها لمدارس التجارة ، وكان صاحبنا يعتزم السفر مع زوجته في قطار البحر إلى الإسكندرية ، فأخذ معه النسخ في ظرف كبير كان قد جاءه من صديق في النيابة العامة . ولما وصل القطار إلى الإسكندرية ظهر أن قطارين اثنين قد وصلا قبله ، فماجت المدينة بالمصيفين ، وتعذر على كثير منهم أن يجد لنفسه سريراً في فندق أو « بنسيون » .

وتعب صاحبنا وزوجته في البحث واللف والاستفسار حتى وجدا « بنسيوناً » يقف أمامه صف طويل من الناس في انتظار معلومات عن غرفة خالية ، فوقفا في آخر الصف ، وإذا بصاحب « البنسيون » ينتقي المدرس بالذات ويدعوه للتقدم ، ثم يؤثره بالغرفة . لم يعرف صاحبنا سبباً لهذه المجاملة حتى فاتحه الرجل وهو يودعه في قضية حشيش أحيل من أجلها للنيابة ، وطلب وساطته ، ففهم أنه لمح الظرف الذي في يده ، وقرأ العنوان الذي عليه « النيابة العامة » فاعتقد أن صاحبه من وكلاء النيابة .

هكذا هيأت الفرصة له هذا « البنسيون » وهيأت له التعرف بمراقب التعليم التجاري ، فقد كان ينزل مع أسرته في البنسيون نفسه وقد سأله عما تم في فحص الكتب فقال : « إنهما اثنان ، أحدهما لأستاذ الحساب التجاري بمدرسة التجارة العليا ، والآخر لمدرس في التجارة المتوسطة » ، فعلق المراقب قائلاً : « لا بد أن يكون كتاب أستاذ

التجارة العليا أحسن » ولم يكن يدري أن مؤلف الكتاب الثاني هو أحد أقرباء المراقب ، ووجد الفاحص أن كتاب الأستاذ يعلو على أفهام التلاميذ . فاستبعده مخلصاً وزكى الكتاب الثاني .

قامت الدنيا ولم تقعد ، فقدم الأستاذ شكوى لعلي زكي العرابي وزير المعارف بدت وجيهة ، لأنه اتهم المراقب بالتأثير في حيدة الفاحص لمصلحة قريبه ، فبدا الحرج واضحاً في موقف المراقب ، ولكن الفاحص فنّد الشكوى في منطق وقانون ، فاقتنع الوزير بهما وأقر الكتاب وحفظ الشكوى .

ونشأت بين صاحبنا والمراقب بسبب ذلك صلة تقدير متبادل جعلته يختاره في بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٣٧ . ما أعجب الظروف !

رَأس المُطربَش في قبّعَـة

١٩٣٧

مدارس التجارة في شغل شاغل . المدرسون يتهامسون وقد بدا الاهتمام على وجوههم . والأجراس تدق فلا يكادون يسمعون لأنهم لا ينصتون . فإذا سمعوا انصرف كل منهم إلى فصله في تثاقل وشرود ، وكثر ترددهم على من في عهدته ملفاتهم ليستوثقوا من تواريخ حصولهم على مؤهلاتهم ودخولهم الخدمة ، وترقيتهم للدرجات التي هم فيها .

لقد جاءت الأخبار بأن الوزارة قررت إيفاد أربعة منهم في بعثة إلى إنجلترا ، اثنان لدراسة المحاسبة ، والثالث لدراسة الإعلان ، والرابع لدراسة أساليب البيع . واختلفت المعلومات عن أساس الاختيار أهو المؤهل أم هو الأقدمية ؟ وهل السن مهمة في الحالتين ؟ وإذا تعارض الترتيب عند التخرج مع الأقدمية فأيهما يرجح الآخر ؟ وهل يكون الاختيار للمحاسبة من بين مدرسيها والاختيار للموضوعين الآخرين كذلك ؟

أسئلة كانت تجمع بين كل اثنين أو ثلاثة في ركن من الأركان ، ليناقشوا الإجابة عنها ، ويستعدوا للرد على من يعارضها ، فإذا عاد كل منهم إلى منزله بدأ يفكر في استغلال إمكانياته ، ومنها عمته التي تعرف حرم الوزير ، وصديقه الذى هو محسوب على كبير الأمناء ، وبدأ يستعرض إمكانيات الزملاء ليوازن بين فرصته وفرصتهم في الفوز .

كان كل منهم يبني حكمه على مكانة الواسطة التي لديه ، ومدى اهتمامها بأمره ، لأنها هي التي سترفع مؤهلاته لتظهر على مؤهلات الآخرين . واشتدت المعركة ، وتقاذف المتصارعون بالاتهامات ، ثم قذفوا بها في وجوه الرؤساء حتى أسفرت المعركة عن انتصار ثلاثة كان منهم صاحبنا . أما الرابع فقد تأجل اختياره حقناً للدماء !

وتأخر سفر الثلاثة لطول الإجراءات ، فرأت إدارة مدرسة التجارة بالظاهر ـ ومنها الفائزون الثلاثة أن تعهد لهم في تدريس مواد إضافية إلى أن يسافروا ، فكانت الجغرافيا من نصيب صاحبنا . ولم يكن يعرف إن كانت تنجانيقا قريبة من ممر سمبلون ؟ أم هما في قارتين مختلفتين ؟ ولكنه قبل المهمة ، فكان يمعن في التركيز على موضوع الدرس لكي لا يستطرد طالب فيسأله في موضوع متصل . ولذلك كان يرسم الخريطة على السبورة قبل أن يدخل الفصل ، وينسخ منها صوراً يوزعها على الطلاب لكي لا يتطلعوا إلى سواها . وكان شديد الحرص على النظام لكي لا تطير المعلومات من رأسه . كان يحفظ الدرس فينقله إلى الطلاب ، وكان يعجب إذا فهموه لأنه لم يفهمه . وزاره أحد المفتشين الكبار مرة فأعجب بأسلوبه في الشرح ، وعنايته بوسائل الإيضاح ، فكتب في تقريره أن له مستقبلاً عظيماً في عالم الجغرافيا !

وسافر صاحبنا مع زميليه بعد انتهاء الإجراءات ، وترك امرأته حاملاً إلى ما بعد الميلاد . وعز عليهم أن يمروا بالقطار على باريس ثم لا يمكثوا فيها يومين ، فنزلوا ، وكانت فرنسيتهم جميعاً عرجاء ، وكان جهلهم بادياً في تصرفاتهم ، لأن هذه كانت سفرتهم الأولى خارج الديار .

كانوا يرون الرجل يحيط رفيقته بذراعيه ويقبلها في الطريق العام ، فيجدون في هذا فجوراً كبيراً . وكانوا يرون المطاعم لا تقدم الماء مع الطعام ، فلا يفهمون لهذا الإحجام سبباً . وكانوا يرون أفواج الناس تنزل إلى المترو فيقصد كل منهم إلى قطاره دون أن يستدل عليه من أحد ، فيجدون في هذا مهارة خارقة . كان كل شيء غريباً عليهم . كانوا يخافون الناس ، ويعجبون لارتفاع العمائر ويضيعون في الطرقات وقاموا ببضع رحلات مع « كوك » ، فاستمتعوا بجمال المدينة ، وشاهدوا كثيراً من آثارها ، وظنوا أن إلمامهم باللغة الإنجليزية سيسهل مهمتهم في لندن ، ولكنهم حين حاولوا التحدث إلى الشيالين ورجال الشرطة وجدوهم يتكلمون رطانة غير مفهومة . واستقبلهم صديق هو الدكتور إبراهيم أنيس عضو المجمع اللغوي الآن * فقد عرف موعد وصولهم من القاهرة فكان ترجمانهم ، وحجز لهم ثلاث غرف معتدلة السعر في حي فقير .

كان صاحبنا موفداً لدراسة الإعلان علماً وعملاً . وقد وصل بعد أن أوشكت السنة الدراسية أن تنتصف ، فتوجه في الصباح إلى مكتب البعثات . وهناك التقى بالدكتور حافظ عفيفي سفير مصر في لندن قال لصاحبنا متهكماً : « طبعاً حضرت متأخراً لأنك كنت مشغولاً بالإجهاز على منافسيك ! » وظن صاحبنا أن السفير يعرف ما حدث لولا أنه التفت إلى مدير المكتب قائلاً : « من الأسف أن أعضاء البعثات يختارون لاعتبارات كثيرة ليست مؤهلاتهم أهمها » ، وبقي صاحبنا صامتاً يستمع .

---

* انتقل إلى رحمة الله .

وبناء على توجيهات المكتب اتصل بمجمع الدعاية التجارية يطلب موعداً مع رئيسه ، فلما حدد له أخطأ طريقه إلى مقر المجمع ، فوصل متأخراً ، ورفضت السكرتيرة أن تدخله ، وحددت له موعداً آخر بعد أسبوعين ، فبقي دون عمل طول هذه المدة ، وكان لهذا الدرس أثره القاسي في نفسه ، فلم يعد يتأخر عن موعد إلا لسبب قاهر . وأصبح معروفاً بالدقة في مواعيده حتى بعد أن عاد إلى مصر .

عرف صاحبنا أن عليه أن يعمل في الصباح في إحدى وكالات الإعلان ، وأن يدرس في المساء بإحدى الكليات المتخصصة ، فقدم نفسه لشركة « كروفورد » حيث أشرفت عليه آنسة في سن الخمسين ، صارمة الوجه والقسمات . قالت له : « ستعمل ساعياً تنقل الأصول والكليشيهات بين المكاتب لمدة شهر حتى تعرف العلاقة بينها . وتقوم على تصنيف الكليشيهات وحفظها في الخزائن شهراً آخر ، ثم تعمل على آلة لطبع التجارب شهراً ثالثاً . وبعد ذلك تجلس إلى مكتب فتعمل في الإدارات المختلفة » .

وأومأ صاحبنا علامة الموافقة ، ثم قام من عندها قلقاً على كرامته ، فهو مدرس بمدارس التجارة وعضو بعثة ، ومن كان هكذا لا يصح أن يعمل ساعياً ، ولكنه آثر الانصياع خوفاً من نتائج المخالفة .

وطلب منه موظف في الدور الأول أن يأخذ أوراقاً إلى زميل له في الدور السابع ، فافترض أن الصعود بالمصعد ، ولكن العامل صده قائلاً : « إن السعاة لا حق لهم في استخدام المصاعد » ، وصعد صاحبنا على رجليه !

وظل يصعد وينزل مع ساع أصيل نشأت بينهما صداقة بسبب

العمل ، ساعد على تمكنها أن صاحبنا كان يكثر من تقديم السجائر له. وذات يوم جاء رئيس مجلس الإدارة إلى الشركة في سيارته ، وإلى جانبه فتاة جميلة ، عرفها صاحبنا على الفور ، فهي التي تنظف مدخل الدار . قال لصديقه : « أليس عيباً أن يصادق رئيس مجلس الإدارة هذه الفتاة التي تعمل عنده ؟ » فضحك الصديق من جهل صاحبنا وقال : « هذه الفتاة العاملة هي ابنة رئيس مجلس الإدارة ! إنها تبدأ هكذا لتصبح في النهاية مديرة لمثل هذه الشركة ، ولها أخ يعمل جرسوناً في مطعم كبير للسمك ، سيكون هو الآخر مديراً له » ، فحمد صاحبنا ربه لأنه لم يبدأ بتنظيف الأرض !

وكان عمله محل الرضا ، لولا أن تأخر في الصباح مرتين خلال سنة ونصف ، فتلقى في المرة الأولى نظرة حادة من تحت نظارة المشرفة وفي المرة الثانية استدعته وطلبت إليه حين يتأخر أن يتغيب ، ولولا أنه أخطأ مرة فوضع أحد الكليشيهات في غير مكانه ، فتاه منه ، ولم يستطع تقديم تجربة منه في الوقت المناسب ، فلقي في هذا تعنيفاً كبيراً ، ولولا أنه أخطأ مرة فأرسل تجربة سيئة الطبع فرجعت له مع كثير من التوبيخ .

لقد تعلم من هذه الأخطاء الصغيرة أن يتجنب ما فوقها ، وتكون عنده سلوك ذهني يعني بالتفاصيل لتجيء الكليات سليمة . كان يعتقد أن المبدأ هو المهم ، فعرف أن أسلوب التنفيذ لا يقل أهمية عن المبدأ .

وعرف شيئاً كبيراً هو أنه لا يعرف ! فقد كان يتولى تدريس الإعلان في مدارس التجارة على أنه لغة جذابة تستدرج الناس إلى الشراء ، وكان يدور حول هذا المعنى البدائي فلا يحيد عنه ، ثم وجد

الإعلان صناعة كبرى تحدد خصائص المستهلكين لكل سلعة ، وتضع الصيغ والرسوم التي تصلح لهم ، ثم تنتقي وسائل النشر التي تصل إليهم ووجد وكالات الإعلان مصانع كبيرة فيها أستديوهات ومطابع ومخرجون ومصورون وكتاب ورسامون . دخل صاحبنا وكالـــة « كروفورد » جاهلاً لا يشعر بحاجته إلى العلم ، وتركها نصف جاهل يبحث عن العلم في كل مكان .

أما الكلية فلن ينسى صاحبنا أول مرة دخلها . لقد وجد في المدرج امرأة عارية تمثل للطلاب تحت إشراف الأستاذ ، لتبين لهم الفرق في الإخراج بين الضحك والتثاؤب ، بين الجري والترنح ، بين الموت والنوم ، وكانت تبين أثر ذلك في قسمات وجهها فيسجله الطلاب في كراساتهم . أما صاحبنا فكان مشغولاً عن ذلك بالتفرج على جسمها واستراق النظر لصدرها . ولما تكرر حضورها لم يعد يجد فيها شيئاً مثيراً . إن صدرها بقي جميلاً ، ولكنه لم يعد يستثير فيه رغبة جنسية ، وإنما يثير عاطفة جمالية ، وبقي تكوين جسمها رائعاً ، ولكنه بعد أن كان طعاماً للغريزة أصبح مقياساً عقلياً للنسبة والتناسب .

كان صاحبنا يخجل أول الأمر وهو يرى هذه العارية ، فأصبح لا يجد مانعاً من أن يتحدث إليها ، بل أصبح يتردد على استديو خارج الكلية تتردد عليه نماذج من العاريات لتصوير أجزاء من أجسامهن تظهر في الإعلانات ، وكان يشترك مع غيره في البحث دون أن تستبد بتفكيره اتجاهاته الأولى .

لقد طلب إليه أستاذه في الفن أن يتردد على هذا الأستديو ، ليثقف نفسه ، بعد أن اختبره فأطلعه على لوحتين في إحداهما لونان

متكاملان ، وفي الأخرى لونان متنافران ، وطلب منه أن يقول أيهما أجمل ، فوقع اختيارة على اللوحة المتنافرة . وهرش الأستاذ رأسه ، ففهم صاحبنا أنه أخطأ . ثم أبرز الأستاذ لوحتين أخريين ، وسأل صاحبنا عن رأيه ، فود لو اختار واحدة بالذات ، ولكنه عكس قراره ، فاختار الأخرى ، وأظهر الأستاذ موافقته ، لولا أن صاحبنا صارحه بحقيقة شعوره ، فقال الأستاذ : « ظننت أنك خالفت رأيك ! » .

ومن تردد صاحبنا على الأستديو اقتنع بأن العري ليس مخيفاً إلى الحد الذي كان يتصوره ، وأن القبائل التي تعيش عارية في خط الاستواء ليست بالضرورة منحلة ، بل بدأ يعرف سبباً لإنشاء أندية العراة . إن القائمين عليها يريدون تجريد المرأة من أهم أسلحتها وهو التجمل ، وتجريد الرجل من أهم سبيل للوقوع في الإثم وهو التخيل . ورجع بذاكرته إلى أيام المراهقة ، فقد نظر من شباكه يوماً فرأى في الناحية الأخرى من الحارة خيالاً يتحرك لسيدة خلف « الشيش » . والتهبت عاطفته بجمال السيدة ثم انفتح « الشيش » في الصباح فإذا الخيال « لقُلَّة » .

لقد تبدلت عقلية صاحبنا بعد أشهر من إقامته في إنجلترا ، فتحرر في آرائه وإن لم يتغير في تصرفاته . كان يؤمن بمسلمات لا يعرف مأتاها ، ولكن فيه نزوعاً للدفاع عنها واستعداداً لمهاجمة من يخالفها ، فأصبح يرى الرأي ولا يستبعد من حسابه أن يكون خاطئاً ، ولذلك ينصت لمن يخالفه عسى أن يستفيد من وجهة نظره .

كان يناقش لينتصر في المناقشة ، فأصبحت المناقشة عنده تعاوناً في البحث عن الحقيقة ، وكان إذا اختلف مع سواه يعد موضـوع

الخلاف كلاً لا يتجزأ ، فإما اتفق عليه أو تركه معلقاً ، فأصبح لا يمانع في أن يتفق على بعض الأجزاء ويترك الأخرى إلى أن يتيسر الاتفاق عليها . كان عندما يتناقش يشغل نفسه بما يريد هو أن يقوله ، لا بما يود الآخر أن يبديه ، فأصبح يؤمن بفضيلة الإنصات ويعرف أنها عملية إيجابية توفق بين مختلف الاتجاهات لتصل إلى الحق الذي هو ـ في أغلب الأحيان ـ وسط بين باطلين .

لكن ما هو الحق ؟ لقد رأى صاحبنا رجال الأعمال في إنجلترا يحققون مصالحهم عن طريق مصالح الآخرين . فهم لا يبيعون سلعة أو فكرة إلا إذا كان ثمنها أكبر منها عندهم ، وهي أكبر من ثمنها عند الآخرين . العبرة إذن ليست بالحق ، وإنما هي بالحل الذي يلتقي عنده الطرفان . إن الحق لا تعرفه البشرية ، وإنما يعرفه الله وحده !

وجاءت امرأته إلى لندن تحمل طفلاً عمره ثلاثة أشهر ، فأعدت لها الأسرة التي يسكن عندها عشاء خاصاً ، كانت ابنة الأسرة مخطوبة فجلست على ركبتي خطيبها الذي جعل يقبلها ويعبث بشعرها على سبيل المجاملة ، ولكن امرأة صاحبنا اشمأزت من هذا التصرف ، فتركت غرفة الاستقبال وحبست نفسها في غرفتها . ولما طال انتظارها قام صاحبنا يستعجلها فوجدها تبكي . قالت : « إذا كنت تقبل أن تعيش في هذا البيت فإن كرامتي لا تسمح بذلك . دعني أعود إلى بلدي » . وحاول صاحبنا أن يقفها على حقيقة الأمر ، ولكنها لم تقتنع ، فاعتذر لأصحاب البيت عنها بحجة أنها تشكو مغصاً شديداً من أثر سفرها الطويل بالباخرة ، وأيد كلامه بشراء دواء للمغص من إحدى الصيدليات .

ولم يجد صاحبنا بداً من أن يترك هذه الأسرة إلى شقة مفروشة ، فأصبح على الزوجة أن تعنى بالطعام وشئون البيت إلى جانب العناية بالطفل ، وكان زوجها يساعدها في ذلك إلى أن انعقد مؤتمر فلسطين في لندن سنة ١٩٣٨ ، فاستعان به الشيخ حافظ وهبة وزير السعودية ليعمل في المفوضية ، إلى جانب عمله . كانت البلاد العربية المستقلة ثلاثة هي : مصر والسعودية واليمن . وكان الأمير محمد عبد المنعم هو رئيس الوفد المصري ، يساعده علي ماهر ، وكان الأمير فيصل هو رئيس الوفد السعودي ، وسيف الإسلام أحمد رئيس الوفد اليمني .

وجاءت جلسة الافتتاح فاحتج الوفد اليمني على أن مكانه بعد وفد السعودية ـ وكان بين المملكتين خلاف ـ فحاول علي ماهر أن يشرح لسيف الإسلام أحمد أن ترتيب الوفود وضع بحسب الحروف الأولى لبلادهم ، ولكنه لم يقتنع . فنزل الوفد المصري عن مكانه للوفد اليمني وحلت المشكلة . ولكن حدث بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان ، فبعد أن ألقى مستر « إيدن » وزير الخارجية البريطانية كلمته ، ورد عليها علي ماهر باسم الوفود العربية ، وقف سيف الإسلام ـ دون أن يدعوه أحد ـ وقال : « أيها السادة . إن الخلاف القائم بين الإنجليز والعرب سببه العفاريت ! » فوقف الدكتور أحمد فريد رفاعي ، وكان أميناً عاماً للوفد اليمني ، وقال كأنما يترجم كلام سيف الإسلام : « إن حسن النية كفيل بإزالة سوء التفاهم بين الإنجليز والعرب » وواصل سيف الإسلام كلامه : « إن العفاريت ألقت علي الطوب مرة ، فرددت في سري (قل هو الله أحد الله الصمد) ، فجرت العفاريت وجريت

في أثرها وأنا أقول : (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) حتى اختفت » .

وهنا ترجم فريد رفاعي قائلاً : « إنه مهما يكن من اختلاف وجهات النظر فإن على كل طرف أن يضع في اعتباره وجهة نظر الطرف الآخر ، لتلتقي النظرتان عند حل مشترك » . واستعد سيف الإسلام لكي يستأنف كلامه ، فنظر فريد رفاعي إلى علي ماهر وقال بالعربية : « أنا استنفدت كل ما عندي من اختلاقات فأسعفني يا باشا فقام علي ماهر وربت على كتف سيف الإسلام راجياً أن يجلس ، ولكنه أبى وخرج غاضباً من المؤتمر ، وكان الصحفيون الإنجليز يقفون في الخارج ، فلما رأوا الأمير يخرج مبكراً ، سألوا فريد رفاعي ، وكان معه ، عن السبب فقال : « إن سموه يرفض أن يساوم على حقوق العرب » وظهرت الصحف الإنجليزية في الصباح وعلى صدرها هذا ، العنوان : « أمير اليمن لا يقبل التفاوض في حقوق العرب » وسافر سيف الإسلام غاضباً إلى « باريس » وبقي فيها حتى انتدب الرؤساء العرب الأمير محمد عبد المنعم لمصالحته . وجاء الاثنان إلى فندق « دورشستر » الذي تقيم فيه الوفود ضيوفاً على الحكومة البريطانية . فخطر لسيف الإسلام أن يسوغ سبب تمسكه بالعفاريت ، ورد عليه الأمير عبد المنعم مازحاً : « أنت اللي عفريت » فعدها سيف الإسلام قذفاً في ذاته ، وشتم الأمير ، فرد عليه هذا بلكمة قوية وقع منها مغشياً عليه !

كان صاحبنا يحضر مؤتمر فلسطين مع الوفد السعودي ليقوم بالترجمة ، وكان يشاهد ويسمع عن هذه المناظر ، فيرى كيف يتناول

الرؤساء العرب قضايانا الكبرى ! ! إن منهم من كان يسمع غير ما قيل ويفهم غير ما سمع ، ويكتب غير ما فهم ! على حد قول اليازجي .

وكان صاحبنا يذهب وزوجته في المناسبات إلى النادي المصري ، فيقابلان أصدقاءهما ، ويشتركان معهم في وجبة مصرية ، ثم يطالعان الصحف العربية . وفي إحدى الأمسيات اشترك الجميع في مناقشة عن سياسة الأحزاب وموقفها من الإنجليز ومن السراي . وكان محمد محمود قد تولى الوزارة وكان ابنه همام حاضراً . وهاجم أحد الأطباء الوفديين سياسة محمد محمود وجعل يقلده في أحاديثه وخطبه متعمداً إثارة « همام » لكن « همام » كان يؤمن بحرية الرأي فبقي ينصت ولا يعقب .

وخطر لأحد أعضاء النادي أن يداعب الطبيب ، فطلبه بعد أيام في التليفون مقلداً صوت مدير البعثة : « قل لي يا دكتور ؛ هل صحيح أنك شتمت رئيس الوزراء أمام نجله همام ؟ » قال الطبيب : « كيف ؟ » قال مدير البعثة : « لقد جاءتني برقية باستدعائك إلى مصر بسبب هذه التهمة » فصرخ الطبيب : « هذا فظيع . إنني بريء ، والتهمة مختلقة » ، قال المدير : « إذن تعال لمقابلتي » . فجرى الطبيب إلى المكتب ، وتقدم إلى شباك الاستعلامات فملأ بطاقة قال فيها إنه يقابل المدير بناء على موعد سابق .

وذهبت العاملة تقدم البطاقة لمدير المكتب فلم يفهم معناها ، ولكنه لم يمانع في استقبال صاحبها . ودخل الطبيب منفعلاً يقول : « والله يا سعادة البيه أنا مظلوم . أنا لم أتكلم في حق رئيس الوزراء ، وأرجوك أن تدافع عني . فلم أكن في يوم من الأيام وفدياً » ؛ فجعل المدير يهز رأسه مستفسراً ، واستمر الطبيب يتدفق . قال المدير : « من أين

جاءتك هذه المعلومات يا دكتور ؟ » قال : « ألم تذكر لي ذلك في التليفون اليوم ؟ » ، فضحك المدير وقال : « أنا لم أتحدث إلى أحد ، فابحث عمن يسخر منك » . فخرج الطبيب يلعن من سخر منه ، ولكنه حمد الله لأن الحكاية غير صحيحة .

وبقي صاحبنا وإخوانه يتناقلون هذا الفصل ، ويضحكون منه ، إلى أن جاءت الأنباء بما هو فوق الأحزاب وسياسة الأحزاب ، فأكدت أن الحرب العالمية الثانية على الأبواب ، وكان صاحبنا قد أنهى امتحانه ونجح فيما أوفد من أجله ، فأخطر صاحبة البيت بأنه سيتركه بعد أسبوع .

وجاءت لتعاين الشقة فوجدت ورق الحائط ممزقاً في جزء صغير منه ، فطلبت إبداله كله ، حيث إن إصلاحه متعذر لعدم وجود اللون . ونشأت بسبب ذلك مناقشات كثيرة ، هل ما حدث استهلاك عادي يغطيه الإيجار ، أو هو إتلاف يقتضي التعويض ؟ وفي إحدى الجلسات كان عند صاحبنا ضيف ، فتدخل في الحديث هازئاً من طلب التعويض قالت له صاحبة البيت : « أرجوك يا سيدي ألا تتدخل في أمر مقصور على مؤجر ومستأجر » ، فثار صاحبنا لهذا التقريع ، وقال : « ما دمت تهينين ضيفي فلا تفاهم بيننا » . فرأت أن هذا الأمر العارض قد يفسد المفاوضات ، وقدمت اعتذارها على الفور للضيف ، ثم التفتت لصاحبنا قائلة : « أما وقد قدمت اعتذاري فقد انتهت المسألة ، ولنعد إلى موضوعنا الأصيل » . ولما لم يصلا إلى حل قالت في صوت خفيض : « معذرة فإني مضطرة الآن لوضع الأمر في يد المحامي » . واستأذنت في الانصراف ، فودعها صاحبنا وكان خارجاً هو الآخر لكليته .

وعندما ركبت السيدة سيارتها رأت صاحبنا يمشي ليأخذ المترو ، فدعته ليركب معها ، وظن في هذا معنى الترضية والعدول عن التهديد ، ولكنه تسلم بعد يومين اثنين إنذاراً أحمر بالحجز على أثاثه مع تحذيره من مغادرة الشقة قبل نظر القضية بعد ثلاثة أيام .

وذهب صاحبنا يبحث عن لون الورق في كل مكان حتى وجده عند تاجر للمخلفات ، فاشترى منه متراً بثلاثة شلنات ، وعاد به لصاحبة البيت ، قالت : « شكراً سألغي الآن الإجراءات » .

وبعد يومين ذهب صاحبنا إلى محطة فيكتوريا ، ليأخذ القطار مع أسرته إلى « دوفر » فوجد على رصيف المحطة سيدة وباقة ورد ، إنها صاحبة البيت تقوم بواجب التوديع . ما أجمل الموضوعية في التفكير !

لَم يُضَيّع في الإعْلانِ عُمْرَهُ
١٩٣٩

وصلت الباخرة « كوثر » إلى مشارف الإسكندرية قبل قيام الحرب العالمية الثانية بأسبوع ، فخفضت سرعتها ، وكان صاحبنا يضيق ببطئها لأنه لم يعد يطيق الصبر على هذا الميل الأخير الذي يفصل بينه وبين الوطن ، ولكن الجو محا بضيائه آية الضباب ، فملأ قلبه إشراقاً وحباً . وضحك البحر ، فأخذ يهدهد الباخرة ، ويتلاعب بالموج من حواليها ، ثم يرسل الرذاذ إلى وجه صاحبنا ، فيداعب أنفه وجبينه ، ليهون عليه أمر المسافة الباقية .

وأرسلت الزوجة بصرها ، في منظار لديها ، فشاهدت جموعاً من المستقبلين على رصيف الميناء ، وأيقنت أن من بينهم ولدها الأكبر ـ وكانت قد تركته في رعاية جدته ـ فاستيقظت أمومتها ، وتحركت من أعماقها إلى شفتيها ، فتلاقتا على خد ابنها الذي معها ـ وكان نسخة من أخيه ـ في قبلة نطقت ببعض ما يعتمل في نفسها .

وأخيراً رست الباخرة ، فتعطلت لغة الكلام وجلجلت القبلات ، ثم برز من بين الصفوف مدير الجمارك ـ وكان من أقرباء صاحبنا ـ فأشار بيده فإذا الشيالون يتزاحمون على الحقائب وينقلونها إلى الخارج دون أن تمر برجال الجمارك ، وكفى الشيالين شرفاً أنهم حملوها ولم يتقاضوا عنها شيئاً . وانطلقت سيارة المدير بالقادمين رأساً إلى الطريق

العام . لم يكن في حقائب صاحبنا ولا معه ما يخضع للرسوم الجمركية ، ولكنه تمكن بنفوذه من خرق القانون بمجرد أن انتقل من إنجلترا إلى مصر !

وكان أول ما فعله هو أن يقرأ الإعلانات التي تظهر في الصحف وعلى الملصقات ، كان معظمها من نوع « شرفونا تجدوا ما يسركم » للإعلان على محل كبير ، و « قنبلة تنفجر في ميدان العتبة » للإعلان عن افتتاح مطعم جديد ، كأن الطاعمين مغرمون بالأكل وسط القنابل ! وكان أصحاب المطاعم حريصين على نشر صورهم في الإعلانات كأن الناس « تفت » في شواربهم ولحاهم ، أو كأن هذه الشوارب واللحى من شأنها أن تختلط بالشوربة الساخنة فتزكي طعمها ! كان صاحب مكتب يضيء واجهته بلفظ الجلالة « الله » ثم لا يتبعه بشيء يدل على نوع عمله . وكانت الأخطاء المطبعية كثيرة ، حتى لقد أرادت شركة أن تعلن حضرات عملائها فظهر إعلان يقول : « شركة ... تلعن حضرات عملائها » وأرادت دار كبيرة للنشر أن تعلن عن نفسها فقال الإعلان إن الدار « للنشل » .

وكان سمعان صيدناوي يعلن عن محله بوصفه « أكبر معرض في مصر » فنسيت الجريدة نقطة الضاد ! وكان بائع ذكي للفول في مصر القديمة يكتب على محله : « إن خلص الفول أنا غير مسئول » ! ومطعم لأحشاء الذبائح أمام مسجد السلطان أبو العلا بشارع فؤاد يكتب على لوحته : « كل باطمئنان ، واقرأ الفاتحة للسلطان » . وكانت الصحف ملأى بإعلانات « لولا الراعي ما انكست الرعية » .

كان الإعلان بالفطرة . لم يكن بيعاً على الورق ، وإنما كان دعاية

جوفاء قد تسيء أحياناً ولا تنفع ، ورأى صاحبنا هذا الحال ، فذهب إلى مراقبة التعليم الفني يطلب إنشاء دراسة جادة في الإعلان يقوم هو عليها ، فقيل له إن البلد ليس في حاجة إلى مثل هذه الدراسة ، وإن عليه أن يعود إلى تدريس الحساب التجاري وتنظيم المكاتب ! وكان صاحبنا يعرف صاحب الأهرام ، عرفه في لندن في صيف ١٩٣٨ ، واصطحبه لزيارة إحدى الصحف وإحدى وكالات الإعلان ، فطلب معونته ، فوافق على أن ينشئ هذه الدراسة في الأهرام .

وذهب صاحبنا يستأذن في التدريس بالأهرام ، إلا أن المراقب استنكف ذلك ، فأنشأ في معهد التجارة العالي دراسة مسائية ذات شعبتين ، إحداهما لممارسي الإعلانات في دور الأهرام والهلال وشركة الإعلانات الشرقية ، والشركات المعلنة ، ووكالات الإعلان ، والأخرى لخريجي مدارس التجارة ممن يرغبون في التخصص في الإعلان .

وأثارت هذه الدراسة اهتماماً كبيراً في الوسط المصري ، حتى لقد طلب المصور من صاحبنا كتابة عشر مقالات عن الإعلان تقاضى عن كل منها جنيهاً كاملاً ، وعهد إليه نابلسي النمر بإعلاناته فظهر في الصحف هذا الشعار : « النمر على الصابون علامة الصنف المضمون ».

ثم توقفت الإعلانات عن هذا الصابون لظروف خاصة ، فانتهز منافسه « نابلسي فاروق » هذه الفرصة ، واتفق مع صاحبنا على أن يشرف على سياسته التسويقية . وكانت الرقابة على الصحف شديدة ، فظهرت أخبار اليوم وفيها صفحة كاملة بيضاء في وسطها هذه العبارة :

« هذه الصفحة لم يحذفها الرقيب ، وإنما استحمت بنابلسي فاروق ».

وفي اليوم التالي ظهرت الأهرام والمساحة اليسرى للإعلانات في الصفحة الأولى بيضاء إلا من هذه الجملة بخط صغير « إذا أردت أن تقرأ ما في هذه الصفحة فارفع الورقة للضوء » وكانت المساحة المقابلة من الظهر قد تركت بيضاء كذلك وكتب عليها من اليسار إلى اليمين بخط كبير « نابلسي فاروق » فظهر الاسم معتدلاً من خلال الورق .

ثم امتلأت الصحف بأنباء المفاوضات بين الأحزاب لتحقيق الائتلاف بينها ، فظهر في الصحف عنوان كبير مثير :
« اتفق الزعماء » ، وتحت العنوان صور مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومحمود بسيوني رئيس الشيوخ وحافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ومحمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة ، وشهادات بخط كل منهم تؤكد جودة نابلسي فاروق ثم ينتهي الإعلان : « وهكذا اتفق الزعماء على أن نابلسي فاروق ملك الصابون » .

وكان صاحبنا قد تعاقد مع الأستاذ حسن صبحي الصحفي على أن يقدم علبة من الكرتون فيها قطعتان من الصابون لكل زعيم ليجربه في بيته ، ثم يرجوه الصحفي بعد ذلك أن يكتب رأيه تشجيعاً لصناعة مصرية ، فقبل الجميع إلا أحمد ماهر ، إذ تقدم الصحفي إليه يطلب شهادته ، فقال إن ابنته جربت الصابون فوجدته رديئاً .. وأسرع الصحفي في الانصراف !

وفوجئ صاحبنا يوماً بزعيم يهدد برفع دعوى لأن الشهادة المنسوبة إليه مزورة ، فلما رجع إلى الصحفي أكد أنها صحيحة . وذهبا إلى هذا الزعيم في نادي الحزب ، فظهر أن الصحفي استكتبه وهو سكران فلم يذكر بعد ذلك ما حدث !

وكان لصاحبنا صديق من أعضاء مجلس النواب ، فطلب إليه أن يقدم استجواباً عن هؤلاء الزعماء الذين يسخرون أسماءهم في الإعلانات لترويج صابون معين ، ولم يكن الصديق يعرف أن صاحبنا مسئول عن هذه الإعلانات فقدم الاستجواب .

وفي اليوم التالي قابل صاحبنا « أنطون الجميل » رئيس تحرير الأهرام ، وكان يعرف أنه رجل نزيه لا يؤثر فيه الذهب ولا الجنس ولا الخمر ولا الميسر ، ولكنه ذوّاقة يؤثر فيه الشعر ، فحفظ بعض الأشعار وطلب إليه موعداً ، ثم جعل يستفسر منه عن معنى بعض الأبيات ودلالاتها ، فأضاء النور الأحمر إعلاناً بأنه مشغول ، ومنع المحررين والإداريين بالأهرام من الدخول إلى غرفته ، وفي هذا الجو استمضاه صاحبنا على مقال يرد على استجوات النائب عنوانه «لماذا يرغي هذا النائب ويزبد ؟» فاحتج مدير إعلانات الأهرام على هذا النشر لدى رئيس التحرير ، وأدرك الباشا بعد فوات الوقت أنها كانت مناورة إعلانية .

ثم جاءت الكارثة . لقد ظهر إعلان في الصحف فيه فتاة جميلة بلباس البحر تجلس على قطعة كبيرة من نابلسي فاروق ، وقد كتب تحت الصورة : « نابلسي فاروق عماد الجمال » ، فإذا السراي الملكية تتهم صاحب الصابون بأنه أهان الذات الملكية ، لأن الفتاة تجلس على التاج وهو علامة الصابون ! كانت في « السراي » عصابة تتحرش بالناس عن طريق اتهامهم بالعيب في الذات الملكية ، ثم تسوي الموضوع معهم لقاء بضعة ألوف من الجنيهات . وأجفل صاحب الصابون قائلاً إن له خبيراً في الإعلانات هو الذي يتولى صياغتها ، وأحال

إليه المسئولية ، ولكن العصابة كانت تعرف أن الخبير مفلس ، وأن صاحب الصابون مليء فتشبثت به ، ودفع ثلاثة آلاف جنيه لوسيط من كبار الصحفيين !

ونجحت الحملة الإعلانية لنابلسي فاروق نجاحاً غير مسبوق رفع مبيعاته إلى ستة أضعاف ، ورفع سمعة صاحبنا بنفس النسبة ، فعهد إليه مصنع « قها للأطعمة المحفوظة » أن يصمم إعلاناته ، وظهرت في الصحف حملة شعارها « منتجات قها يحبها من ذاقها . منتجات قها ، لو ذقتها لعشقتها » .

وطلبت منه « دار الهلال » أن يقوم ببحث ميداني عن خصائص قراء مجلتي المصور والاثنين ، فكان أول بحث من نوعه في الشرق الأوسط ، واشترك فيه خمسة وعشرون مستقصياً من خريجي الدراسة المسائية ، تقاضى كل منهم ثلاثة جنيهات عن عمل استغرق ستة أشهر ، وتقاضى الأستاذ الذي أشرف عليه عشرين جنيهاً فلم تبلغ الأتعاب كلها مائة جنيه ! وكانت الجنيهات الثلاثة تغطي مصاريف الانتقال وبدل الطعام وكان على المشرف العام ــ ضمن المقاولة ــ أن يشرف على إخراج كتيب باسم « دليل المعلن » فيضع له التصميم ويكتب المتن .

وجاءته يوماً في أثناء البحث مندوبة تعمل في إعلانات الدار ، قالت إنها كلما تحدثت إلى معلن كبير في الإعلان حدثها في الغرام . وهي لا تريد أن تفقد ميزانيته الإعلانية ، ولا تريد أن تفقد نفسها . فما العمل ؟ ومكث صاحبنا يفكر .. ثم طلب منها أن تطلب منه موعداً لمديرها بحجة أنه يريد أن يفتش عملها . وذهب صاحبنا في الموعد ، فسأله عن مدى رضائه عن إعلاناته في المصور ، فأثنى عليها وعلى

مندوبة الإعلانات ، فانتهز المدير المزعوم هذه الفرصة وقال : « وسيزيد رضاؤك عن هذه الفتاة حين تعرف أنها مخطوبة ومشغولة بتربية إخوتها الصغار » . فانصرف المعلن عن ملاحقتها منذ هذا اليوم بعد أن رآها تلبس في أصبعها تعويذة يسمونها « دبلة » !

كان دخل صاحبنا من كل هذا النشاط الإعلاني لا يكاد يصل إلى عشرة جنيهات في الشهر ، ذلك أن المعلنين لم يكونوا يزنون أتعابه بميزان عمله ، وإنما كانوا يقدرونها بما يناسب مستواه ، وقد كان مرتبه عشرين جنيهاً ، فكان قميصه من قماش متين ، وحذاؤه ذا نعل سميك ومنديله من صنف رخيص . كان قادراً على أن يعلن عن السلع ، والخدمات ، وعاجزاً عن أن يعلن عن نفسه !

وتجمد له مبلغ كبير من مكافآت التدريس في الدراسة المسائية ، فذهب إلى الوزارة يطلب حقه ، ولكن موظفاً في المستخدمين أشار إلى أنه يريد مكافأة مقابل تسهيل الصرف ، فابتعد عنه صاحبنا ، ودخل إلى مدير المستخدمين ـ وكان من أصدقائه ـ فوعده المدير بأن يأمر بالصرف على الفور ، ودق الجرس فإذا الموظف نفسه هو الذي يدخل . قال له المدير : « لماذا لم تصرف مستحقات فلان ؟ » قال : « إن دراسة الإعلان تابعة للتعليم التجاري ، وإن كان مقرها في المعهد العالي فكافآتها مكافآت التعليم المتوسط ، والأستاذ يطلب صرفها على أساس الدراسات العالية» . ورأى المدير في هذا شبهة جدية تقتضي التريث فأبدى أسفه لصديقه . ولكن الصديق خرج فوجد الموظف في انتظاره . قال : « إذا دفعت لي ريالاً فإنك ستأخذ حقك الآن . وطأطأ صاحبنا رأسه ودفع الريال ، فإذا الإذن يصدر ! ماذا جرى ؟ لقد أخرج الموظف

من درجه فتوى من وزارة المالية بأن الدراسات التكميلية التي تعد لخريجي المدارس المتوسطة يكون حكمها حكم الدراسات العليا في المكافآت .

وانصرف صاحبنا والنقود في جيبه والقلق في نفسه : هل المبلغ الذي دفعه للموظف مكافأة أو رشوة ؟ إنه لم يطلب من الموظف إخلالاً بواجبه ، فكيف يكون رشوة ؟ ولم يقدم المبلغ بعد الأداء وإنما قدمه قبله ، فكيف يكون مكافأة ؟ وهل صحيح ما قرأه في إدارة الأعمال من أن المدير قد يرشو لمصلحة ، ولكن ليس من حقه أن يرتشي ؟ إننا إذا أبحنا الرشوة من ناحية فإننا نطلق قبولها من الناحية الأخرى . وهل قواعد الأخلاق مطلقة لا تعترف بقصد أو بظروف ؟ إن كانت كذلك فهي لا تتصل بدنيانا التي نعيش عليها ، وإن كانت تتشكل بحسب الملابسات فهي ليست قواعد ، وإنما هي اتجاهات توجه ولا تلزم .. واختصمت أفكاره فضاع صوابه !

على أن اهتمام صاحبنا بشئونه المالية لم يشغله عن المشاركة في الشئون العامة للتعليم التجاري ، فقد كان سكرتير اللجنة الاستشارية ، وهي التي كانت تخطط لهذا التعليم ، وكان رئيسها القانوني الكبير الدكتور أحمد عبد الرزاق السنهوري المستشار الفني للوزارة ، ومن أعضائها محمد صادق جوهر مراقب التعليم الفني وكان رجلاً عصبياً . ويظهر أنه كان بين الرجلين عداء ، فقد حدث بينهما نقاش في أثناء أحد الاجتماعات احتد فجأة ، فقام مراقب التعليم الفني ورفع مقعده في وجه المستشار ، ولكن المستشار لم يتحرك من مكانه ، وإنما قام أعضاء اللجنة يحولون بين المراقب والاعتداء ، ثم رفع الأمر إلى « نجيب الهلالي » وزير المعارف ، فاستدعى السكرتير ، وكان قد سجل النقاش كلمة

كلمة ، وسجل عبارات الأعضاء دون تصرف ، فكان لهذه الدقة في الرواية أثرها في تحديد المسئولية . وعرض المستشار الفني على صاحبنا أن يعمل مديراً لمكتبه ، ولكنه آثر البقاء في دنيا الإعلان .

ولما تخرجت أول دفعة في المعهد التجاري العالي أعلن صاحبنا عنها ، فأعد مجلداً جذاباً تتحدث كل صفحة فيه عن خريج ، فعليها صورته ودرجاته في الدبلوم ، ووزنه ولونه واللغات التي يحسنها ، والرياضة التي يمارسها ، ونوع العمل الذي يصلح له .. إلى غير ذلك من البيانات التي يبحث عنها رجال الأعمال . ودار بهذا المجلد على رؤساء مجالس الإدارة ، فكان يرشح الشخص المناسب للمكان المناسب ، ووظف الخريجين جميعاً .

لقد كان صاحبنا أول من درس الإعلان دراسة علمية في إنجلترا . وكانت هذه الدراسة مقصورة على الإنجليز وحدهم ، ولكن صاحبنا عرف أن الأمين العام لمجمع الدعاية التجارية كان قد أمضى مدة طويلة في السلك السياسي بالقاهرة ، وتعرف بزوجته فيها ، وأنجب منها ولده الوحيد ، فاستعان به على السماح له بالالتحاق بهذه الدراسة .

ولما زار جبرائيل تقلا صاحب الأهرام لندن في سنة ١٩٣٨ ، سعد بصاحبنا كثيراً ، وقال إنه لم يكن يعرف أن وزارة المعارف غيرت اتجاهها في قصر بعثاتها على دراسة الآداب واللغة الإنجليزية . وقص على صاحبنا قصة نشر الإعلانات عن الخمور لأول مرة في الأهرام . قال إن أحد الوكلاء زاره في مكتبه وعرض عليه حملة إعلانية عن الويسكي بثلاثة آلاف جنيه ، وكان هذا مبلغاً يسيل له لعاب أي ناشر في ذلك الوقت فاستشار رئيس تحريره داود بركات ، فقال

إنه شخصياً يحب الويسكي ، ولكنه يخاف أن يهجم الجمهور في الصباح على مكاتب الأهرام ويرجمها بالحجارة . وأخيراً رأى الثلاثة أن من الخير إشراك « المصري » في الحملة من باب الحماية ، فرحبت بذلك ولكنها طلبت إشراك « الجهاد » كذلك ، وكان صاحبها توفيق دياب في ضائقة مالية ، فسعد بهذا العرض أيضاً ، واتفقت الصحف الثلاث على أن تنشر الإعلان في يوم محدد . فلما جاء اليوم ظهرت الأهرام والجهاد بالإعلان ، وظهرت المصري خالية منه . لقد أضمر صاحبها أن يتخلف ليرى اتجاه الجمهور ، فإن غضب أفلت من غضبه ، وإن مرت العاصفة بسلام قال لزملائه إن سهواً حدث ، وإن المختص قد عوقب أشد العقاب .

والحق أن الإعلان بصفة عامة كان بالنسبة للتحرير كالعظم في اللحم ، وكان القراء ينظرون إليه كمجموعة مبالغات وأكاذيب . وساعد على ذلك أن الصحف كانت تبيع أعمدتها التحريرية . فتصبح إحداها لسان حال المضاربين على الصعود في بورصة القطن . وتصبح أخرى لسان حال المضاربين على النزول . بل إن من أصحاب الصحف من كان يشترك مع المضاربين بنسبة مئوية في الربح . وإذا كانت الدور الصحفية قد نهضت في الأربعينات ، فاشترت مطابع حديثة ، فإن معظم الفضل في ذلك يرجع لإعلانات البورصة .

وإذا كانت الصحف قد أثرت على حساب الناس ، فقد أثرى على حسابها أحد المعلنين . أراد أن يحصل على توكيل ثلاجات من إحدى الشركات الأمريكية ، فاشترطت الشركة لذلك أن يبيع في السنة الأولى ثلاجات بمليون جنيه ، ولم يكن يستطيع ذلك ، فجاء

إلى صاحبنا وعرض عليه أن يشتري منه في صحف شركة الإعلانات الشرقية مساحات إعلانية بثلاثين ألف جنيه مقابل ثلاجات ، وطلب خصماً قدره ٣٠ ٪ لأن الإعلانات ستنشر في أشهر الصيف ، ثم ذهب إلى الأهرام فعرض عليه ثلاثين ألفاً أخرى بنفس الشروط ، واشترى مساحات من باقي الصحف حتى بلغ مجموعها مائة ألف جنيه .

وضجت القاهرة والإسكندرية بنحو خمسين مندوباً من مندوبي الإعلانات في سياراتهم يبيعون ثلاجات هذا المعلن ، ويؤكدون للناس أنها أحسن ما في السوق . وكان المعلن قد اتفق مع الشركة على أن تمنحه عمولة قدرها ٤٠ ٪ وأن تتحمل ١٠ ٪ من ثمن البيع كمساهمة في الإعلانات ، فطلب من الصحف أن تعطيه فواتير بالقيمة الكاملة قبل الخصم ، وحصلها بالكامل من الشركة . ونجح المعلن في بيع ثلاجات بمليوني جنيه لا مليون واحد ، أخذ من ثمنها أكثر من النصف. وسخر مندوبي الصحف في عمل الدعاية لثلاجاته فأصبح سهلاً عليه أن يبيعها في السنوات التالية .

وكان لهذا المعلن منافس يبيع الأدوات المنزلية من ثلاجات وأفران وسخانات ، ولكنه لم يكن في مقدرة الأول ، فلجأ إلى طريقة غير أمينة هي أن يطلب الإعلانات في جرائد الشركة بالتليفون دون أن يمضي عنها أوامر نشر ، وظل يماطل في الدفع حتى تراكم عليه نحو ألف جنيه . فلما طالبته الشركة بها أنكر أنه طلب نشر الإعلانات ، ووقع المندوب في حيرة أمام الإدارة . وأخيراً هداه تفكيره إلى حل .. لقد كان هذا المعلن قد تعاقد مع الشركة على الإعلان له على لوحاتها في الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية لمدة سنة تتجدد من تلقاء

نفسها ما لم يخطر أحد الطرفين الآخر بإنهاء العقد الأصلي أو المجدد قبل نهايته بثلاثة أشهر . وأنهى المعلن العقد فعلاً بعد السنة الأولى ، ولكنه لم يرسل خطاباً مسجلاً وإنما اكتفى كعادته بإخطار تليفوني فرفعت الشركة اللوحات وأودعتها مخازنها ، ومضى على ذلك ثلاث سنوات . ولكن المندوب أخرج اللوحات من المخازن وأرسلها في شاحنة في جوف الليل إلى جوف الصحراء وعلقها في أماكنها الأولى ، ثم أرسل خطاباً مسجلاً إلى المعلن ينذره فيه « بدفع ما تراكم عليه من إيجار اللوحات برغم المطالبات الكثيرة من جانب الشركة والوعود الكثيرة من جانبه » ، ويهدده بأنه إذا لم يدفع في ظرف أسبوع فسيرفع اللوحات ويقيم دعوى بالمبلغ وفوائده ، وكان يزيد على المستحق عن إعلانات الجرائد ، فجاء المعلن صاغراً ودفع ما عليه بعد حكم صدر بإدانته .

لقد كان المندوبون يتذرعون بكل وسيلة لبيع المساحات الإعلانية كان مندوب يستهدي أحد المعلنين ما يبيعه من حلاوة حمصية وسمسمية ليوزعها على عملائه من المعلنين الآخرين في مولد النبي . وكان آخر يشتري مفكرات فاخرة في مستهل السنة الميلادية ثم يكتب عليها من الداخل اسم صحيفته بخط رفيع ليزيل عن عملائه حرج تقبلها حين يقدمها لهم كهدايا . وكان ثالث يستقصي أحوال عملائه ، فإذا عرف أن عند أحدهم مريضاً استأذن في أن يدعو له طبيباً صديقاً مع أنه سيدفع له الأتعاب فيما بعد . وقد روى أحد المندوبين لصاحبنا أنه حاول غير مرة مقابلة أحد المعلنين فلم تمكنه السكرتيرة من ذلك ، وكانت نزيهة فلم يستطع أن يرشوها ، ولكنه لاحظ أنها عانس كبيرة السن ،

فتودد إليها وغازلها فهيأت له عند المدير ما أراد .

ويذكر صاحبنا أنه كان يدفع لسكرتير أحد الباشوات من كبار رجال الأعمال نسبة صغيرة من إعلانات الباشا مقابل أن يحصل لصحفه على نصيب الأسد منها . وفي يوم طلب منه السكرتير أن يشكوه للباشا على سبيل التعمية ففعل ذلك ، وطلب الباشا سكرتيره على الفور ، فعنفه ، وألح عليه أمام صاحبنا أن يكون دائماً في خدمة المصري . وأنشأ السكرتير يشكو من معاملة مدير المصري ، ويقول إنه لم يفلح في كسب مودته برغم تفانيه في خدمته . وانصرف صاحبنا فخرج معه السكرتير يودعه ويشكره على هذه التمثيلية ويهنئه على إجادة التمثيل . وبعد يوم سأله صاحبنا عن رد الفعل عند الباشا بعد الزيارة فقال إنه طلبه بعد قليل وأفهمه ألا يعبأ بما سبق أن قاله له ، فهو مجاملة لصاحبنا ، وعليه أن يسير في طريقه كما يرى !

وكان هذا الباشا يشطب كسور الألوف من الجنيهات من فواتير الإعلانات ، فكانت الصحف تزيد أسعارها ليبقى حقها كاملاً بعد الشطب . واستمرت في زيادة أسعارها حتى أصبح الباقي يزيد كثيراً على المستحق ، وفي يوم جاء مندوب شركة الإعلانات لدى الباشا إلى صاحبنا يعرض نزوله عن عمولته مقابل ما يزيد على حق شركة الإعلانات الشرقية بمقتضى التسعيرة ، فلم يتردد صاحبنا في الرفض !

وقد كان هذا الباشا رئيساً لأحد الأندية الرياضية ومغرماً بكرة القدم إلى حد بعيد ، فكان المندوبون يتوددون إليه عن طريق التحزب لهذا النادي ضد ناد آخر ، وكانوا يبتعدون عنه إذا انهزم النادي ، لأنه

يكون في حالة نفسية سيئة ، ويقبلون عليه حين ينتصر النادي ، فيدفع لهم قيمة الفواتير كاملة .

وكان هذا الباشا على خلاف مع وزير من وزراء التموين في وزارة الوفد ، بشأن تسعيرة السكر ، فأراد الوزير أن ينشر بياناً في الصحف للتشهير به ، فاعتذرت الأهرام عن نشره رعاية للباشا ، وقبلته « المصري» بحكم كونها لسان حال الوفد ، فانتهز صاحبنا الفرصة وأعطى الباشا صورة من البيان ليرد عليه في اليوم نفسه ، وتمكن بذلك من تحصيل عشرة آلاف جنيه كانت على الباشا ثمن إعلانات . وثار الوزير ، وأراد أن يمنع الرد ، وانضم له رئيس التحرير ، ولكن صاحبنا تذرع بحرية النشر فكان له ما أراد .

وقد كان أحد المعلنين فخوراً بثرائه العريض ، يصرح بأنه يحترم الشخص بمقدار ما يستطيع الإمضاء عليه من أصفار إلى يمين الواحد الصحيح . عرف المندوبون ذلك فكانوا يبالغون في هذا الثراء ليورطوه في الإعلانات . وقد كان عليه يوماً ثلاثة آلاف جنيه لأخبار اليوم ، فطلبه صاحبنا بالتليفون وقال : « يا صديقي إذا لم تدفع فسأثقل عليك بالزيارة فتضطر لاستقبالي وإضاعة خمس دقائق من وقتك الثمين ، والناس يعرفون أن دقيقتك بألف جنيه ، فتكون الخاسر في النهاية .. » وضحك في اعتزاز ثم استدعى رئيس حساباته وأمره بإعداد الشيك .

وكان معلن آخر مغرماً بالقهوة السادة ، يسخر من عملائه الذين يطلبون « سكر زيادة » ويقول إنهم أطفال أولى بهم أن يشربوا «شربات» فكان المندوب يتحرى أن يطلب فنجان قهوة « سادة بن محروق » ، ليدخل السرور على عميله .

ويذكر صاحبنا أن مندوباً كان قد تناول عشاءه في منزله ، فلما خرج التقى بأحد المعلنين الكبار ، وكان يحاول عبثاً مقابلته في مكتبه ، فدعاه المعلن للعشاء ، ووعده بإمضاء العقد ، فلم يتردد المندوب في قبول الدعوة ، وتعشى للمرة الثانية . ثم عاد إلى منزله وفي يده عقد وفي معدته اضطراب !

كان صاحبنا يطلب إلى مندوبيه أن يشكلوا أنفسهم بما يقتضيه التعامل مع كل معلن . وقد شاءت الأقدار أن تسوق إليه قضية كبرى يتصرف فيها بالإعلان . ذلك أن جريدة مصر الفتاة هاجمت شراب الببسي كولا وشراب الكوكا كولا في سنة ١٩٥٣ فادعت أن فيهما مادة البيبسين وهي نجسة من دم الخنزير . وسارع مستشار الببسي كولا بالحصول على شهادة من معمل كيماوي شهير قدمها لمفتي الديار المصرية فأصدر بناء عليها فتوى بأن شرب الببسي كولا حلال . ونشرت هذه الفتوى في الصحف فهوت المبيعات إلى ربع رقمها قبل الفتوى !

أما الكوكا كولا فقد لجأت إلى محاميها الأستاذ سابا حبشي فأشار برفع دعوى عاجلة أمام المحاكم وأكد ثقته في الحصول على تعويض لا يقل عن مائة ألف جنيه .

ولكن صاحبنا ـ وكان عضواً منتدباً لشركة الإعلانات الشرقية ـ لم ير في هذا الاتجاه فائدة لأن التقاضي يفسح المجال لمزيد من النشر فيقضي على ما بقي من المبيعات . وإذا صدر الحكم بالتعويض بعد سنتين أو أكثر فسيستأنف وينقض ثم يكون على أحسن الفروض قذيفة في الهواء ما دامت الجريدة خالية الوفاض . وقرر أن القانون لا يسعف الكوكا كولا وإنما يسعفها الإعلان .

وفي الصباح ظهرت إعلانات كبيرة في الصحف نصها :

اشرب كوكاكولا

الشراب النقي الطاهر

وهي عبارة تتفادى مواجهة الحملة المعادية ولكنها ترد عليها بطريق غير مباشر .

وكان عيد الفطر على الأبواب فاجتمع شيوخ المحكمة العليا الشرعية ليحددوا أول أيامه بناء على رؤية شاهدي الهلال فانتهز صاحبنا هذه الفرصة وقدم صندوقاً من الكوكاكولا دون مقابل لبوفيه المحكمة وطلب إليه أن يقدم منه للقضاء ففعل ، وكان المصور جاهزاً فصوب آلة التصوير إلى الزجاجات وهي مرفوعة بحسن نية إلى أفواههم . ووزعت صور الجلسة على الصحف فنشرتها بحسن نية أيضاً أو بنية التعاون مع الكوكاكولا .

وكان إلى جوار المستشفى الفرنسي بالعباسية (مستشفى القوات الجوية الآن) كشك يبيع المشروبات الخفيفة ، وكانت الممرضات يترددن على هذا الكشك . فأوقف صاحبنا مصوراً على مقربة منه حتى جاءت ممرضة حسناء فصورها بالألوان وهي تشرب الكوكاكولا وظهرت الصورة على غلاف إحدى المجلات الأسبوعية ومن تحتها هذا العنوان « حسناء تروي ظمأها » وكانت الزجاجة تملأ الغلاف !

وكان محمد نجيب رئيس الجمهورية وقتذاك يكثر من زيارة المعاهد والمستشفيات والشركات فيلتف حوله الطلاب والعمال . وكان مندوب الكوكاكولا يتابع زياراته ويوزع الزجاجات من حوله . فكانت أخباره

تظهر كل يوم في الصحف وهي مملوءة بصور الكوكا كولا .

وفي مولد الحسين والسيد البدوي والسيدة زينب وغيرهم من أولياء الله كان مشايخ الطرق الصوفية يظهرون ومن حولهم الجمهور وهو يشرب الكوكا كولا في إصرار دون أن ينتبه للغرض المستور . فقد كان مندوب يوزعها عليهم بالمجان وهو يقول « اشرب وصلي على النبي » ثم تدس الصور مع أخبار الموالد في الجرائد والمجلات .

وأخيراً رسب في أعماق الناس انطباع بأن ما ينشر في الإعلانات من أن الكوكا كولا شراب نقي طاهر يؤيده الواقع ما دام قضاة الشرع يشربونها ، ورجال الطرق الصوفية يشربونها ، والممرضات يشربنها ، والطلاب والعمال يقبلون عليها . لقد نسي الجمهور ما قيل عنها وأقبل عليها من جديد فعادت المبيعات سيرتها الأولى .

وهكذا أجهدت جريدة مصر الفتاة نفسها في مهاجمة الكوكا كولا فزادت الكوكا كولا مخصصات الدعاية وكان هذا كافياً !

ويذكر صاحبنا أن مدير الإنتاج وجد البيبسي كولا مصرة على عدم الإعلان على تخشيبات الشركة ، فوضع بالمجان لوحة للإعلان عن الكوكا كولا أمام الطريق المؤدي إلى مصنع البيبسي كولا بالهرم . وفي اليوم التالي كان مدير البيبسي كولا في مكتب صاحبنا يحتج على عدم رعاية الذوق في اختيار المكان فأظهر صاحبنا اقتناعه بهذا المنطق وأمر برفع اللوحة ، فرأى المدير رداً على هذه المجاملة أن يعطي الشركة عدداً كبيراً من الملصقات !

هكذا كان حال الإعلان في الأربعينات وأوائل الخمسينات فهل حاله الآن أحسن ؟

إن صاحبنا لم يقدم الجوانب المضيئة من الإعلان في العهد الماضي، مع أن الإعلان قدم خدمات كثيرة للنظام الاقتصادي الذي كان قائماً ، وهو يقدم اليوم خدمات أكبر للنظام الاشتراكي ، ولكن بعض الكتاب الاشتراكيين ينادون بإلغائه كوسيلة للبيع لأنه يؤثر في حرية الصحف في النقد .

إن الإعلان في جميع بلاد العالم يؤثر على التحرير في الصحف الضعيفة . وهو في مصر لم يعد أداة من أدوات التسويق بقدر ما أصبح وسيلة لتهنئة الوزراء عند تقلد مناصبهم ، وللثناء على المشرفين على القطاع العام كلما افتتح واحد منهم قسماً أو فرعاً جديداً .

ولكن هذه الأخطاء في التطبيق تشبه أخطاء الذين يعبرون الطرقات في غير أماكن العبور فتداهمهم السيارات . والعلاج ليس في منعهم من مبارحة منازلهم وإنما هو في تنبيههم إلى واجبهم .

إن الإعلان إذا كان يتملق المعلن ليزيد حصيلة الإعلانات فإن التحرير قد يتملق القارئ ليزيد حصيلة التوزيع ، والخطأ في الحالتين في التطبيق لا في المبدأ ، وإذا كان التحرير هو أخبار السياسة والاجتماع فإن الإعلان هو أخبار السلع والخدمات ، والجمهور في حاجة إليهما جميعاً .

إن صاحبنا كتب في جريدة المصري في الأربعينات يدعو إلى إنشاء اتحاد للإعلان يجمع المعلنين والناشرين ووكالات الإعلان ،

ويعمل على تقنين الإعلان . وقد تمكن أخيراً من إنشاء المركز العربي للبحوث والإدارة (اراك) لجعل البحث والاستقصاء أساساً للتسويق ، فنجح في هذا نجاحاً ملحوظاً .

وصاحبنا إلى هذا يعتقد أن الإعلان هو فن التعريف ، والتعريف ضروري في النظام الاشتراكي ضرورته في النظام الرأسمالي .

إن ثمن النسخة من الجريدة أو المجلة لا يغطي نفقاتها ، فلم يبق إلا أن تغطي الفرق بالإعلان أو تنقص عدد الصفحات إلى أربع كما تفعل برافدا في موسكو ، أو تتقاضى من الحكومة إعانة فتصبح كالوقائع المصرية في القاهرة . أما الأخبار والثقافة العامة والاستطلاعات والصور فهذه لا محل لها جميعاً إلا إذا رفع ثمن النسخة إلى مثل ثمن الكتاب .

ولماذا تحرم الإعلانات في البلاد الاشتراكية ؟ أليس في هذه البلاد سلع متنافسة ؟ وأليس من حق الجمهور أن يعرف خصائص كل منها ليختارها في كل حالة بخصوصها ؟

أمخطئ هو في هذا الاعتقاد أو مصيب ؟ من يدري !

في الرّوب الجَامِعيّ
١٩٤٢

هذه هي المرة الأولى التي يعمل فيها صاحبنا خارج القاهرة . نقل زملاؤه جميعاً إلى الأرياف بعض الوقت . وبقي هو في مدرسة التجارة بالظاهر حتى سافر منها إلى إنجلترا ، ثم عاد من لندن إلى معهد التجارة العالي بالقاهرة . ذلك أنه كان يعمل في لجان التخطيط فيقوم بإعداد محاضرها وتقاريرها ، وكانت مراقبة التعليم التجاري تؤثر الاحتفاظ به قريباً منها لهذا الغرض .

وها هو ذا يسافر إلى الاسكندرية للبحث عن مسكن يناسب مركزه الجديد ، فقد أصبح مدرساً في جامعة فاروق ، والمدرس في الجامعات يحمل عند النداء عليه لقب أستاذ ، والأستاذ يحمل في الحديث لقب دكتور . صحيح أن المرتب ثلاثة وعشرون جنيهاً تخصم منها الضرائب فيبقى عشرون ، ولكن المركز الأدبي في الهيئة الاجتماعية كبير ، والسلطة التي في يد المدرس تطوع له أن ينجح طالباً ويسقط آخر دون أن يكون عليه رقيب إلا ضميره ، وقد انتهى عهد المفتشين الذين يزورونه فيكتبون التقارير عنه ، أصبح سيد نفسه يقول في إدارة الأعمال ما يشاء ، ويبدي رأيه الشخصي في نظريات العلماء وتجارب الأولين . وإذا كان الناس يقيسون أموالهم في البورصات فإنهم يقيسون معارفهم في الجامعات . وصاحبنا لا يستطيع المكاثرة بماله ، فليكاثر بمكانته العلمية . إن في إمكانه أن يقترض مجلداً باللغة الإنجليزية من

مكتبة الكلية ، ثم يمضي به إلى ترام الرمل ، فإذا الراكبون جميعاً ينظرون إليه في احترام !

وفيما هو يفكر في ذلك جاءه مندوب الجامعة يطلب ستة جنيهات. قال لماذا ؟ قال المندوب : إن حفل الافتتاح قريب ، وقد أعدت الجامعة « أرواباً » لأعضاء هيئة التدريس يتكلف الواحد ضعف هذا المبلغ ، فدفعه متأففاً لأنه يرهق دخله ، ودفعه سعيداً لأنه يجسد أحلامه.

وتوالت حفلات الافتتاح ، فحضر الملك فاروق الحفل الكبير ، ثم أقيم آخر حضره النحاس باشا والوزراء ، ووقف فيه طه حسين مرحباً بوصفه مدير الجامعة فقال :

« سيدي الرئيس

« هذه الجامعة لما تبلغ من العمر سنة واحدة ، فهي أصغر من أن تقوم بشكرك ، ولذلك أقوم عنها بهذا الشكر . وأنا أعرف أنك تكره الثناء ، ولكني أحب أن أتحدى السلطان ، فأشكرك بالرغم منك لأنك أنشأت هذه الجامعة ، ولم تتركها لوزير المالية . إن مهمة وزراء المالية في جميع العهود أن يقولوا : (لا) ولكن كامل صدقي لم يستطع أن يقولها هذه المرة » .

وكانت كلية التجارة في « سراي » عمر طوسون بالمحمودية ، وهي « سراي » مهجورة منذ سنين ، والثعابين تمرح فيها بوضع اليد ، فترى في دخول الآدميين اعتداء يستحق المعاقبة بالسم ، ولذلك كان الأساتذة يتلفتون وهم يسيرون ، ويجزعون لأي شيء ناعم ، فقد يكون ثعباناً .

وعجزت إدارة الجامعة عن مقاومة الثعابين ، فاقترح عليها صاحبنا

ـ وهو من الشرقية ـ أن تستقدم شيخاً من الرفاعية ليستخدم نفوذه الروحي في مكافحتهم ، ولكن مسئولاً في الجامعة سخر من هذا الاقتراح أمام الأساتذة ، وقال إنه لا يضن بالتكاليف ، وهو يعرف أنها يسيرة ، ولكنه يضن بسمعة الجامعة أن تلجأ للشعوذة ولدى أساتذتها من وسائل العلم ما هو أولى بالتطبيق .

ولكن الثعابين استمرت تسخر من علم الجامعيين وتهاجم طلاب الجامعة ، فلم يجد المسئول في النهاية بدأ من أن يجرب شيخ الرفاعيين . وجاء الرجل فوقف على مرتفع صغير ، وبدأ يدير في فمه بعض التعاويذ ثم يرسل فحيحاً خاصاً فإذا الثعابين تأتي بسرعة إليه . وكان الثعبان يرفع رأسه ، فيتناوله الشيخ بيده ، ويضغط على رقبته ، فيفتح فمه ، ويخلع الشيخ أسنانه ، ثم يضعه في قفة معه . وتجمع في القفة أكثر من عشرين ثعباناً جاء بعدها للمسئول ليتقاضى عن كل منها خمسة وعشرين قرشاً .

واستدار الأساتذة في حلقات بعد ما شهدوه . قال بعضهم إن الشيخ من ذوي الكرامات ، وقال آخرون : « كلا في الفحيح الذي يرسله نداء يستجيب له الثعبان ! » ولكنهم انتهوا جميعاً إلى أن الباحث لا يصح أن يستمد المعرفة من علمه فقط ، وإنما يستمدها من جهله كذلك . وانتهز صاحبنا فرصة هذا الحديث فأراد أن يعيد لنفسه اعتبارها فقال : « لو ذكر طالب في العام الماضي أن الذرة تتفتت لأعطيناه صفراً ، ولكن الأمريكيين فتتوا الذرة ، وها هم أولاء يستخدمون القنبلة الذرية في هيروشيما » .

وانصرف صاحبنا لعمله فأكب على قراءة المراجع في إدارة

الأعمال . وساعده على التفرغ أن لم يكن له ولا لزوجته صلات في الإسكندرية . كانت التسلية الوحيدة لهما أن يمشيا على « الكورنيش » حتى ميدان الرمل ذهاباً وجيئة لا تقطعهما إلا جلسة قصيرة في مقهى يتناولان فيه مشروباً خفيفاً .

كان صاحبنا في شرخ شبابه لا يخطر بباله أن المرض قد يقترب منه ولكنه عاد يوماً إلى بيته فأحس أن له اذنين ، وهذا الإحساس معناه أنهما مريضتان . وأشارت عليه زوجته ، أن يضع فيهما مرهماً لزجاً جربته من قبل فأفاد ، وأن يضع أذنيه بالتبادل على قربة ماء ساخنة ، ففعل ، وفي الصباح قام من نومه أصم حتى إنه وضع ساعته على أذنه فلم يسمع دقاتها . .

وذهب إلى عميده يستغيث به فأشار عليه بأن يدخل مستشفى الجامعة ليتولى علاجه أستاذ الأنف والأذن والحنجرة بكلية الطب . وجاء الأستاذ ففحص أذني صاحبنا بالمنظار وقرر على الفور « أن الطبلتين مخروقتان والصديد يملأ الأذنين فلا بد من حقنة توقف التسمم » وأبدى استعداده لإجراء عملية جراحية في اليوم التالي .

ولكن صاحبنا لم يرتح للتشخيص فسافر إلى القاهرة وعرض نفسه على الدكتور محمد فطين . ومن عادة فطين أن يبدأ قبل الفحص بغسل الأذن بخرطوم فيه ماء دافئ . فلما فعل ذلك وقعت في الطبق قطعة قطن معجون وشعر صاحبنا على الفور بأن السمع قد عاد إلى أذنه فسأل فطين عما فعله ؟ قال : « ها أنت ذا ترى ولكن ماذا فعلت أنت بنفسك ؟ » فأنشأ صاحبنا يروي القصة من أولها . قال فطين : « لا بد أنك نظفت أذنيك يوماً فتركت فيهما شيئاً من القطن فلما التهبتا وضعت

فيهما المرهم ووضعت أذنيك على القربة الساخنة فساح المرهم وأحكم سد الأذنين وهكذا صحوت فلم تسمع . ونظر طبيب الإسكندرية فاختلط عليه المرهم الأبيض بالصديد فكان ما كان » .

وخرج صاحبنا من عيادة فطين فأرسل إلى زوجته هذه البرقية : « ظهر أن ليس في أذني صديد وإنما الصديد في عقل طبيب الإسكندرية » .

وفرضت ظروف العيش على صاحبنا أن يبحث عن عمل إضافي يدر عليه بعض الدخل ، فصار يكتب مقالاً شهرياً في مجلة « الغرفة التجارية » تنقده عنه جنيهاً واحداً . ثم رأى إعلاناً في الأهرام عن حاجة أحد المكاتب الأجنبية إلى مترجم يجيد اللغتين الإنجليزية والعربية ، فتقدم للوظيفة وأصبح يملأ حقيبته كل يوم بالرسائل الإنجليزية وهو في طريقه إلى المنزل فيترجمها إلى العربية ويعد لها الرد بالإنجليزية ، ثم يعود في الصباح فيقدم ما أعده للمكتب . وكان يتقاضى على ذلك خمسة جنيهات في الشهر .

ومن خلال هذا العمل تعرف بأحد الموظفين من الأجانب ، كان يريد تعلم اللغة العربية ويبحث عن زميل يعلمه إياها مقابل تعلم الفرنسية ، فراقت الفكرة صاحبنا ، وعرض أن يكون هذا الزميل .

كان الاثنان يسيران على « الكورنيش » ، فيحاول الأجنبي أن يعبر عن نفسه بالعربية ، ويحاول صاحبنا أن يرد عليه بالفرنسية ، وكانا يلقيان في التعبير عناءً كبيراً ، ولكن تعاونهما أثمر ، فالتقط كل من أخيه كثيراً من الكلمات والتعابير ، حتى أصبح يسيراً عليه أن يدير حديثاً باللغة الجديدة .

كان صاحبنا يود أن يقضي وقته في العلم وحده ، ولكنه اكتشف أنه بشر أولاً وأستاذ ثانياً . لا بد أن يجد حاجته من الطعام والكساء لكي يتسنى له أن يتذوق معنى العلم . ولذلك جعل يستعجل عميده لكي يحصل له على الدرجة الرابعة ، فهي ترفع مرتبه إلى خمسة وثلاثين جنيهاً مرة واحدة . ولما طال انتظاره طلب موعداً من مدير الجامعة .

قال لطه حسين : إنني أشغل وظيفة مدرس (أ) ولا أشغل درجتها .

فرد عليه قائلاً : « عميدك هو الذي ظلمك لأنه لم يتقدم بترقيتك في الوقت المناسب » .

ـ أنا لا أحب أن أنسب الظلم لعميدي فقد كان أستاذي .

ـ إذن من الذي ظلمك . أنا ؟

ـ لا . إنه حظي .

ـ إذن (أشكه للزمان) .

ـ وسعادتك ملك الزمان .

فضحك طه حسين ووعد بإنصافه .

وفي أول جلسة لمجلس الجامعة ، كان الدكتور حسين فوزي عميد كلية العلوم متقدماً بطلب ترقية لمدرس عنده ، ورأى طه حسين أن صاحبنا أكثر استحقاقاً منه ، فطلب من عميد كلية التجارة أن يقدم طلباً بترقية صاحبنا ، وأخذ عليه موافقة المجلس .

وهكذا كان طه حسين في عمله لا يخضع للروتين الحكومي ، ولكنه يفكر بعقل طليق ، فإذا اقتنع بشيء أقره ، ولو جاء مخالفاً للوائح . وكان مديرو المستخدمين والمخازن ورؤساء الحسابات يلقون

من هذا عناءً كبيراً لأنه يحطم قواعدهم ، ويكاد يعرضهم للمسئولية ، لولا أن طه حسين يترك لهم أن يسطروا على الورق اعتراضهم ، ثم يذيل ما كتبوه بكلمة « ولو » ويمضي .

كان طه حسين يدافع دائماً عن المنصب الذي يشغله . فلما كان عميداً لكلية الآداب كان السكرتير العام للجامعة في نظره « كبير الكتاب » . ولما تولى إدارة جامعة الإسكندرية كان القول قوله حتى إن أحد العمداء احتج في مجلس الجامعة على أمر يخص كليته ، فقال له طه حسين : « إذا كنت غير مقتنع بهذا الأمر ففي وسعك أن تستقيل من العمادة » . قال العميد : إذن أقدم استقالتي منها ، قال طه حسين : « واستقالتك مقبولة من الآن » . وهكذا دخل الرجل مجلس الجامعة عميداً وخرج منه مجرد أستاذ .

وقد استقل طه حسين بإدارة الجامعة فلم يكن يرجع في شيء من شئونها إلى وزير المعارف ، ولكنه حين أصبح وزيراً للمعارف سيطر على مديري الجامعات ، فأصبحوا يرجعون إليه في كل شيء .

وكان صاحبنا يعرف مع زملائه في طه حسين قوة الشكيمة ، حتى إن أحدهم ، وكان قريباً لأحد الوزراء ، جاء إلى صاحبنا يقول إنه قدم طلباً إلى إدارة الجامعة بإمضاء « أستاذ القسم » ، وكان في الحقيقة أستاذاً مساعداً ، فرد عليه طه حسين بخطاب يقول فيه : « إن هذا احتيال لا يليق بالعلماء » ، وإن الزميل قد أعد خطاباً إلى مدير الجامعة يقول فيه : « إن هذا القول جاف أرفضه وأحتج عليه » فقال له صاحبنا : « لو كتبت هذا فسيكون لطه حسين معك شأن » . ونصحه أن يغير الصيغة لتصبح : « إن هذا القول ماس لا أستطيع أن أقبله »

قال : « وما الفرق » ؟ قال صاحبنا : « إن كلمة جاف تنصرف إلى مدير الجامعة ولكن كلمة ماس تنصرف إليك ، والرفض كلمة إيجابية أما عدم القبول فهو سلبي » ! فاقتنع الزميل بالتغيير ، وتقبل طه حسين خطاب الزميل بصدر رحب ، بل استدعاه وطيب خاطره بعد أن وعد بالتقيد بلقبه العلمي الصحيح .

ثم سقطت وزارة النحاس وجاءت وزارة أحمد ماهر فاستقال طه حسين ، وجاء « صادق جوهر » . وكان رجلاً إدارياً ، فلما رأى صاحبنا يعمل في جريدة المصري مع عمله في الجامعة أرسل له خطاباً يحاسبه ، وكان صاحبنا قد أبرم عقداً مع صاحب المصري وصاحبي أخبار اليوم يوافق فيه على أن يستقيل من الجامعة ليتولى إدارة شركة الأخبار المصرية . وهي التي تضم المصري وأخبار اليوم وآخر ساعة . وكانت أخبار اليوم قد سعت له عند « عبد الرحمن البيلي » وزير المالية ليوافق على إحالته إلى المعاش ـ ولم تكن مدة خدمته قد جاوزت سبعة عشر عاماً ـ فطلب الوزير ملف الخدمة من الجامعة دون علم مديرها ، واستدعى « عبد الشافي عبد المتعال » رئيس اللجنة المالية ليجمعها ويقدم له قرارها بالموافقة . وبعد يومين اثنين عرض الوزير الأمر على مجلس الوزراء فأقره دون أن يكون مدير الجامعة في الصورة ، ورد صاحبنا على خطابه لينبئه بأنه ترك الجامعة ، وأنه يرجو لها في عهده كل تقدم وازدهار ! وأدرك « صادق جوهر » أن صاحبنا لا بد أن يكون من ذوي النفوذ ، فسعى إليه في كلية التجارة مودعاً ومبدياً أسفه على حرمان الجامعة من خدماته . ثم استدعى مدير المستخدمين ليلومه على إرسال الملف لوزير المالية دون الرجوع إليه ، فأفهمه هذا أن

« السراي » كانت وراء الموضوع ، وكان هذا كافياً .

لقد كان صاحبنا يتقاضى من الجامعة خمسة وثلاثين جنيهاً في الشهر ، فأصبح يتقاضى من الصحافة مائة وخمسين . وبعد أن كان يشتري الدجاجة فيشرحها تشريحاً ليتناول مع أسرته نصفها في يوم ونصفها في اليوم التالي ، وبعد أن كان يشتري بلحاً بانتظام حتى ينتهي موسم البلح ثم يأخذ يشتري الجوافة حتى ينتهي موسمها ، وهكذا يأكل الشيء نفسه من خضر وفاكهة يوماً بعد يوم ليدفع في الطعام أقل الأسعار . بعد أن كان يفعل هذا ، نقل مسكنه من العباسية إلى الزمالك ، ونقل أولاده من المدارس الأميرية إلى المدارس الخاصة ، وأصبح يتنقل في سيارته الخاصة بدل الترام ، ويقيم الولائم في منزله للمتعاملين معه من أصحاب الأعمال .

ورأى صاحبنا أن ينقل بيته إلى القاهرة وقد أصبح يقضي معظم أيامه فيها . فعثر على شقة مناسبة بالزمالك في عمارة كل سكانها من الأجانب ورجال السلك السياسي . وسأل عم محمد البواب عن الشقة فقال إن الخواجة فاسيليو وكيل مدام بنزايون ـ صاحبة العمارة ـ يطلب خمسمائة جنيه خلو رجل . قال صاحبنا : « هات يدك . لقد قبلت . ولكن كل ما تستطيع انقاصه من هذا المبلغ سيكون مناصفة بيني وبينك » . فقال الرجل : « الفاتحة للنبي » ووعده بالمساعدة .

وصار البواب كلما جاءه ساكن يقول إن الشقة قد سكنت ثم يقدم حساباً يومياً لوكيل العمارة فيدعي أن قاضياً شرعياً جاءه فعرض الخلو المطلوب ولكن له زوجتين وثمانية أولاد . وأن ساكناً آخر يرغب في الشقة وهو من رجال الأعمال ولكنه يعرض مائتي جنيه فقط ،

وأن ثالثاً من مشايخ الطرق يرغب في الشقة ولكنه ذكر أنه سيقيم فيها كل أسبوع حفلة ذكر ، وهكذا استمر في عرض نماذج غريبة من البشر حتى أحس أن اليأس قد تسرب إلى نفس الخواجة فاسيليو فقال له إن مدير جريدة البورص جاء اليوم يعرض ثلثمائة جنيه ــ وكان صاحبنا قد عين مديراً لشركة الإعلانات الشرقية ــ فرحب الوكيل بهذا المدير وأمر البواب أن يتصل به .

وجاء صاحبنا ليكتب العقد ويدفع الخلو ولكن الوكيل حين رآه أعرض عنه . ماذا ؟ لقد أسر البواب لصاحبنا فيا بعد أن الوكيل كان يظن مدير البورص من الخواجات فلما وجده مصرياً عدل عن الاتفاق قائلاً : « إن المصريين يكثرون من دق الكفتة » .

وذهب صاحبنا إلى مكتبه بشركة الإعلانات مكتئباً فقص القصة على زميله هنري حايم ونظر إليه ثم قال « دعني أعمل » وطلب مدام بنزايون في باريس على الفور وأنبأها بأن وكيلها رفض إسكان مدير المصري ، والمصيبة أنه علل الرفض بأن المدير مصري ثم حذرها بأن الجريدة ستثير الموضوع على صفحاتها . وانزعجت مدام بنزايون فاقترح عليها حايم أن تسترضي صاحبنا بعرض الشقة عليه بدون خلو فجاءته برقية منها بهذا المعنى واستأجر الشقة .

وهنا نشأ الخلاف بينه وبين البواب « هل المستحق الآن هو نصف الفرق بين ثلثمائة جنيه وخمسمائة أو نصف الخمسمائة كلها ؟ » ولكن البواب رضي أخيراً بمائة وخمسين .

وبعد أن سكن صاحبنا في شقته الجديدة وجدها قريبة من نادي

الجزيرة فخطر له أن يتقدم لعضويته وكان الأجانب يدخلون النادي بغير حساب . أما المصريون فيمثلون أمام لجنة ثلاثية من الإنجليز تحكم على أشخاص المتقدمين بعد أن تسألهم عن الشهادات التي يحملونها واللغات التي يجيدونها والبلاد التي سافروا إليها والألعاب التي يمارسونها .. ورفض صاحبنا هذا الموقف الذليل في وقت كان فيه جميع مندوبي الإعلانات الأجانب ـ وهم يعملون تحت رياسته ـ أعضاء في هذا النادي دون أن يتعرضوا لمساءلة أو استجواب . وعلم صاحب المصري بالأمر فاقترح على صاحبنا أن يحصل من النادي على خطاب بطلب المثول أمام اللجنة ليجعل منه موضوع حملة صحفية . ولكن المشرفين على النادي تنبهوا آخر الأمر لما يدبر لهم فأرسلوا لصاحبنا خطاب ترحيب بعضويته .

على أن صاحبنا لم يترك الجو الجامعي ، فقد ظل يحاضر في الدراسات العليا بجامعة القاهرة ، ويشترك في مجالس كليات التجارة ، ولجان الجامعة . ويشرف على بعض رسائل الماجستير والدكتوراه .

ويذكر صاحبنا أنه اشترك في اللجنة التي وضعت برامج كلية الإدارة والمعاملات بجامعة الأزهر ، وكان الشيخ محمد أبو زهرة عضواً في اللجنة ، فاشترط أن تنبعث البرامج كلها من القرآن ، فيقول المحاضر : « وأذِّن في الناس بالحج » أي أعلن لهم ، ثم يتكلم عن الإعلان ، ويقول : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، ثم يتكلم عن السندات الإذنية ، واشتد الضيق بالأستاذ محمد الحاروني عميد كلية التجارة بجامعة القاهرة وكان عضواً في اللجنة فقال مستطرداً : « والنفاثات في العقد » ثم يتكلم عن الطائرات

النفاثة ! فثار الشيخ لهذا التعليق الساخر ، ووقف يعلن انسحابه من اللجنة ، ولكن صاحبنا تدارك الموقف ـ وهو محسوب على أهل الدين لأن والده منهم ـ فقال إنه لا يأتمن الأساتذة التجاريين على الدين ، وإنما يأتمن الشيوخ وحدهم عليه ، ولذلك يقترح أن تسير الدراسات التجارية والدراسات الدينية في اتجاهين متوازيين ، فدخل الأستاذ التجاري ليتحدث عما هو كائن ، ويدخل الأستاذ الشيخ ليتحدث عما يجب أن يكون . وهكذا انحلت العقدة واعتمدت البرامج .

وخرج صاحبنا من الاجتماع كارهاً تزمت الشيوخ وعدوان المحدثين . فليس من حق الشيوخ في رأيه أن يفسروا : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » على أن الآية تعني العلم بفروعه المختلفة ، فالواقع أن الدين قد نزل لتقنين العبادات والمعاملات ، ولذلك يتلقاه الناس بقلوبهم . وليس من حق المحدثين أن يقصروا أفهامهم على عقولهم ، فالعقول لا تحكم إلا بما تعلم ، والله يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . إن الدين أهداف والعلم وسائل ، وليس بينهما تنابذ ، فالدين يقول : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، والعلم يكتشف في كل يوم أنه ليس في حرب مع الدين .

لذلك فرح صاحبنا لقيام جامعة الأزهر ، وإن كان لم يفهم علة فصل البنات عن البنين في الكليات . إن الجنسين يختلطان في الطرقات والمتاجر والنوادي وسائر الجامعات . فلماذا لا ينفصلان إلا في جامعة الأزهر ومركز الشبان المسلمين ؟ في الجو النظيف ينفصلان ، وحيث لا رقابة يجوز الاختلاط !

إن صاحبنا طلب يوماً من أحد شيوخ الجامعة أن يحاضر أعضاء

الروتاري بفندق هيلتون في شهر رمضان ، فرفض الدعوة ، لأنه يعتقد أن أعضاء النادي من المتفرنجين ، وأن الفندق يقدم الخمر لرواده ! قال صاحبنا للشيخ : إن هذا ـ لو صح ـ يكون أدعى لإسماعهم كلمة الدين ، فأصر على أن يتشبه بالدجاجة التي ترقد على بيضها ، وأن يقصر إرشاده على منابر المساجد .. المساجد التي يؤمها المهتدون !

وكان صاحبنا يتأمل سير الجامعات الأخرى ، فيجدها كثيرة التغيير في مناهجها ، كأنما المناهج هي المسئولة عن انخفاض مستوى المتخرجين فيها . إن صاحبنا يشهد بأن العيب في البرامج المصرية كامن في إيصال ما في هذه البرامج إلى أذهان الطلاب ! إن الأستاذ يحاضر بضع ألوف منهم ، فلا يستطيع أن يتفاعل معهم بما يؤثر في سلوكهم الذهني . والطلاب لا يستطيعون متابعة المراجع الأجنبية لضعف مستواهم في اللغات ، فلم يبق أمامهم إلا كتاب الأستاذ ومذكراته . وقد رأى صاحبنا أن الكليات النظرية أمعنت في التخصص ، فكلية التجارة بها أقسام منفصلة للمحاسبة وإدارة الأعمال والاقتصاد ، وكلية الآداب بها أقسام منفصلة للاجتماع والتاريخ والجغرافيا والصحافة ، وكلية الاقتصاد بها قسم للاقتصاد وقسم للعلوم السياسية . وقد دعاه هذا إلى أن يستقصي مدى الترابط بين الوظائف التي يعمل فيها الخريجون والأقسام التي تخرجوا منها ، فإذا هو يكتشف أمراً خطيراً هو أن كثيرين ممن يعملون في المحاسبة هم من قسم إدارة الأعمال ، وكثيرين من رجال البيع العاملين في شئون الأفراد هم من أقسام المحاسبة ، بل إن من العاملين في الوظائف التجارية كثيرين من خريجي الحقوق والآداب ، ومن العاملين في التدريس كثيرين

من خريجي كليات التجارة ، كما أن المحامين يقبلون القضايا من كل نوع . لم كان كل هذا التخصص إذن ؟ أليس من الأفضل أن يكون التخصص في الدراسات العليا ، وأن تكون الدراسات في مرحلة البكالوريوس عامة شاملة ؟ ويل للطلاب من المتخصصين ! إن أستاذ المحاسبة يريد أن يجعل من كلية التجارة كلية للمحاسبة ، وأستاذ إدارة الأعمال يريد أن يجعل منها كلية للإدارة والمعاملات ، وهكذا يمعن كل منهم في ملء أذهان الطلاب بما يراه ضرورياً ، وهو في الحقيقة تزيد .

إن المطلوب في الجامعة هو تكوين طالب يفكر ويعبر ويعمل . وعن طريق التفكير والتعبير والعمل يغترف من الحياة ما يزيد معلوماته .

ثم ما هذا الإسراف في إعارة الأساتذة المصريين للجامعات العربية ؟ إن الجامعة المصرية فقيرة اليوم في عدد الأساتذة وهي في الوقت نفسه سخية على أخواتها العربيات بما يهدد التعليم الجامعي في مصر . وصاحبنا بقوله هذا لا يفرط في عروبته ، وإنما يحرص مع عروبته على مصريته .

هكذا يعتقد صاحبنا ، ولكن لعل رجل الأعمال قد تغلب فيه على رجل الجامعة .

الأستاذ في قصة صحفية

كان صاحبنا في بيته يطالع ، فإذا رجل يدق الجرس . وخرج يستوضح الأمر فإذا الرجل رسول من صاحب « المصري » ينقل رغبته في أن يلتقي صاحبنا على الفور . وكان الوفد في الحكم ، فكبر على أستاذ الجامعة أن يستدعى على هذا النحو ، فاعتذر بمشاغله وأصر على أن يكون اللقاء في اليوم التالي . وفي الموعد قابل الاستاذ محمود أبو الفتح ، فعرض هذا عليه أن يتولى تنظيم جريدته من النواحي الإدارية ، فقبل المهمة على أن يقوم بها في الإجازة الصيفية .

وفي منتصف يونيو سنة ١٩٤٣ كان صاحب المصري يجلس في مكتبه بشارع ضريح سعد منصتاً لمن حوله ، وكان الإنصات هو عمله الوحيد . أذناه تتجاوبان معهم وعيناه تتشاغلان عنهم . وبين دقيقة وأخرى يرفع بصره في وجوههم ، فكأنما يبعث من عينيه أشعة نفاذة تكشف ما في نفوسهم ، وقد يتصدق ببعض كلمات في أثناء الحديث فلا يرسلها إرسالاً ، وإنما ينبس ببضع مقاطع لا تحدد اتجاهه ، وإنما تخلق جوًّا من الموافقة أو من الاختلاف .

ودخل صاحبنا فإذا صاحب المصري يرحب به ، ويقبل عليه إقبالاً فهم منه الحاضرون أن بقاءهم لم يعد له محل ، فاستأذنوا منصرفين وخلا المكتب للاثنين .

قال صاحب المصري : « هل عندك مانع من مبدأ في أن تكون وفدياً ؟ » قال : « لا . ولكن طبيعتي تنفر من الحزبية بصفة عامة » . قال صاحب المصري : « أليس لك رأي محدود في سياسة البلد ؟ » قال : « إنني أبدي رأيي في الشئون العامة ، ولكنني لا أحترف السياسة » قال صاحب المصري : « ولكن السياسة هي السبيل لخدمة الوطن » . قال : « أعرف ذلك ، ولكنني أخدم وطني بعملي ، فالسياسيون كثيرون والفنيون قليلون ، وأنا أحب أن أبقى واحداً من القلائل » . فلم يعترض صاحب المصري على هذا الرأي ، بل أبدى استحسانه له ، ودعا صاحبنا للغداء معه في اليوم التالي .

وعلى المائدة شرح له مهمته الأولى . وقال : إنه على خلاف مع شركة الإعلانات الشرقية ، فهي تحتكر إعلانات المصري مقابل ثلثمائة جنيه في الشهر ، وهو يريد رفعها إلى أربعمائة ، ولكنها ترفض ، ويشجعها على الرفض أنه لا يستطيع إنشاء إدارة لبيع المساحات الإعلانية ، وطلب من صاحبنا أن يسعى إلى رفع المبلغ أو أن يعمل للاستقلال بإعلانات المصري عن الشركة .

ودارت بين صاحبنا والشركة مفاوضات شاقة نجحت في النهاية بفضل تقدير مديريها له منذ كان يحاضرهم في الإعلان ، وتأكدهم بسبب ذلك من أنه يعرف كيف ينشئ إدارة للإعلانات . وفي ضوء الأرقام أمكن زيادة المبلغ من ثلثمائة إلى سبعمائة جنيه ، فكان نجاحاً رفع أسهم صاحبنا في الجريدة .

وكان للجريدة عند سلطات الاحتلال البريطانية أربعمائة طن من ورق الصحف سبق أن أقرضتها إياها ، ولم ينجح صاحب المصري

في استردادها ، فطلب من صاحبنا أن يقوم بهذه المهمة . وذهب للسفارة البريطانية يطلب مقابلة المسئول ، فإذا سكرتيره من زملاء الدراسة . لقد كان طالباً معه في دراسة الإعلان بلندن ، وتصافحا في حرارة ، ثم سأله السكرتير عن طلبه ، فلما عرفه استجاب له على الفور ، وجاء الورق للجريدة فزادت أسهم صاحبنا ارتفاعاً .

ولم يكن لدى الجريدة في أعقاب الحرب إطارات للسيارات ، فطلب صاحب المصري من صاحبنا أن يسعى للحصول على إذن بأربعة ، وذهب إلى وزارة التموين يطلب مقابلة رئيس لجنة التوزيع ، فإذا هو أحد أنسبائه ، وإذا هو يجد القواعد لا تسمح بصرف الإطارات ولكنها تسمح بصرف سيارتين كاملتين من سيارات النقل ، وعاد صاحبنا بالإذن ، فارتفعت أسهمه إلى السماء .

سلسلة من الانتصارات لعب الحظ فيها دوره . وتمت كلها في أشهر الصيف الثلاثة ، يضاف إليها أن إدارة الجريدة بدا فيها روح جديد من التنظيم ، وتوزيع الاختصاصات ، فاعتزم صاحب المصري في نفسه أمراً ...

وجاءه صاحبنا يستأذن في السفر إلى الاسكندرية بعد انتهاء مهمته ففاجأه صاحب المصري قائلاً : « أنا أحب أن نستمر في العمل معاً » . وأطرق صاحبنا قليلاً يفكر ثم قال : « وأنا أرحب بذلك ، ولكنني لا أريد أن أترك الجامعة » . قال : « لك ذلك فمن الممكن أن أحصل لك على ترخيص منها بأعمال الخبرة في غير أوقات العمل » . ووعد بالتحدث في ذلك إلى مدير الجامعة .

وذهب صاحبنا إلى طه حسين يسأله : « هل تحدث إليكم صاحب

المصري في شأن الترخيص لي بالعمل معه كخبير ؟ » قال : « لا . ولكنه كلم نجيب (يقصد نجيب الهلالي وزير المعارف) ، ونجيب كلمني ، فقلت له : لا » . قال صاحبنا : « ثم ماذا ؟ » قال المدير : « هذا هو كل ما حدث » . فقال صاحبنا : « إذن فأنا آسف لأنني أضعت وقتكم . لقد ظننت أنكم موافقون » . قال : « يا سيدي أنا حريص على أن أغضب صاحب المصري ، فإنه يجمع المال من جريدته ثم لا يزكي عنه بالإنفاق على الثقافة العامة » . قال صاحبنا : « وهل الصحافة إلا تثقيف ؟ » . قال : « كلا إنها تجارة فيما يسلي الناس ولا ينفعهم » . قال صاحبنا : « يا دكتور إن عملي خارج الجامعة يتيح لي تطبيق ما ألقيه على تلاميذي من نظر » . فقبل منه ذلك وسمح له بالعمل . وأصبح لصاحبنا مرتب من جريدة المصري يبلغ ثلاثة أضعاف مرتبه من الجامعة ، ولذلك كان يقضي الأسبوع بين القاهرة والإسكندرية .

كان توزيع الجريدة يدور حول عشرة آلاف نسخة في اليوم ، وكان توزيع الأهرام يدور حول مائة ألف . وقد أغرى هذا مدير إعلانات الأهرام بأن يرسل خطاباً دورياً للمعلنين يقول فيه إن الجريدة الأولى في مصر ، وهي الأهرام ، تبيع مائة ألف نسخة ، ولا توجد جريدة ثانية ، بل لا توجد جريدة ثالثة . أما الجريدة الرابعة فتبيع عشرة آلاف نسخة . ورأى صاحبنا أن في هذا التهكم قذفاً واضحاً في حق المصري ، فأشار على صاحبه برفع دعوى بطلب التعويض .

واستشار صاحب الأهرام محاميه ، فأفتاه بأن المسئولية محققة . ولم يجد بداً من أن يقبل إرسال خطاب دوري يعتذر فيه عن خطابه

الأول ، وأن يرسل أصل الخطاب إلى المصري ، فجعل صاحبنا من هذا الخطاب نقطة الانطلاق في حقل الإعلانات .

وكان كلما جاء معلن إلى مكتب صاحبنا وجد عليه نسخة من الأهرام فيقول : « أراك من قراء الأهرام ! » ويرد صاحبنا : « أنا لا أستغني كقارئ عن الأهرام فإنه الجريدة الأولى » وبذلك يوفر على نفسه سماع ما سيقوله المعلن في الثناء على الأهرام والتقليل من شأن المصري ، بل قد يدفعه إلى شيء من المجاملة . ثم يضيف صاحبنا « إن الأهرام بحر فيه سمك كثير ، والمصري بحيرة فيها سمك أقل ولكنك كرجل أعمال تريد السمكين ، وسعر المصري مقسوماً على عدد قرائه أرخص منه في الأهرام » فيجد الرجل في هذا منطقاً مقبولاً ويمضي العقد .

وكانت الوفيات من الأبواب المهمة التي تنقص المصري فسعى صاحبنا للحصول عليها عن طريق موظف في قسم الإعلانات المبوبة في الأهرام . كان يتقاضى قيمتها ممن يحضرون للإعلان عنده ويحتفظ بها لنفسه ، ثم يرسل النص للمصري فينشره بالمجان . وكان صاحبنا سعيداً بهذا لأن من شأنه أن يغري المعلنين الآخرين بالحضور رأساً إلى مكاتب المصري ... ونجح الباب .

ثم جاء يوم تنبه فيه مدير إعلانات الأهرام إلى ما يجري ففصل الموظف . وجاء هذا إلى صاحبنا يطلب منه أن يهيئ له عملاً في المصري فاعتذر صاحبنا وقال له في صراحة : « إن المرأة التي تأخذ أجرها لا يحق لها أن تطالب بالزواج » .

تصرف لا يرضى عنه أبداً رجال الأخلاق . ولكن هيهات أن يعترض عليه رجال إدارة الأعمال فأين الحق ؟ إن صاحبنا يورد هذه الذكرى عارية ويعرضها كما هي على أهل الرأي .

كان بادياً أن توزيع المصري لا بد أن يرتفع إذا أريد للجريدة أن تنافس الأهرام ، والارتفاع غير ممكن ما دامت مواد الجريدة مقصورة على بضع مقالات تهاجم الأحزاب المعادية للوفد ، وتصف استقبالات النحاس (باشا) ، وعلى مقال أسبوعي عن المسجد الذي قصده فجأة لصلاة الجمعة . واستقبال المصلين له خارج المسجد وداخله .

كان من رأي صاحبنا أن القارئ يبحث عن الأخبار ، وهو يتطلب فيها السبق والصدق ، ولا يمكن أن يثق في المصري وهو يقرأ فيه أن عدد الذين حضروا خطاب النحاس (باشا) ثلاثون ألفاً مع أنه كان بينهم وقدرهم بثلاثة آلاف .

وكانت تجربة صاحب المصري مع الجامعي قد نجحت في الإدارة، فاتجه إلى جامعي آخر في التحرير . وأشار عليه صاحبنا بالدكتور محمد حسن الزيات المدرس بكلية الآداب ووزير الخارجية الآن . ولكن هذا قال إنه ليس وفدياً ، فانتقل الاختيار إلى زميله الدكتور محمد مندور .

وجاء الدكتور مندور فلفت أنظار القراء بمقالاته التحليلية القوية ، ولكنه رأى أن الجريدة تبتعد عن وفديتها ، فأسر بذلك للنحاس (باشا) ، وكانت زوجته حاضرة فنقلت القول لصاحب المصري ،

وساءت العلاقات بين المحرر وصاحب العمل حتى فصله فاستحق تعويضاً كبيراً حكم به القضاء .

وسافر صاحب المصري إلى أمريكا فاتفق مع صاحبنا على أمر بالغ الخطورة . قال : « إنني طلبت إلى سكرتير التحرير أن يعمل بتوجيهاتك في أثناء غيابي ، فحاول أن تخفف كثيراً من وفدية الجريدة ، ولكن حذار أن تصطدم بالنحاس (باشا) فيفصلها عن الوفد فتموت » .

وأصبح صاحبنا رئيساً للتحرير من وراء ستار . فقسم التحرير إلى إدارات ، ونظم مواعيد العمل في كل منها ، فأصبحت الجريدة تصدر مبكرة قبل الأهرام ، بل اشتغل بالصحافة الميدانية ، فأجرى أحاديث مع عدد من الوزراء ظهر فيها الصحفي نداً للوزير يناقشه ويحاسبه ، ثم حقق نصراً صحفياً غير مسبوق . جاءه يوماً موظف بالإدارة فأخبره أن محمود الدرويش وكيل وزارة المالية قدم تقريراً للنقراشي باشا رئيس الوزراء يتهم فيه أحد الوزراء باستغلال النفوذ ، وأن « الملك فاروقاً » طلب الاطلاع على هذا التقرير ، وهو معه ، وقال إنه يستطيع الحصول على صورة منه لقاء مائتي جنيه .

كان فاروق يتردد على امرأة بشارع قصر النيل فيتغدى عندها وينام بعد الطعام . وقد أدركت المرأة أهمية التقرير الذي وضعه الملك على منضدة بجانب السرير ، فاتصلت بالموظف ـ وكانت تعرفه ـ وعرضت أن تعطيه التقرير نظير مبلغ من المال ليصوره ويعيده قبل أن يصحو الملك من نومه .

وظهر المصري يوم السبت ـ وكان ينفرد بالسوق دون الأهرام في هذا اليوم من كل أسبوع ـ وعلى صفحته الأولى صورة زنكوغرافية للتقرير . فاضطرت الوزارة لتقديم استقالتها واتهم وكيل الوزارة بأنه هو الذي أعطى الجريدة التقرير ، فاضطر إلى الاستقالة هو الآخر .

وكان حسين أبو الفتح يقوم بأعباء رياسة التحرير عند غياب صاحب المصري في أوروبا . فجاءته يوماً برقية من محسن مؤمن مراسل الجريدة في بغداد يقول فيها إن الملك فيصل ـ ملك العراق ـ تقدم لخطبة الأميرة فريال ابنة الملك فاروق ، فنشر حسين أبو الفتح الخبر في الصفحة الأولى بعنوان « مصاهرة ملكية » . وثار فاروق لنشر الخبر واتصل بمحمود منصور النائب العام طالباً القبض على حسين أبو الفتح . ونفذ النائب العام ما طلب منه دون أن يدري السبب ، فذهب صاحبنا مع وهيب دوس المحامي إلى مقر التحقيق بباب الخلق فوجدا محضراً لم يتجاوز بضعة أسطر انتهى بحبس المتهم أربعة أيام تحت التحقيق . ودخل وهيب دوس على محمود منصور ـ وكان زميله في الدراسة ـ يسأله عن جلية الأمر . قال محمود منصور إنه لا يدري ، ولكنه ينوي أن يتصل بكريم ثابت ليعرف منه سبب القبض على حسين أبو الفتح .

وفي المساء جاء وهيب دوس إلى مكتب صاحبنا صاخباً هائجاً وقال : ما دمتم تلعبون بالنار هكذا فلماذا تشركونني معكم في مثل هذه الألاعيب ؟ قال صاحبنا مستفهماً : « ماذا يا وهيب بك ؟ » قال : إن كريم ثابت كان قد سافر إلى بغداد ومعه كلبة ملكية لتحمل من كلب ملكي في بغداد . وقد أراد حسين أبو الفتح أن يشير إلى هذه

الواقعة فنشر الخبر بعنوان « مصاهرة ملكية » . فنفى صاحبنا علمه بهذه القصة ، وذهب على الفور إلى النيابة يطلب مقابلة حسين أبو الفتح في السجن ، فدهش هو الآخر عند سماعها .

وأرسل كريم ثابت إلى سفير مصر في بغداد يطلب التحقيق ، فاستدعى مراسل المصري يسأله إن كان قد أرسل البرقية ، فأجاب بالإيجاب ، وقال إنه رأى كريم ثابت في بغداد بصحبة أحد رجال « السراي » فسأل هذا عن سبب مجيئه . قال : « إن هناك مصاهرة ملكية » ، وسارع المراسل إلى مكتب التلغراف فأرسل البرقية إلى القاهرة .

واتصل السفير برجل « السراي » فقال إنه كان يمزح ، ولم يدر بخلده أن المراسل سيأخذ الأمر مأخذ الجد ، ثم يكمل الخبر من عنده .

وهكذا كان صاحبنا يعمل في جو الإدارة الهادئ ، فأصبح يعمل في جوّ من التحرير متلاطم الأمواج ... وجاء يوم ...

... كان عنوان المقال الأسبوعي عن صلاة الجمعة ينشر ببنط ٥٢ على ستة أعمدة ، فلا يبقى في الصفحة إلا عمود واحد . وكان لدى صاحبنا إعلان على عمودين ، فأمر سكرتير التحرير أن ينشر العنوان على خمسة أعمدة ببنط ٣٦ وكانت الكارثة ..

جاء صاحبنا إلى مكتبه في الصباح ، فإذا التليفون يدق والعامل يقول : « رفعة النحاس باشا » وألصق صاحبنا السماعة بأذنه ليستمع ، فإذا صوت هائج يصرخ : « أين السيد أبو النجا . أين السيد ... » فرد صاحبنا « أنا يا رفعة باشا » ، فاستمر الصوت يتدفق : « يا واد

فين بقولك ، فين أبو النجا » ورد صاحبنا : « أفندم يا رفعة الباشا .. أنا أبو النجا » . فقال : « أنت بنط ٣٦ ؟ أنت جابوك منين ؟ تاجر يعمل رئيس تحرير ؟ » وأسرع صاحبنا إلى منزل الزعيم في جاردن سيتي ..

كان يجلس مع صبري أبو علم سكرتير الوفد ومع عدد من الشباب ، فلما دخل صاحبنا هاج الزعيم مرة أخرى قائلاً : « أنت دسيسة » فقال : « لا ، يا رفعة الباشا . أنا رجل فني ، انتدبني صاحب المصري من كلية التجارة لإصلاح الجريدة ، وأنا أعرف أن صاحب المصري لا يستطيع أن يخالفكم ، فكيف أخالفكم أنا ؟ » فهدأت ثورته على الفور ، وربت على كتف صاحبنا قائلاً : « إذن أنت أستاذ في كلية التجارة ! قالوا لي إنك تاجر ! طيب ولماذا جعلت المصري جريدة محايدة (!) فعقب صبري أبو علم قائلاً : « يا ريت ! إنها جريدة غير محاربة » فضحك النحاس (باشا) قائلاً : « ما دامت لم تعلن الحرب بعد فلا بأس » . وتأسف لصاحبنا بأن قبّل رأسه في عنف ثم دفعه بعيداً فلما أراد صاحبنا أن يستأنف كلامه قال النحاس (باشا) : « لا ، خلاص . أنا صالحتك » وقام يودعه حتى السيارة وأصر على الانتظار حتى انصرف .

وكان في الجريدة مفتش للتوزيع بعمامة ولحية مصبوغة ، كل مهمته أن يخطب في المساجد ، فيقول إن الأهرام جريدة مسيحية ، وإن المصري جريدة مسلمة ، وإن قارئي الأهرام كفار بنص القرآن والسنة ، ثم يشعل النار في ربطة من الأهرام ، ويدعو المصلين للتهليل والتكبير ، وبقي الأهرام واقفاً كالطود ، وبقي المفتش متعلقاً بأقدامه !

كان أول ما عمله صاحبنا أن طرد هذا المفتش ، وأعطى دار الهلال توزيع المصري في مناطق القاهرة والإسكندرية والوجه البحري ، مقابل أن تعطيه توزيع مجلاتها في الوجه القبلي . وكان يقصد بذلك أن تكون ممارسة التوزيع في الوجه القبلي مرحلة أولى تعينه على التوزيع في جميع المناطق فيما بعد .

وكان توزيع المصري من الجيزة إلى أسوان لا يتعدى ثمانمائة نسخة في اليوم . وكان المتعهد هو الحاج سطوحي . فلما استدعاه صاحبنا وأبدى له استياءه من ذلك ورد له تأمينه وضع الرجل المبلغ في محفظته واستأذن في الانصراف ولكنه قبل أن يجاوز الباب التفت خلفه إلى صاحبنا وقال : « يا بيه الجريدة الناجحة توزعها امرأة . السلام عليكم » .

ثم رأى صاحبنا أن يستزيد من الأنصار في مواجهة الأهرام ، فكون شركة للتوزيع بين المصري وأخبار اليوم ، وبذلك انتزع أخبار اليوم وآخر ساعة من أحضان الأهرام ، وباشر التوزيع في جميع أنحاء القطر .

وكان انحياز أخبار اليوم للمصري في التوزيع عربوناً لصداقة أكبر ، ففي أوائل سنة ١٩٤٦ اندمجت الداران الصحيفتان في دار واحدة .

ابن بطوطة بين الشرق والغرب
١٩٤٤

ما أسرع تقدم العالم ! حين سافر صاحبنا إلى لندن سنة ١٩٣٧ ، ترك القاهرة بالقطار إلى الاسكندرية ثم قضى في البحر أربعة أيام إلى مرسيليا ، ومنها انتقل بالقطار مرة أخرى إلى باريس ، ثم ركب قطاراً ثالثاً إلى كاليه ، ومنها عبر المانش إلى دوفر ، ثم استقل قطاراً رابعاً إلى محطة فكتوريا .

خمسة أيام كاملة وستة انتقالات كانت لازمة لقطع الطريق القصير إلى لندن . أما الطريق الطويل فقد كان يفضله كثيرون لسهولته فيركبون الباخرة من الاسكندرية ويبقون فيها أحد عشر يوماً لا يبرحونها إلا في الموانئ التي تتزود منها الباخرة بالوقود حتى تدخل بهم إلى لندن .

ولم تكد سبع سنوات تمر على الرحلة الأولى لصاحبنا حتى أصبح يركب الصعب ـ أي الطائرة ـ إلى لبنان وجنيف وفرنكفورت ومدريد وغيرها ، فيصل إلى هذه المدائن في ساعات . كان يركب الصعب لأن مواعيد القيام والوصول كانت مرهونة بسرعة الريح وحالة الجو ، ولأن سير الطائرات كان قطعة من العذاب ، فهي كثيرة الصعود والهبوط ، كثيرة التقلب والارتجاج ، حتى لكأنما تختبر الركاب في سلامة قلوبهم ، واحتمال معداتهم ، وهدوء أعصابهم .

ثم ظهرت الطائرات النفاثة فأصبح السفر متعة ، وقربت المسافات وانتظمت المواعيد فشجع ذلك صاحبنا على السفر إلى الهند وأندونيسيا ، وإلى السويد والنرويج ، وإلى نيويورك وشيكاغو ، وإلى طوكيو وهونج كونج ، وإلى ليبزج وموسكو . وقد اشتركت معه امرأته وابنته في كثير من هذه الرحلات .

وأول رحلة ركب فيها الطائرة كانت على إحدى طائرات شركة مصر للطيران إلى بيروت بدعوة من « رياض الصلح » رئيس الوزراء مع عدد من كبار الصحفيين المصريين ، يذكر منهم محمد عبد القادر حمزة نقيب الصحفيين ، وياسين سراج الدين صاحب النداء ، ونجيب كنعان مدير تحرير الأهرام . وكانت الصحف المصرية توزع في لبنان أكثر من توزيع الصحف اللبنانية نفسها .

كانت بيروت بلدة صغيرة فيها فندقان معروفان هما « سان جورج » و « نورماندي » . ولم يكن حي الحمراء حيًّا بعد ، ولم تكن الروشة إلا أدغالاً فيها محل الغلاييني للسمك يصطاده من البحر ويشويه أمام الرواد . وقد أراد « رياض الصلح » أن يكرم الصحفيين فرتّب لهم رحلة إلى الأرز ، وهناك تراكمت عليهم الثلوج وانسد الطريق فتعذر عليهم أن يعودوا إلا بعد أن أسعفتهم الحكومة بكاسحة أفسحت لهم بما يسمح للسيارات بالسير . ورتّب لهم رحلة أخرى إلى صيدا وهي بلدته ، ليشاهدوا « كازينو » جديداً كان هو يعتبره حدثاً كبيراً وفي إحدى الأمسيات كان « رياض الصلح » مدعوًّا إلى عرس ، فأطلق عليه أحد المواطنين الرصاص ولحسن الحظ أخطأه ، فجمعنا أنفسنا في الصباح وذهبنا إلى مكتبه لنقدم له تهنئتنا وشكرنا ،

وعدنا إلى القاهرة حيث كتب صاحبنا في المصري مقالاً بعنوان « كنت في لبنان » كما لو كانت لبنان في بُعْد اليابان . ثم توالت رحلاته بعد ذلك إلى الشرق والغرب .

وما دام صاحبنا قد وعد بالعري في ذكرياته فهو يشهد بأن الهند ليست بعيدة في تأخرها عن مصر . إن البقر يسير هناك في الشوارع بحرية كاملة ، وهو هنا قد يبيت مع الفلاحين في غرف النوم ، وقد يستمتع بحريته فيفرغ ما في جوفه أيضاً . والناس في الهند حفاة وهم في مصر حفاة . والمأكولات تعرض نفسها هناك وسط الذباب . وهي هنا تقوم بتقديم الميكروبات لطاعميها . لقد كان صاحبنا إذا أراد أن ينفي عن نفسه تهمة التأخر تساءل في استنكار : « هل تظنني هنديًّا ؟ » وهو الآن يرجو أن تبذل مصر مثل ما تبذله الهند في محاربة الجهل والفقر والمرض والطلاق وكثرة النسل .

وبالعري أيضاً يشهد صاحبنا أن « أندونيسيا » أكثر من بلاده تقدماً وإن كانت « جاكارتا » متأخرة عن القاهرة . إن الريف هناك جبلي بحري قليل التراب ، والناس منكبون على عيوبهم يعالجونها في إصرار ، والفقراء يجدون في الأرز والسمك طعامهم فلا يجوعون .

أما السويد والنرويج فأكبر نعمة فيهما قلة السكان مع وفرة الإنتاج . إن الطفل هناك ليس وليد المصادفة ، وإنما يتلقى دعوة من والديه بعد تدبر ، ثم يخرج من بطن أمه إلى غرفته ، وينام على سريره ، وينتقل في عربته ، ويتسلى بلعبه ، ويغالب الزمان بوثيقة تأمين . إن صاحبنا حين يتأمل هذه الطفولة السعيدة يقرنها بطفولتنا المشردة فيجد في كل غرفة نوم مصنعاً للأطفال يعمل في الظلام ،

فإذا وجد الطفل نفسه في الدنيا لم يجد سريراً في مستشفى ، ولا مقعداً في مدرسة ، بل لم يجد بيضة في الصباح أو كوباً من اللبن طول النهار .

وأول مرة سافر فيها صاحبنا إلى أمريكا كانت في سنة ١٩٥١ . كان مدعوًّا ضمن أربعين صحفيًّا من جميع أنحاء الدنيا ليشهدوا مصانع الولايات المتحدة وهي تعمل جميعها للسلام في عهد «ترومان» ، وكان كل مصنع يزورونه يقدم لهم هدايا من إنتاجه ، فأخذ كل منهم جهاز راديو وزوج أحذية وزجاجة ويسكي ... إلخ . ثم جاء موعد الزيارة لمصانع « فورد » فقضى كل صحفي ليلته ساهراً يفكر في نوع السيارة التي يختارها . وجاء مستر (فورد) فتحدث عن مصانعه وعن مبادئه الإنتاجية والتسويقية ، وافتتح المقصف الضخم ، ثم حان وقت تقديم الهدايا فإذا هي سيارات ... ولكنها للأطفال .

وكان الصحفيون قد تلاقوا في باريس فاتفقوا على أن يختاروا من بينهم واحداً عن أوروبا وواحداً عن الشرق الأوسط ليردوا على كلمات الترحيب التي ستلقى في الولائم . ووقع الاختيار فوراً على مندوب إنجلترا ليمثل أوروبا ما دام الرد سيكون بالإنجليزية . وأما انتخابات الشرق الأوسط فقد تعثرت طويلاً لأن البلاد العربية وهي مصر والعراق وسوريا تكتلت ضد البلاد الإسلامية الأخرى وهي الباكستان وإيران وتركيا . وتقدم زميل غير مسلم فاقترح ترشيح صاحبنا ووافق الجميع على الاقتراح فقبله صاحبنا حسماً للنزاع .

إن صاحبنا يذكر هذه الواقعة لأنها كانت أكبر مقلب شربه في حياته فقد أمضى ثلاثة أسابيع في الولايات المتحدة يقضي كل أمسية منها في غرفته بالفندق ليؤلف خطابين جديدين يرد بهما على خطابي

الغداء والعشاء في اليوم التالي ، وخطاباً إضافيًّا لحفلة كوكتيل محتملة ، بينما زملاؤه يمرحون جميعاً في المطاعم والمسارح والملاهي . إن مندوب إنجلترا كان يتكلم سليقة وطبعاً ، ولكن صاحبنا كان دخيلاً على الصنعة فكان عبئه ثقيلاً .

ووصلت الطائرة في طوافها إلى هوليود فرأى صاحبنا في المطار عجباً . لقد وقف على سلم الطائرة وفق ترتيب موضوع فظن أن الصحافة الأمريكية تريد التصوير أو أن التليفزيون يعد فيلماً قصيراً عن الرحلة ، ولكنه رأى على بعد وردة كبيرة على أرض المطار فظن أن خرفاً أصابه من طول السفر ، ثم رأى الوردة تتحرك وأوراقها تتساقط ، فتأيد الخرف في وهمه . ولكن سرعان ما ظهر أن الوردة مكونة من أربعين راقصة بعدد الصحفيين ، وقد أخذن يخلعن أرديتهن فلا يبقى على أجسادهن إلا ألبسة البحر . وقمن للرقص في تشكيل يأخذ بالألباب ثم جئن يتمايلن إلى الطائرة في صف طويل وتقدمت كل واحدة في دورها إلى ضيفها الذي عليه الدور فنادته باسمه الأول وأعطته قبلة وخطاباً . أما القبلة فعلى خده . وأما الخطاب فمن الفندق الذي سينزل فيه . ومسح صاحبنا آثار القبلة بمنديله بعد أن أدت مهمتها ثم فتح خطابه فوجد فيه هذه الرسالة :

عزيزي سيد

مرحباً بك في فندقنا . إن سريرك وضعناه في وسط الغرفة لا بجانب الحائط كما طلبت . وإفطارك من البيض المقلي دون أن يكون فيه خنزير . وشرابك من الشاي والعصير لا من الكحول . وأخذنا علماً بأنك تأوي إلى فراشك في العاشرة مساء وتتناول إفطارك في

السابعة صباحاً . وقد وضعنا لأوقات فراغك برنامجاً وفق ما تحب .

كل شيء معد حسبما طلبت في إجاباتك عن أسئلتنا التي أرسلناها إليك في القاهرة وإلى اللقاء .

مدير الفندق

ثم استقل المدعوون جميعاً سيارات رفعت من فوقها الأعلام ، وجلست فيها المضيفات مع المدعوين حتى وصلت السيارات إلى الفندق ، فتولت كل مضيفة تسليم ضيفها مفتاح غرفته وانصرفت . إنه استقبال مضى عليه أكثر من عشرين سنة ولكنه ما زال حيًّا في نفس صاحبنا لم تذهب به الأيام .

وفي الصباح زاروا استديوهات السينما ، وقابلوا نجومها ، فلم يجدوهن من الغانيات كما تصورهن الإعلانات ، وإنما وجدوهن « رجالات » أعمال : يشتغلن في جد ، ويتحركن في نظام ، ويعرفن قيمة الدقائق . ولكن لكل واحدة منهن وكيل دعاية يلائم بين دورها في الأفلام ودورها في الحياة ، فإذا كانت حسناء تقوم بأدوار الإغراء نشر الوكيل عنها قصص الحب والغرام والزواج والطلاق . وإذا كانت تقوم بدور الضحية أحاطها بحب الخير والاشتراك في الجمعيات والعطف على الفقراء . وإذا كانت غير جذابة أحاطها بجو من العلم والفلسفة ونشر صورها وهي تلبس نظارة وتقرأ في كتاب .

ثم سافروا إلى واشنطن فزاروا البيت الأبيض وقابلوا « ترومان » وفيما هم ينتظرون مقابلته جعلوا يتجولون في قاعة الاستقبال ، فوجدوا على حوائطها رسوماً ساخرة من الصحف والمجلات تهاجم « ترومان »

ولم يكن من بينها واحدة تؤيده . ولما دخلوا عليه سلم عليهم واحداً واحداً ، وجاء مندوب اليونان فوجده ترومان قصيراً مثله فاستبقاه ليقف بجانبه ومدّ يده إلى ربطة عنقه فأصلحها استعداداً للتصوير .

وكانت الرحلة الثانية لأمريكا في سنة ١٩٦٥ . سافر صاحبنا إلى نيويورك فدعته إحدى شركات التليفزيون إلى ندوة ، وكان من ضمن الأسئلة التي وجهت إليه هذا السؤال : « هل ترى أن الصحافة في مصر حرة ؟ » قال : « إنه لا يعتقد أن في الدنيا حرية مطلقة ، ولكن الصحافة في مصر على كل حال أكثر حرية منها في أمريكا » ، فظهر العجب على وجه المذيع وقال : « إن هذه الإجابة طريفة ، ولكن هل أستطيع أن أعرف كيف وصلت إليها ؟ » فقال صاحبنا : « إن الصحف في أمريكا مشروعات تجارية تقوم على التوزيع والإعلانات فهي تنافق القراء والمعلنين جميعاً . وما دامت مملوكة لأفراد أو لشركات فهي تعبر في المحل الأول عن رأى أصحابها ، ومعنى ذلك أنها لا تفسح صدرها للآراء المعارضة . وإن فعلت فبمقدار . أما الصحف المصرية فهي مملوكة للاتحاد الاشتراكي أي للشعب فهي تعمل لمصلحته ولو أخطأت فيما تذهب إليه . إنها تتلقى التوجيه في الشئون الخارجية من الدولة وكذلك تفعل الصحف في جميع بلاد الدنيا ، ولكنها حين تعالج الشئون الداخلية تتوخى مصلحة البلاد لأنها لا تعمل للربح » .

وكانت الرحلة الثالثة إلى نيويورك في سنة ١٩٦٨ . سافر صاحبنا لأعمال كبيرة ، فاقتضى الأمر أن ينزل في فندق كبير من فنادق هيلتون . وفي أحد الأيام كان يجتاز الباب الخارجي فرأى رجلاً عجوزاً يدخل والواقفون على الباب يومئون له باحترام ويفسحون له

في الطريق . لم يكن وجه هذا الرجل غريباً على صاحبنا فقد رآه من قبل ، ولكنه لا يستطيع أن يربط وجهه باسم معين . ودعاه حب الاستطلاع إلى أن يسأل عنه فعرف أنه (كونوراد هيلتون) لقد دعا الصحفيين في سنة ١٩٥١ إلى عشاء وأخذت له معهم صور احتفظ صاحبنا ببعضها ، ومن عادته حين يسافر أن يأخذ معه عناوين من عرفهم في كل بلد وأرقام تليفوناتهم والصور التي أخذت له معهم ليكون له من هذا منطلق للتحدث إليهم حين يريد أن يجدد صلته ليستعين بهم في أعماله . وأخرج من حقيبته صورة مستر هيلتون وهو يخطب في الصحفيين منذ سبعة عشر عاماً ـ وصاحبنا بينهم يستمع ـ ثم أرسلها إلى جناحه مع كلمة قال فيها :

« لقد سرني هذا الصباح أن أراك ممتلئاً بالصحة والأمل . ورجعت إلى صورتي معك في سنة ١٩٥١ حين كنت في ضيافتك فوجدتك كما رأيتك اليوم ، ووجدت قلمي يخط لك هذه التحية » .

فسر الرجل من احتفاظ صاحبنا بصورته طوال هذه المدة ، واتصل به في غرفته محيياً وداعياً إلى فنجان قهوة في جناحه الخاص ، وفي نهاية الإقامة تلقى صاحبنا فاتورة الفندق ، فإذ هي تزيد على ثلثمائة دولار . ونزل من غرفته متأففاً إلى الخزينة ليدفع قيمتها ولكن الصراف فاجأه بقوله : « إنها مدفوعة يا سيدي ، وكل ما هو مطلوب منك أن توقع عليها . ألا ترى الخروم التي في أسفلها ؟ » قال : « ظننتها للزخرفة » قال : « لا ، إنها جملة مخرمة فاقرأها » وتمعن صاحبنا في الأحرف المخرمة ، فإذا هي تقول : « أنت ضيفي » وسأل صاحبنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فوراً عن مستر هيلتون ليشكره ولكنه كان قد بارح الفندق فترك له هذه البطاقة :

عزيزي كونوراد

« إنني أتهمك بالأنانية في الفضل . فقد سخوت فأعفيتني مما علي لك ، وبخلت فلم تقبل شكري على جميلك » .

وهكذا ترك صاحبنا فندق والدرف أستوريا وهو يحمل له في نفسه أجمل الذكريات !

وكان صاحبنا في أثناء إقامته قد خطر له أن يذهب إلى مستشفى جامعة كولومبيا في ضواحي نيويورك ليعرض نفسه على أحد الأطباء المتخصصين ، فوجد عيادات الأساتذة جميعاً في أماكن معدة لهم داخل الجامعة ، وفي خدمتهم معامل التحليل والتصوير ، على أن تقسم الأتعاب التي يدفعها المريض بين الأساتذة والجامعة بنسب متفق عليها ، وقادوه إلى غرفة صغيرة يخلع فيها ملابسه فخلعها كلها إلا ما يستر العورة ومكث ينتظر . وبعد قليل جاءت ممرضة ووجدته على هذا الحال فعرفت أنه من البلاد النامية ، وشدت ما بقي على جسمه ولفتت نظره إلى المرافق التي خلفه . فاستدار فوجد دشاً يرش ماء دافئاً وصابوناً سائلاً ، ودشاً يرش كولونيا لتزيل الصابون ، ودولاباً يمتلئ بالفوط الورقية للتجفيف ، فعرف أنه غير قابل للمس قبل أن يمر بهذه المراحل الثلاث . ثم دخل إلى قاعة الانتظار فإذا هي غاصة بالعراة من الذكور كأنما انطلقوا جميعاً من حديقة الحيوان ، وإن كان أغلبهم يقرأ فيما أمامه من كتب ومجلات ونودي على رقم ١٤٧

ـ وهو اسم صاحبنا في المستشفى ـ ليدفع فاتورة الأتعاب فوجدها أكبر مما توقع ، فلما سأل في ذلك أمريكيًا صديقاً نظر فيها ثم قال : « ولماذا أعطيت عنوانك على فندق والدرف أستوريا ؟ » إنهم هنا يفرقون في الأتعاب بين الطبقات .

ودعاه صديقه الأمريكي إلى عرض يقام لأول مرة في إحدى قاعات الجامعة للتعليم بالكمبيوتر فلبى وجلس مع بضع مئات من الطلاب على كرسي يحمل رقماً وعلى حافته أزرار أربعة . وجاء معيد ليلقي درساً في الهندسة فكتب على منضدة أمامه معادلة فإذا هي تظهر على لوحات ضوئية كثيرة منتشرة في القاعة . وشرح الرجل هذه المعادلة في عشر دقائق ، ثم كتب سؤالاً ظهر على اللوحات وتحته أربع إجابات بديلة وترك لكل طالب أن يختار من بينها الإجابة الصحيحة بالضغط على زرها المقابل ، وترك للكمبيوتر أن يعطي الطلاب درجاتهم تبعاً لهذا الاختيار وفق برنامج موضوع . وانتقل المحاضر إلى الجزء التالي من الدرس ثم إلى الثالث والرابع وفي نهاية المحاضرة أخرج الكمبيوتر نتائج الامتحان وحرر لكل طالب شهادة بدرجاته .

لقد وجد صاحبنا بعد هذه التجربة أن الكمبيوتر يحقق المزايا الآتية :

١ — من الممكن أن يعلم بضعة ألوف من الطلاب في وقت واحد ما دام الجو مكيفاً والصوت واضحاً والضوء صناعياً .

٢ — أنه يحقق حلماً كثيراً ما راود رجال التعليم وهو إلغاء الامتحانات

والاكتفاء بأعمال السنة دون خوف من محاباة الأستاذ لبعض طلابه .

٣ – أنه يحتفظ بانتباه الطلاب على الدوام ، ما دام يختبرهم فيما سمعوه كل عشر دقائق .

إن الكمبيوتر قد لا يصلح للتعليم الابتدائي والتعليم الثانوي لأن شخص المدرس مهمّ في هاتين المرحلتين ولكنه مفيد جداً في التعليم العالي وخصوصاً في الكليات العملية .

وقد علم صاحبنا من صديقه الأمريكي أن كلية الطب تستخدم الكمبيوتر في تشخيص الأمراض . فالصداع مثلاً يصلح عرضاً لمائة مرض . ولذلك وضعت له الكلية قاموساً يحتوي على عشرات الألوف من المتغيرات التي إذا توافرت مجموعة منها كان الصداع على الأرجح من أعراض التيفود ، وإذا شعر المريض بمجموعة أخرى من الأعراض كان الصداع من أثر ضغط الدم ... وهكذا يجيب المريض عن أسئلة الطبيب ، والطبيب يغذي الكمبيوتر بالمعلومات فيخرج له التشخيص من الناحية الأخرى .

ترى لو ظلت الشعوب النامية تلهث وراء هذه الآلات الإلكترونية فهل تستطيع أن تلحق بالشعوب المتقدمة ؟ إن صاحبنا يرى الهوة تتسع بينهما كل يوم بمتوالية هندسية لا حسابية .

وسافر صاحبنا إلى اليابان في سنة ١٩٧٠ فوجدها أعجوبة الأعاجيب . بلد خلا من الموارد واكتفى بمادتين رئيسيتين هما التنظيم والإرادة . لقد أثبت الشعب الياباني أن ما تعلمه صاحبنا في الصغر من

أن الصناعة لا تقوم إلا على القوة المحركة والمواد الأولية محض هراء ، وجعل من العالم كله مصدراً يختار منه أنسب المواد بأرخص الأسعار ، ثم جعل منه مرة أخرى سوقاً يبيع فيها هذه الموارد التي اشتراها بعد تصنيعها فيحقق لنفسه الفرق بين السعرين وهو كبير . إن لليابان أسطولاً بحرياً ضخماً يجوب العالم فينقله إلى اليابان ، وينقل اليابان إليه.

وزار صاحبنا المعرض الدولي في « أوزاكا » فرأى ربع مليون زائر يدخلونه في الأيام العادية ونصف مليون يدخلونه في كل سبت أو أحد، فلا يختل النظام ولا يختلط الحابل بالنابل . في المعرض قطارات تسير على قضيب واحد ، وسيارات تسير بالبطاريات ، وأشرطة فولاذية متحركة تنقل الناس من جناح إلى جناح . وهذه الوسائل كلها بالمجان لأن رسم الدخول يغطيها . وأمام عجلة القيادة في كل سيارة سائقة حسناء إذا أشار إليها الزائر وقفت لتطوف به في المعرض حيثما يشاء ، فإذا اكتفى انحنت على شكل قوس لتحييه كأنه أعطاها ألف ين .

إن اليابان هو البلد الذي لا ينتظر فيه العاملون بقشيشاً على خدماتهم وقد رأى صاحبنا الشيالين في المطار يستقبلون القادمين فينقلون حقائبهم إلى مكاتب شركات الطيران وينصرفون فور الانتهاء من مهمتهم دون انتظار مكافأة أو تصيد شكر .

وقد دعي صاحبنا لحضور حفل زواج مصري يعمل في اليابان بيابانية ، فأعد نفسه لسهرة ممتعة فيها رقص من فتيات الجيشا وطقوس يابانية رائعة ، وجاء الموعد فإذا العريس يقف فيلقي خطاباً يعرض فيه على العروس أن تتزوجه ، وإذا والد العروس يقف فيلقي خطاباً يقبل فيه هذا العرض . واذا القسيس ينهض فيلقي خطبة منبرية عن واجب الزوجين

نحو الأسرة ودورهما في رفعة الوطن وواجبهما في تربية البنين والبنات .. إلى غير ذلك مما يلقى عادة في الكنائس . وبعد قليل دعي الضيوف ـ ومن بينهم صاحبنا ـ إلى وليمة يابانية ولكن من الظلم أن يقال إنه أخذ نصيبه منها فإن « اللخمة » أدركته حين أراد أن يتناول بالعصي الخشبية الطويلة شيئاً من « اللحم » . ولما أراد الانتقال إلى السمك وجده نيئاً . فلما مد يده إلى غيرهما لم يجد إلا حشيشاً ترعاه الإبل . وكان السكون يخيم على المدعوين كأنهم في معبد ، فلما استفسر عن سبب هذا السكون قيل له إن اليابانيين يحترمون مناسبات الزواج ولا يهرجون فيها . فالزواج عندهم حدث مهم لأنه بداية حياة جديدة وأجيال قادمة وليس بداية استمتاع .

لقد خرج صاحبنا من الحفل وهو يردد قول الشيخ محمد عبده عن الفرنسيين : « إن هؤلاء الناس هم المسلمون من غير أن يكون عندهم إسلام » .

وفي سنة ١٩٧١ زار صاحبنا موسكو . لقد كان الانطباع الذي عنده هو أنه يزور بلداً شيوعياً فيه إباحية أخلاقية مسرفة ، ولذلك كان شديد القلق مما سيقع عليه نظر ابنته وهي في سن المراهقة . ولكنه وجد الشوارع خالية تماماً من المناظر المؤذية التي يقع عليها نظر السائح في بلاد أوربا وأمريكا . ووجد المكتبات خالية من الصور الخليعة ، ودور السينما خالية من الأفلام الجنسية .

ووجد صاحبنا وعياً كبيراً بالملكية العامة ، فالأزهار تملأ الشوارع والميادين ، ولكن أحداً لا يفكر في قطف واحدة منها . والحشيش الأخضر يملأ المتنزهات ، ولكن أحداً لا يجرؤ على السير فوقه . إن

الجمهور هو الذي يحرس الملكيات العامة ولذلك يهب في وجه كل من يسيء إليها .

والسلع الشعبية من غذاء وكساء رخيصة في متناول الجميع ، ولكن سلع الطبقات الراقية أغلى بكثير من نظائرها في أوربا . والخدمة الطبية بالمجان لجميع أبناء الشعب وللسياح ، حتى لقد ارتفعت حرارة ابنته قليلاً فاستدعى طبيبة حضرت في أقل من نصف ساعة ومعها مترجم ، ووصفت لها الدواء واستمهلتها إلى اليوم التالي فإذا لم تنخفض حرارتها نقلتها إلى المستشفى ، وفي المستشفيات من السرر ما يكفي مرضى الأمة جميعاً .

ولقد وجد صاحبنا في موسكو مترو الأنفاق يفوق نظائره في نيويورك وباريس ولندن ، ووجد تخطيطاً حديثاً يجعل في الشارع الرئيسي ثلاث حارات بحيث تستخدم الحارة الوسطى في تنقلات الزائرين الكبار دون أن تتعطل حركة المرور في الحارتين اليمنى واليسرى ووجد الميني جيب ، والمحال الكبرى والمطاعم الأنيقة ، ووجد سيارات الفيات إلى جانب اللونجا والموسكوفيتش ، فعرف أن روسيا قد وصلت في بناء صناعتها الكبرى إلى الدرجة التي طوعت لها أن تفسح صدرها للاستهلاك ، ولم يكن في الشارع حاف أو سائل .

ولكن المركزية لا تزال جاثمة على الصدور . إن الفرد لا يملك التصرف فيما لديه من تعليمات . وحين بدا لصاحبنا أن يزور ليننجراد قيل له إن تأشيرة الدخول إلى موسكو لا تكفي فلا بد من تأشيرة جديدة إلى كل بلد جديد . وحين اشترك في رحلة جماعية للتفرج على معالم

موسكو لم تعرف المرشدة كيف تميز نفسها وسط الزحام فتاهت من جمهورها وأخفقت الرحلة .

لقد خرج صاحبنا من رحلاته الكثيرة بنتيجة لا يستطيع الفكاك منها . وهي أن مشكلة الشعوب ليست في اختيار النظام السياسي المناسب بقدر ما هي في تعويد الشعب على الانضباط ، وإقناع الناس بأن الخطب والشعارات لا تكفي لتحقيق التقدم . وإنما الذي يحققه هو استنبات الزرع ، وتصنيع المنتجات ، وتربية الماشية ، والعناية بالمعاهد والمعامل .

إنمهمة النظام السياسي هي أن يحقق العدالة الاجتماعية على النحو الذي يريده الشعب ، وأن يحقق الحرية على النحو الذي يفهمه الشعب أيضاً . ولكن روسيا والصين وأمريكا وألمانيا الشرقية والغربية واليابان قد نجحت كلها في ظل أنظمة مختلفة وكان نجاح كل منها متناسباً مع أسلوب التطبيق في نظامها ، وإدارة مرافقه ، ومدى تفهم الشعب له ، وانصياعه لمتطلباته .

إن الإدارة السليمة هي في النهاية الحد الفاصل بين النجاح والإخفاق ، لأنها هي التي تؤدي إلى ربط عوامل الإنتاج كلها وتسييرها نحو مزرعة نموذجية ، أو مصنع منتج أو مستشفى ناجح ، أو بيت سعيد .

وإذا كان العالم العربي على اختلاف نظمه السياسية قد آمن أخيراً بأن السماء لا تساعده إلا إذا ساعد نفسه ، فإنه استعان بالتكنولوجيا ونسي إدارتها فكانت النتيجة أن قامت معاهد للبحوث أنفقت عليها

الدولة ما أنفقت ، ولكن أجهزتها الدقيقة بدل أن تعمل في إخراج النتائج مكثت تسف التراب . والعقول الإلكترونية التي ترسل الصواريخ إلى القمر في أمريكا وروسيا ، عجزت في كثير من البلاد العربية عن إخراج حساب الأرباح والخسائر .

إن صاحبنا يذكر حادثين وقعا في مصر وكان أحدهما في العهد الرأسمالي ، والآخر في العهد الاشتراكي ، وكل منهما لم يقع بسبب خطأ في المبدأ السياسي أو الاقتصادي وإنما وقع بسبب الظروف الإدارية السيئة .

حوالى سنة ١٩٤٢ وقع خلاف ضرائبي بين رجل أسترالي اسمه شافتو ومصلحة الضرائب . كان متعاقداً مع السلطات الأمريكية على أن يرفه عن جنودها خلال الحرب بإقامة دور السينما والكاباريهات واستخدام الراقصات . وقدرت المصلحة أرباحه الاستثنائية بما ينتج فرقاً في ضريبة الأرباح يزيد على مائة ألف جنيه ولكن الرجل لم يسلم بذلك .

وكان عند شافتو رئيس للحسابات فصله من خدمته ، فأبلغ المصلحة أن لدى شافتو مجموعتين من الدفاتر إحداهما مزيفة للمصلحة والأخرى واقعية دل على مكانها ، فاستصدر مأمور الضرائب أمراً من النيابة العامة بالاستيلاء عليها وأودعها مصلحة الضرائب ثم قبض على شافتو وأقام عليه دعوى جنائية ثم أفرجت المحكمة عنه بكفالة .

وذهب شافتو مع رئيس حساباته الجديد يقابل عبد العزيز ناصر مدير مصلحة الضرائب فمكثا ينتظرانه حتى جاوزت الساعة الثالثة بعد

الظهر . فلم يجدا بداً من أن يستعجلا مدير المكتب ، ولكن هذا قال لهما إن المدير قد أنهى عمله منذ مدة وبارح مكتبه . فخرج شافتو كسيف النفس مشغول البال ، وفيما هو يسير في أحد الدهاليز وجد غرفة مفتوحة على مصراعيها : الغرفة فيها دولاب خشبي مهلهل ، والدولاب فيه مجموعة من الدفاتر عرفها على الفور فهي دفاتره التي استولت عليها النيابة .

وكان الموظفون قد خرجوا بعد انتهاء عملهم فنادى رئيس حسابات شافتو أحد السعاة وأمره في استعلاء أن ينقل هذه الدفاتر إلى السيارة المنتظرة أمام المصلحة . فصدع الرجل بالأمر معتقداً أن الآمر من كبار المسئولين في المصلحة ، ثم أبدى رئيس الحسابات كرمه فأعطى الرجل عشرة قروش كاملة ، وتحركت السيارة بما فيها إلى صحراء السويس حيث أحرقت الدفاتر جميعها .

وجاء يوم القضية فاتهم محامي المصلحة « شافتو » بالتزوير وقال : إن المصلحة ضبطته متلبساً فوضعت يدها على دفاتره الحقيقية . وبعد مرافعة دامت ساعتين وقف محامي شافتو فقال : إن محامي المصلحة يتخيل فيخال لأن مستر شافتو يحتفظ بمجموعتين من الدفاتر في مكانين مختلفين خوفاً من الحريق ، ولكن المجموعتين متطابقتان فلا تزوير في الأمر ولا تهرب من الضرائب ، وطلب من المحكمة أن تحيل المجموعتين إلى خبير ليتأكد من صحه ذلك ، فاستجابت المحكمة وتأجلت الجلسة .

وذهب الخبير إلى مصلحة الضرائب يطلب الاطلاع على المجموعة

المستولى عليها فإذا هي غير موجودة وإذا الموظفون يقفون مشدوهين لا يدرون ما يقولون .

وجاء موعد الجلسة فاتهم محامي « شافتو » مصلحة الضرائب بإخفاء الدفاتر عمداً بعد أن أسقط في يدها حين تبين لها أن المجموعتين متماثلتان ، وضاعت القضية بسبب الإهمال في نظام الحفظ .

أما الحادثة الأخرى فوقعت في سنة ١٩٦٨ . لقد أبرق صاحب مجلة « ريدرز ديجست » التي توزع في العالم أكثر من خمسة وعشرين مليون نسخة ـ وكانت طبعتها المصرية تصدر عن أخبار اليوم باسم المختار ـ أبرق إلى صاحبنا من باريس يقول إنه يود وقرينته أن يزورا معبد « أبو سمبل » في أسوان ، وكان قد تبرع لعملية رفعه من مكانه بمليون دولار . وجاء الرجل فكرمه الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة ـ في ذلك الوقت ـ بوضع طائرة خاصة تحت تصرفه إذ كان الوقت صيفاً والهيدروفيل لا يعمل بين أسوان و « أبو سمبل » ، ووصل الضيفان ـ وكان في صحبتهما مندوب من أخبار اليوم ـ فوجدا العمل في المعبد معطلاً لقلة المال ، فمال مستر والاس ـ وهذا اسمه ـ على قرينته وقال لها : « ماذا لو تبرعت أنت الأخرى بمليون دولار ؟ » فرحبت السيدة على الفور ، وأسرع مندوب أخباراليوم إلى التليفون فزف الخبر إلى صاحبنا في القاهرة وزفه صاحبنا بدوره إلى الدكتور ثروت فوجد الوزير من واجبه أن يذهب إلى المطار لاستقبال « والاس » وشكره عند وصوله من أسوان .

وانتهى كل شيء وعاد مستر والاس وقرينته إلى نيويورك ، وسار العمل في معبد « أبو سمبل » بسرعة حتى تم ، وتحدد يوم للاحتفال

بهذه المناسبة السعيدة . ولكن « والاس » لم يحضر برغم توجيه الدعوة إليه ، واكتفى بإيفاد مندوب من قبله . ماذا ؟ إن الرجل قد تبرع لـ « أبو سمبل » بمليوني دولار فلا أقل من أن يشاهد مع قرينته ثمرة هذا التبرع .

ورحب صاحبنا بالمندوب ، ولكنه أعرب عن أسفه لأن مستر « والاس » لم يحضر . قال المندوب ـ وكان صديقاً لصاحبنا بحكم العمل في المختار ـ إن وزارة الخزانة لم تعبر عن شكرها لمستر « والاس» إلا بإيصال مطبوع على الجستتنر وباللغة العربية ، وقد ملئت خاناته بقلم كوبيا ولف الإيصال وأقفل بالصمغ ثم أرسل هكذا دون أن يوضع في ظرف . ووصل الإيصال إلى مستر « والاس » في أمريكا فلم يعرف كيف يتعامل معه . إنه يشبه حجاباً فيه سحر ، وقد يكون فيه قنبلة تنفجر بمجرد أن يفتح ، فآثر أن يعطيه لأحد مساعديه ليعالجه معالجة خاصة ويفتحه بحذر . ولكن اللفافة أسفرت عن كتابة قد تكون فرعونية وقد تكون فارسية أو عربية ، ولكنها على أي حال تستحق الفحص ، فانتدب لها خبيراً يفك رموزها فأكد أنها عربية وأنها تقرر أن مستر « والاس » قد تبرع لمعبد « أبو سمبل » بمليونين من الدولارات .

وإلى هنا انتهى كلام المندوب فاتصل صاحبنا بوكيل وزارة الخزانة لينقل إليه هذا الخبر ، فاستدعى الكاتب الذي أرسل الإيصال وبدأ معه التحقيق :

س ـ كيف سمحت لنفسك أن ترسل مثل هذا الإيصال ؟

جـ ـ وهل عندنا إيصالات أخرى ؟

س ـ ألم يكن في وسعك أن تضع الإيصال في ظرف ؟

جـ ـ وهل توزعون علينا ظروفاً نضع فيها الإيصالات ؟
س ـ ولماذا كتبته بقلم كوبيا ولم تكتبه بالحبر ؟
جـ ـ ليس على مكتبي حبر والقلم الكوبيا لم تعطه لي المصلحة وإنما اشتريته من جيبي الخاص .

وأقفل المحضر بعد أن تليت عليه أقواله فأقرها وأمضى ! !

المُدِيرُ المحْتَرِف
١٩٤٦

ترك صاحبنا عمله في الجامعة واحترف الإدارة . وجعل مكتبه في بناية أخبار اليوم ، ومنه تولى إدارة شركة الأخبار المصرية ، وهي التي ضمت داري المصري وأخبار اليوم .

كان هناك مسوغ لاندماج الدارين ، فصاحب المصري ثري كثير الأسفار ، وقد ضم إلى عمله الصحفي أعمالاً تجارية كثيرة ، وصاحبا أخبار اليوم صحفيان بارزان في سن الشباب ، وهما في حاجة إلى المال ، فالاندماج يحقق تكاملاً مطلوباً من الطرفين ، ولكنه يصطدم بواقع كبير هو أن الدارين متنافرتان في مبدئهما السياسي ، فواحدة على علاقة طيبة بالوفد ، والأخرى تعمل في الجهة الأخرى .

وقد كان في نية صاحب المصري أن يجذب أخباراليوم إليه ، وكان في نية صاحبي أخبار اليوم أن يبعدا المصري عن الوفد ، بل إن الجميع أفرغوا نواياهم في ورقة أمضوها وأودعوها خزانة خاصة في بنك مصر تعهدوا فيها بأن يتوخوا المصلحة العامة فيما يكتبونه دون ارتباط بسياسة الوفد أو خضوع لرأى إنسان مهما علا قدره !

ولكن النوايا شيء والممارسة شيء آخر فقد ظهر لصاحبنا بعد أيام قلائل أن الخلاف يربض في السياسة العليا لأصحاب الشركة ، وأنه يقود عربة إدارية يجرها جوادان متنافران . وقد أعلن هذا الخلاف عن

نفسه حين أراد صاحب المصري أن يعين الأستاذ محمد عبد القادر حمزة محرراً بمرتب يناسب كفايته ، وكان معروفاً بوفديته ، فاعترض الأخوان في أخبار اليوم بحجة أن المرتب كبير . وكان الاتفاق على أن تكون الإدارة مشتركة والتحرير مستقلاً ، ولكن هل تعيين محرر مسألة إدارية أو تحريرية ؟

ثم اشتد الخلاف حين زاد المصري عدد صفحاته في يوم السبت ، فاعتبر الأخوان أن في هذا استنزافاً للورق والمال ، والحقيقة أن فيه منافسة لأخبار اليوم ، فأمرا مهندس المطابع بالامتناع عن طبعه ، وذهب أفراد أسرة المصري إلى المطبعة بالسكاكين للاعتداء على الأخوين إذا خطر لأحدهما أن يدخلها .

وكان صاحب المصري قد اشترى ورقاً للشركة بأكثر من أربعين ألف جنيه حين بدا جلياً أن استمرارها أصبح مستحيلاً ، فانفصلت الداران وبدأت المتاعب .

رأى صاحبنا أن يتمهل في ترك مكتبه حتى يستعيد لصاحب المصري أمواله ، وهو متغيب في الخارج ، فاستخدم سلطته كمدير في بيع ورق الشركة المخزون لدى البنك إلى صاحب المصري مقابل دينه عليها ، وكان الورق نادراً ، وسعره في السوق السوداء عشرة أضعاف سعره الرسمي ، فأتم الصفقة وودع الأخوين ، ثم عاد إلى مكتبه القديم .

وفي الصباح أرسلت إدارة الحسابات تطلب ورقاً لأخبار اليوم ، فجاءها الرد من البنك بأن مدير الشركة قد نقل ملكية الورق كله ،

وكان رد الفعل أن شد الأخوان عروق الأرض لتبتلعه ، وهزا أعمدة السماء لتهبط عليه . اتهماه بالتزوير ، واتهما البنك بالتواطؤ ، وأبلغا النيابة للتحقيق مع الاثنين . لكن كان واضحاً أن صاحبنا تصرف في حدود حقه ، ولم يبع بأقل من ثمن المثل ما دامت العبرة بالسعر الرسمي ، فلا مجال للبحث له عن جريمة ، وإنما المجال هو في طلب تعويض منه يكون محل نظر . واشتدت حاجة الأخوين للورق ، فتفاهما على طريقة سداد الدين وسكنت العاصفة .

كان المصري قد ارتفع توزيعه في أثناء قيام الشركة إلى ما فوق ثلاثين ألف نسخة ، فانفرد بشركة التوزيع ، وعهد صاحبنا في إدارتها إلى شاب في مقتبل العمر كان يتميز بصفاء الذهن واستقامة الخلق ، فحقق في عمله نجاحاً كبيراً .

وفرض المصري نفسه على شركة الإعلانات الشرقية ، فتكونت بينهما شركة جديدة باسم شركة الإعلانات المصرية ، تحتكر إعلاناتهما ويتولى صاحبنا إدارتها مع العضو المنتدب ، وهو أجنبي يدير الشركة الشرقية .

تكونت الشركة برأسمال قدره أربعة وعشرون ألف جنيه مناصفة بين المصري وشركة الإعلانات الشرقية . وكانت القاهرة هي مركز توزيع الإعلانات في العالم العربي ، ولكن صاحبنا فكر في أن يفتح لها فرعاً في بيروت يتولى إدارته صديقه محمد شقير . ورأى فؤاد فرعون وجان رزق أن يتعاونا مع الفرع الجديد فعرضا أن يساهم في وكالتهما بمقدار الثلث وأن يساهما فيه بمقدار الثلث أيضاً ولكن الفرع لم يقم فأقام محمد شقير وكالته الحالية وأطلق عليها اسم شركة الإعلانات

الشرقية واتخذ لها نفس الشعار وهو ديك يصيح .

ولم يدفع صاحب المصري حصته في شركة الإعلانات المصرية بالقاهرة ، وهي اثنا عشر ألف جنيه حتى انتهى العام فإذا الأرباح ستة وثلاثون ألف جنيه . قال هنري حاييم : إن صاحب المصري لا يستحق منها شيئاً ما دام لم يدفع حصته . ورد عليه صاحبنا بأن الشركة قائمة والحصة دين مدني يخصم من نصيب صاحب المصري في الربح ، وكان هذا هو الرأي القانوني الصحيح ، فتسلم صاحب المصري ستة آلاف جنيه بعد أن سد حصته في رأس المال من أرباح السنة الأولى .

ولم يكن في الشركة مصريون غير السعاة النوبيين ، ومندوب واحد من مندوبي الإعلانات ، فألفوا من بينهم وفداً جاء يقدم التهاني لصاحبنا ويعبر له عن فرحهم باختياره . وأدرك على الفور أن تمصير الشركة هو أول واجباته ، فبدأ ينتقي للوظائف التي تخلو شباناً مصريين من الملمين باللغات الأجنبية .

وكان العضو المنتدب أجنبياً شديد المراس ، وكان من حوله مساعدون أوفياء لا يأتمرون إلا بأمره ، وكان مجلس الإدارة قد تألف من ثمانية أعضاء : أربعة يمثلون شركة الإعلانات الشرقية ، وأربعة يمثلون جريدة المصري ، فكان صاحبنا يحضر المجلس بمفرده باسم الأربعة . وكان أحد الشبان من خريجي كلية الآداب قد لمع في عمله الإعلاني ، فاقترح صاحبنا اسمه كمساعد لمدير الإنتاج ، ولكن العضو المنتدب لم يوافق بحجة أن في هذا تعدياً على من هم أقدم منه . وأصر صاحبنا على الترقية بحجة أن الشركة تعمل في مصر ، ومصر فيها

عشرون مليوناً من الناس ، منهم مليون واحد من الأجانب . صحيح أن الأعمال في يد الأجانب لكن أليس في الأغلبية العددية الساحقة معلنون ؟ أوَ ليس من حق هذه الأغلبية أن يعترف بوجودها فيختار لها موظف مصري واحد يتحدث إليها بلغتها ؟

وكان من بين ممثلي شركة الإعلانات الشرقية في مجلس الإدارة اثنان من المصريين أحدهما كريم ثابت (باشا) ، والآخر هو حسين عنان (باشا) ، وكان الأول يتقاضى ألف جنيه في السنة مقابل حضور جلسة واحدة في كل عام هي الجلسة الختامية التي تنظر الميزانية وتوزع الأرباح . وقد تذمر يوماً من أتعابه هذه فقال متخابثاً لصاحب المصري « كل هذا الاستغلال للقصور بألف جنيه ! » فضحك صاحب المصري قائلاً : « القصور في عقلك » . وساءت العلاقة بين الرجلين !

أما حسين عنان (باشا) فكان رجلاً جاداً وأميناً ، ولذلك اختاره صاحبنا ليطلب معونته . قال له الباشا : « أرسل لي هذا الشاب ، فإن أعجبني فسأعمل على تعيينه » . وذهب الشاب فاقتنع به الباشا وزكاه . ومنذ هذا اليوم أصبح من معالم النهضة الإعلانية في مصر .

وكان صاحبنا قد تعرف على شاب من خريجي كلية التجارة أعجبه فيه إلمامه باللغة الإنجليزية واستعداده الطيب في العلاقات العامة ، فعينه مديراً للإعلانات في الإسكندرية ثم أصبح مديراً للمكتب يشرف على الإدارة والتحرير معاً . وفيما يتأهب إسماعيل حسين ـ وهذا هو اسم الشاب ـ لما ينتظره من مستقبل كبير عاجله الموت فبكاه الإخوان جميعاً .

ثم صدر قانون اللغة العربية ففرضها على الشركات الأجنبية في

الدفاتر وانتهز صاحبنا هذه الفرصة فرقى شاباً آخر رئيساً للحسابات . وقامت الدنيا لأن مرتبه يقل عن مرتب أجنبي في القسم نفسه ، فصحح صاحبنا الموقف بأن أعطى الرئيس المرقى علاوة تزيد مرتبه جنيهاً واحداً على مرتب الأجنبي . ومنذ هذا اليوم أصبح الشاب من معالم التفوق الإداري في دنيا الإعلان .

وفي قسم المراجعة لمع شاب من خريجي كلية التجارة فأفسح له صاحبنا في الطريق حتى أصبح فيما بعد عضواً منتدباً للدار كلها .

لقد كان صاحبنا سعيداً بنفسه حين كان من أوائل أساتذة إدارة الأعمال في الجامعة ، وهو الآن أسعد لأنه أصبح صاحب مدرسة إدارية تمصّر وتوجه ، ثم تتلمذ على تلاميذه بعد أن تفوقوا ، فزاد نجاحه بهم ، وزاد تعلقهم به حتى أصبح لمجموعهم أسلوب متميز في العمل الإداري فرض نفسه على الصحافة كلها .

ولكن الإدارة تعمل دائماً في خدمة السياسة ، ولا تستطيع أن تستقل عنها . وجاء يوماً إلى صاحبنا مصطفى صادق عم الملكة «ناريمان» يفاتحه في أمور الفتور الدائم بين المصري و « السراي » . قال إنه ليس في مصلحة البلاد ، وإنه يرجع إلى أن صاحب المصري أقرض الملكة « نازلي » وهو في أمريكا مبلغاً من المال مع أنه يعرف سوء التفاهم الذي بينها وبين ولدها فاروق ، كما أنه ثبت لدى فاروق أن صاحب المصري يتعقب الأميرات في مغاني باريس ليصورهن في السهرات تشهيراً بهن . ورأى صاحبنا من واجبه أن يطلع صاحب المصري على هذا الحديث ، فرأى منه رغبة في تصفية سوء التفاهم .

ورتب صاحبنا اجتماعاً في منزله بين صاحب المصري وعم ناريمان اتفقا فيه على أن يكتب الأول خطاباً بخط اليد للملك يشرح فيه ظروف القرض ، وينفي فيه الاتهام ، وأخذ الثاني الخطاب ثم عاد يعلن أن فاروقاً أظهر استعداده لاستقبال صاحب المصري في موعد يحدد فيما بعد .

ولكن صاحب المصري لم يسعد بهذا الخبر وقال للمدير إن في تشرفه بالمقابلة الملكية إعلاناً عن توبة . ثم أضاف : « لقد ضحكوا عليك ! فهم يريدون أن يعلنوا عن مقابلتي كما أعلنوا عن مقابلة عبد الحميد عبد الحق ، ليغضب النحاس (باشا) فيفصل المصري ، وبذلك يصلون إلى القضاء على الجريدة » . وأدرك المدير أنه لا يزال في السياسة تلميذاً مبتدئاً .

ولكن إلياس أندراوس ـ وكان رئيساً لمجلس إدارة بنك مصر ـ أفهم صاحبنا فيما بعد أن فاروقاً اقتنع بما جاء في خطاب صاحب المصري ، وأنه يعرض عليه أن يكون وزيراً إذا دفع مائة ألف جنيه ، أو أن يكون رئيساً للوزارة إذا دفع ربع مليون جنيه ! فرأى صاحبنا من واجبه مرة أخرى أن ينقل العرض لصاحب المصري . وسخر هذا منه ، ولكنه طلب من صاحبنا أن يمني « إلياس أندراوس » بالقبول دون أن يرتبط معه تفادياً لصدام عاجل يضر ولا ينفع .

ودارت الأيام ، فإذا صاحب المصري يسافر إلى جنيف ، ويطلب صاحبنا إليه . وسافر صاحبنا فوجد صاحب المصري قد حجز له جناحاً فخماً في فندق كبير ، وألحق به سكرتيرة خاصة من الفندق . وفي الصباح كاشفه بأن رئيس مجلس إدارة ببسي كولا سيحضر من

نيويورك ليكل إليه توكيلها في مصر ، وطلب إلى صاحبنا أن يحسن استقباله ، وأن يتفاوض معه على أسس حددها . وجاء الرئيس فقالت له الاستعلامات إن صاحب المصري خارج الفندق وإن مديره موجود ، فردت السكرتيرة قبل تحويل المكالمة إلى صاحبنا ، ثم نزلت فصاحبت الرئيس إلى الجناح . وهكذا تم إعداده ذهنياً للتفاوض .

ودعاه صاحبنا للعشاء في الجناح فلبى . وكان صاحبنا على المائدة يعطي السكرتيرة تعليماته ، فتنقلها لرئيس الخدم الذي كان موجوداً هو الآخر ، ثم بدأت المفاوضات في جو مشرق .

وكان صاحب المصري قد عرف أن « إلياس أندراوس » موجود في باريس ، فاتصل به ودعاه لمقابلة مديره إذ هو الذي سيتولى دفع المبلغ المطلوب للوزارة . وحضر على الفور بالطائرة .

كان رئيس مجلس الإدارة يعرف « إلياس أندراوس » منذ قابله في القاهرة ، ولذلك أقام صاحب المصري عشاء حضره الرجلان الكبيران ومعهما سفير مصر في برن ، وعدد من رجال السفارة وسيداتها . وفي الصباح جاء الرئيس فقبل جميع الشروط ، وأمضى عرضاً قدمه لصاحبنا يبقى صالحاً ستة أشهر ، ثم استقل سيارة صاحب المصري « الرولزرويس » إلى المطار وهو يهنئ نفسه على التعامل مع صاحب الملايين .

وكان في أقصى المدينة رجل ينتظر .. إنه هو صاحب الملايين الفعلي الذي سيمول الصفقة كلها فينشئ شركة التعبئة ، أما صاحب المصري فقد حقق لنفسه ربحاً كبيراً .

وجاء دور « إلياس أندراوس » فاتفق صاحب المصري مع صاحبنا ، على أن يصطنعا خلافاً يصرفه بعد أن أدى مهمته في مفاوضات البيبسي كولا دون أن يدري . فلما جاء قال صاحب المصري لصاحبنا : « أنا لا أقبل أن أكون وزيراً ، ولكن لا مانع عندي أن أكون رئيس وزارة فادفع لإلياس (باشا) ربع مليون جنيه » قال صاحبنا : « سأفعل بمجرد أن تتفضلوا بعمل الترتيب مع البنوك » . قال صاحب المصري متعجباً : « أنا الذي أعمل الترتيب مع البنوك ؟ وما هي وظيفتك إذن ؟ » قال صاحبنا : « إن المصري لا يستطيع دفع هذا المبلغ » . فصرخ صاحب المصري : « وهل كنت وصياً علي حتى أحتاج إلى مشورتك إذا لم تكن مهمتك أن تقوم بالدفع ؟ » قال : « لا ، إن هناك سوء تفاهم » . فثار صاحب المصري قائلاً : « إنك تخلق سوء التفاهم عن قصد لتتخلص من الدفع » . ورأى « إلياس أندراوس » أن من واجبه أن يتدخل لإعادة المياه إلى مجاريها بين صاحبنا وصاحب العمل ، ثم استأذن في السفر .

وساءت العلاقات بين القصر والمصري من جديد ، فإذا مدير مصلحة التنظيم يأمر بإزالة جميع التخشيبات التابعة لشركة الإعلانات المصرية في طريق الهرم بحجة أنها منافية لجمال المنطقة الأثرية . وذهب العمال فوراً فحطموها ، ولكن صاحبنا رفع دعوى عاجلة أمام مجلس الدولة فحكم بإعادتها مع دفع تعويض مناسب .

وفي مثل هذا بقي صاحبنا يعمل ليتي الجريدة حزبية الوفد وغضب « السراي » . وكانت دار أخبار اليوم قد اعتزمت إصدار جريدة يومية باسم « الأخبار »،ورأت أن تصدرها في ثماني صفحات بعشرة مليمات

بدلاً من اثنتي عشرة صفحة بخمسة عشر مليماً ، كما كانت تفعل الأهرام والمصري . واختلفت الجريدتان القائمتان إزاء هذا الموقف ، فرأت الأهرام أن تبقى على حالها ، ورأى صاحبنا أن يصمد لمنافسة الجريدتين معاً فأصدر الجريدة في اثنتي عشرة صفحة بعشرة مليمات . وكان لهذا القرار الجريء أثره البعيد في مركز الجريدة . فقد وصل توزيعها إلى مائة وستين ألف نسخة .

ثُمّ جَاءَت الثّورَة
١٩٥٢

استيقظ صاحبنا في الصباح على جرس التليفون يدق في إصرار فإذا العامل يقول : « المصري محاصر بالجنود » . وتصور صاحبنا أن الحكومة تصادر عدد اليوم من الجريدة ، أو أن جريمة قتل وقعت فيها والجريدة ماثلة للطبع ، أو أن السلطات علمت بأمر العامل الذي قيل مرة إنه يتجر في المخدرات . تنقل بأفكاره بين هذه الاحتمالات ولكن احتمالاً واحداً بقي بعيداً عن ذهنه وهو أن الثورة قامت لتقتلع الملك من عرشه !

ارتدى ملابسه ، وذهب إلى مقر الجريدة بشارع القصر العيني ، فوجد أمامها ثلة من الجنود على رأسها ضابط صغير قدم له نفسه فسمح له بالدخول . وعاد المحررون من ثكنات الجيش ومعهم أخبار الثورة وطلبٌ بإصدار ملحق عاجل عن مطالبها .

كان المحررون والإداريون في الجريدة يتنازعهم عاملان : عامل الفرح بالثورة والحرص على إنجاحها ، وعامل الخوف من إخفاقها ، فيحيق العقاب بهم جميعاً ، ولكن العامل الأول كان غلاباً فظهر الملحق على الفور .

وكان صاحب المصري متغيباً في أوربا ، فلما عاد زار أعضاء مجلس الثورة في ثكناتهم مهنئاً ، ودعاهم إلى غداء في بيته وكانت عنده

آنية من الذهب الخالص اشتراها بمناسبة أن الملك عبد العزيز آل سعود كان قد وعده بالزيارة حين يجيء لزيارة الملك فاروق ، فلما حضر وأراد أن يبر بوعده عرف أن العلاقة بين الملك وصاحب المصري سيئة ، فعدل عن الزيارة . وقدم الطعام لأعضاء مجلس الثورة في هذه الآنية ، فلاحظ صاحبنا أن أثرها عليهم كان سيئاً .

ثم اشتد الخلاف بين الثورة وبين رئيس تحرير المصري فالثورة ترى أنها لم تتمكن بعد من الإفصاح عن سياستها للأمة فلا محل للتعجيل بالانتخابات وإلا عاد الوفد سيرته الأولى ، وتحولت الثورة إلى مجرد انقلاب . ورئيس التحرير يرى أن الثورة حاربت الدكتاتورية بطرد الملك فليس من حقها أن تحكم بغير برلمان . وكانت الصحف جميعاً ـ فيما عدا المصري ـ تؤيد الثورة في سياستها ، وكان صاحبنا بعيداً عن السياسة ـ يختلف مع رئيس التحرير في خطته لأن من شأنها أن تعرض الجريدة للإقفال .

وجاء إلى صاحبنا وجيه أباظة يقترح أن يحدد له موعداً مع جمال عبد الناصر ـ وكان رئيساً للوزراء ـ فاعتذر صاحبنا لأن في هذا استعداء من الخارج على خلاف داخلي يرجع الفصل فيه إلى صاحب الجريدة . وكان يقيم بفندق في باريس . وكانت قوت القلوب الدمرداشية تقيم في الفندق نفسه . كانت تحب صاحب المصري من الأعماق ولكنه حب من جانب واحد . وكانت تشكو هذا الصد إلى صاحبنا وترجوه أن يفاتح صاحب المصري في الاقتران بها ، ولكن صاحبنا كان ينصت إليها ويذكر طمع إبليس في الجنة !

وسافر صاحبنا مع أحمد أبو الفتح إلى باريس لعرض خلافهما فرأى صاحب المصري أول الأمر أن يعطي رئيس التحرير إجازة حتى ينجلي الجو ، ولكن أخاه ثار لهذا الاقتراح وأرسل إليه في جناحه خطاباً يقول فيه :

أخي وأبي وأستاذي :

إن كان عليّ فضل بعد الله فهو لك ، أو كانت لي كرامة بين الناس فلأنني أخوك . إني لأرجو أن تضم فضلاً جديداً إلى أفضالك الكثيرة فتتقبل استقالتي من رياسة التحرير .

وبكى محمود أبو الفتح حين جاءه هذا الخطاب وكان يحب أخاه حباً جماً ، فاستدعى صاحبنا من غرفته بعد منتصف الليل . وفيما هو في طريقه إليه فاجأته قوت القلوب في الدهليز فنادت عليه في عنف وأغلظت له في القول لأنه تسبب في بكاء محمود أبو الفتح ثم صرخت قائلة : « هل يستطيع جمال العبد ــ وكان مدير أعمالها ــ أن يتدخل بيني وبين أولادي ؟ » فتركها صاحبنا تجنباً للمشاجرة في تلك الساعة المتأخرة من الليل ودلف إلى جناح صاحب المصري وكان يتجول في غرفة الصالون والخطاب على المائدة .

كان على وجه صاحب المصري علامات التأثر ، ولذلك قدم الخطاب إلى صاحبنا ولم يعلق عليه بشيء فوقع صاحبنا في حيرة رأى أن يخرج منها فقال لصاحب المصري : « إني حضرت إلى هنا لأوقفك على حقيقة الموقف ، ولكن لكل معركة قائداً وأرى أن تترك القيادة لأحمد » . فبدا الارتياح على وجه صاحب المصري وكأنه كان يخاف من تصدع في جبهة الجريدة بسبب الخلاف بين المدير ورئيس التحرير .

ثم سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى محكمة الثورة .

وكانت الثورة قد وجهت للعضو المنتدب لشركة الإعلانات المصرية ـ وكان يهودياً ـ تهمة الإتصال بدولة أجنبية ، واقتضى التحقيق تفتيش بيوت مساعديه من اليهود ، فخطر لأحدهم أن يشكك في أدلة الاتهام التي قدمها أحد الضباط من رجال الشرطة وهو عبد المنعم عتيق ، وأوعز إلى زوجته أن تغازله حين يدخل البيت وأن تحتفظ بمسجل بالقرب منها ، وأحس الضابط من المحاولة بسوء القصد ، فأخطر مخابرات الجيش ، فأمرته أن يسايرها ليعرف مداها .

ودأبت الزوجة على الاتصال بالضابط تليفونياً لتسجل ردوده ، فكان هو يسجل كلامها على مسجل عنده ، وأخيراً طلبت منه أن يقابلها في منزل في وسط البلد ، فوعدها بذلك . وأخطر المخابرات ، وأخطرت هي النيابة العامة ، فجاء مندوبان في الموعد ينتظران أمام المنزل دون أن يعرف كل منهما صاحبه . وجاءت الزوجة ففوجئت برجل المخابرات يقبض عليها . وجاء ضابط الشرطة ففوجئ برجل النيابة العامة يقبض عليه وسيق الاثنان للتحقيق .

وفي الصباح جاء الزوج إلى صاحبنا يتصنع الاحتجاج . قال إنه قد يتقبل الاضطهاد ، ولكنه لا يقبل أن ينتهز رجل الشرطة فرصة هذا التحقيق فيغازل زوجته ، وطلب من صاحبنا أن يحميها من العبث . ولم يكن صاحبنا يعرف حقيقة الأمر فثارت حميته وقصد فوراً إلى مكتب الصاغ عبد المنعم النجار ، وهو الذي كان يهيمن على التحقيق .

قال صاحبنا : إنه لا يمكن أن يتدخل في التحقيق ، ولكن من واجبه أن يذكر للمشرف عليه أمراً يسيء إلى سمعة المحققين ... فابتسم

الرجل وأدار شريط التسجيل ، فإذا صوت يعرفه صاحبنا ، وهو صوت الزوجة وهي تغازل الضابط وتدعوه لمقابلتها . وصدر القرار بإخراج العضو المنتدب من البلاد وانتخب صاحبنا لمنصبه ، وأصبح عليه أن يقود السفينة في جو كثير التبعات .

وأول تبعة قابلته أن فريقاً موسيقياً من فرنسا كان متعاقداً مع الشركة على أن يعزف ثلاث سمفونيات تحت رعايتها في الأوبرا ، وكان صاحبنا لا يجيد الفرنسية ولا يفهم في السمفونيات ، فحاول أن يعتذر عن حضور الحفل ، ولكن مساعديه أفهموه أن سفير فرنسا سيحضر ، وليس من اللائق أن يستقبله أحد يقل عن الرجل الأول في الشركة .

وخطر لصاحبنا حل .. لقد طلب من رئيس تحرير البورص أن يعد له معلومات كافية عن كل سمفونية ، حتى إذا جاء السفير أمكن لصاحبنا أن يتعالم في حديثه معه فيسوق هذه المعلومات مستخدماً المصطلحات الموسيقية .

ولكن خاطراً آخر أزعجه . ماذا لو غيرت الفرقة ترتيب السمفونيات فبدأت بالسمفونية الثانية مثلاً ؟ إن صاحبنا سيأخذ في الحديث مع السفير عن الأولى ! وطلب من رئيس التحرير أن يجلس معهما في نفس البنوار حتى إذا رأى تغييراً في الترتيب لفت نظر صاحبنا إلى أن يقدم في محفوظاته أو يؤخر .

وبدأ الحفل بكلمة محضرة بالفرنسية ألقاها صاحبنا ، رد عليها السفير ، ثم سار العزف وسار الحديث طبقاً للخطة الموضوعة . وعند

الختام سلم السفير مودعاً ومشيداً بمعلومات صاحب الدعوة في علم الموسيقى !

وكانت الكوكاكولا من أكبر عملاء الشركة . جاء رئيس مجلس إدارتها في زيارة للقاهرة . فطلب مديرها المقيم ، وهو أمريكي ، من صاحبنا أن يشترك معه في تكريمه . وأقام صاحبنا عشاء حافلاً في القاعة الكبرى للشركة حضره رجال الأعمال والرسميون وعلى رأسهم محمد نجيب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت . وسار مستر هانجان ـ وهذا اسمه ـ في صحبة الرئيس لافتتاح المقصف فطلب زجاجة كوكاكولا .. واكتشف منظمو الحفل أنهم فكروا في جميع المشروبات إلا الكوكاكولا !

وفي اليوم التالي أقام المدير المقيم غداء مرحاً في صحاري سيتي ، وكان الوقت شتاء فأقام خيمة ، وأتى بخيول ترقص وجمال تركبها السيدات ، وكان من بينهن سائحة أمريكية أراد المدير المقيم أن يمزح معها ، وهو صديق زوجها ، فاتفق مع صاحب الجمل على أن يركبها إياه ، ثم يقف الجمل فجأة على رجليه من أمام ، فتفقد توازنها ، فتسقط . واتفق مع هانجان على أن يتلقاها بين ذراعيه ، وكان المصور على علم بهذين الاتفاقين ، فالتقط الصورة التي بدت غرامية متأججة وأرسلها المدير المقيم لزوجة هانجان ولزوج السيدة في أمريكا !

كان على صاحبنا أن يخرج على نفسه أحياناً ليساير هذه الروح الأمريكية العابثة ، وأن يتوافر على عمله الإعلاني فلا يفكر في سواه . وقد سبق أن عرض عليه أن يرشح نفسه وفدياً لمجلس النواب فأبى ،

بل لم يقبل يوماً أن يكون عضواً في لجنة من لجان الأحزاب ، فكان الجميع يلتقون في مكتبه وهم مطمئنون إلى أنهم على أرض محايدة .

وكان الدكتور محمود عزمي صحفياً لامعاً فعينه صاحب المصري مشرفاً على تحرير الصحف الفرنسية . ولكن الدولة سرعان ما اختارت الدكتور عزمي مندوباً لها في مجلس الأمن فكان كثير التغيب في نيويورك ولذلك لم يتمكن من التفرغ للتحرير .

ورأى صاحب المصري أن يستغني عنه فأوعز إلى صاحبنا بوصفه العضو المنتدب أن يقيله فقبل المهمة على كره منه وكتب له هذا الخطاب :

« أجد من واجبي أن أشكر لعزتكم ما أديتموه للشركة من خدمات . وسأعمل على معاودة الاستفادة منها حالما يكون ذلك ممكناً ».

فطلبه الدكتور عزمي بالتليفون وقال له : « وأنا يا سيدي أشكرك مخلصاً على العناية التي بذلتها في صياغة هذا الخطاب . لقد تفاديت كلمات الفصل وإنهاء الخدمة ولذلك فسأزورك اليوم في بيتك لا في مكتبك لأعبر عن شكري لشخصك .. » وقامت بين الاثنين صداقة دامت حتى فاضت روحه وهو يخطب في مجلس الأمن .

وعرف صاحبنا أن الأوصياء على ورثة مستر فني لم يعد لهم مصلحة في أن يستمروا في إصدار البورص والبرجرية والجازيت ، فساومهم على شراء شركة الإعلانات الشرقية التي تملك هذه الصحف ، ونجح في ذلك فأصبح صاحب المصري ملك الصحافة المصرية .

لم تعد لهم مصلحة لأن السلطات المصرية لم تكن تستريح لإشرافهم على وسائل الإعلام ، وكان بين الشركة وعمالها قضية عن علاوات

الغلاء حكم عليها فيها بفروق متجمعة تبلغ سبعين ألف جنيه . فلما تولى صاحبنا إدارتها بعد أن اشتراها صاحب المصري استأنف الحكم .

وبدأ الأستاذ نبيل الهلالي مرافعته بالهجوم على شخص صاحبنا فقال : إنه كان أستاذاً جامعياً في غفلة من الزمان وهو يستعين بهذا الماضي على التغرير بالبسطاء مع أنه رأسمالي النزعة يجلس في غرفة مكيفة ويركب سيارة أمريكية وكفايته خلقت فيه نزوعاً إلى الاستعلاء على العمال . واستأذن صاحبنا من محاميه في أن يتولى الرد بنفسه ، فتحدث في احترام كامل ليس خالياً من الغرض فقد كان هدفه أن يستعدي المحكمة على المحامي . قال صاحبنا إنه يَعدّ تهجم الأستاذ في ساحة القضاء تعدياً على المحكمة قبل أن يكون عليه ، وقدم في الموضوع أرقاماً وميزانيات حاسمة ثم ختم مرافعته بأن رجا المحكمة أن تحمي العمال من محاميهم . فكان لهذه الموضوعية أثرها المطلوب وصدر الحكم في آخر الجلسة برفض طلبات العمال .

كان صاحبنا سعيداً بعمله في الشركتين ، ولكنه كان دائماً يتوقع شراً من ناحية المصري . كان يرى الأمور تتعقد بينه وبين الثورة ، حتى صدر القرار أخيراً بمحاكمة صاحب المصري أمام محكمة الثورة .

وبينما صاحبنا جالس بعد ذلك في مكتبه بشركة الإعلانات المصرية دخل عليه علي يحيى دون موعد سابق ، وقال إن له عند صاحب المصري مبلغاً كبيراً هو رصيد عمليات في البورصة ، وطلب منه أن يسده قبل أن تصادر أموال المصري . قال صاحبنا إنه لا يعرف شيئاً عن الدين ، واعتذر من عدم الدفع ، ولما لم يجد علي يحيى استجابة رفع دعوى مستعجلة فلم تسفر عن شيء . وهنا تقدم مدير أحد البنوك

الكبرى من أقربائه ، فأظهر استعداده لإقراض المصري مبلغاً مساوياً للدين مقابل تقديمه لعلي يحيى . ولكن صاحبنا أصر على أن تبقى ساعة المصري دقاقة حتى توقفها المحكمة إذا شاءت .

وكانت المصارف قد رأت أن تحتاط للأمر فضيقت على الجريدة في الائتمان ، بل أخذت تستولي على كل ما يصل إليها من إيراداتها ، فظل صاحبنا يجمع من إيرادات الجريدة بعيداً عن البنوك حتى تمكن من صرف مرتبات الموظفين جميعاً في آخر شهر من حياة الجريدة ، وإن كان قد نسي نفسه فلم يقبض مرتبه .

ثم بقي على وفائه للسيدات وللأطفال من أسرة صاحب المصري حتى غادر القطر منهم من غادر ، واستقر الباقون على حال آخر .

أما شركتا الإعلانات الشرقية والمصرية فبقيتا تعملان ، وبقي صاحبنا في مكتبه ، فإذا ضجيج وهتاف ومئات من العمال متجمهرون أمام المكتب غاضبين ، ماذا ؟ لقد جاء موعد صرف أجورهم ، فإذا الشيك يرتد لأن أموال الشركة جمدت في البنوك ، فاعتقدوا أن صاحبنا هو الذي فعلها .

وأدرك أن بقاءه لم يعد في مصلحة العمل ، فقدم استقالته من مناصبه كلها .

وَانـتَقلَت المَـدرَسَـة
١٩٥٤

قبع صاحبنا في بيته بعد إقفال المصري لا يزور أحداً . ثم خطر له ـ وهو عضو في نادي الجزيرة ـ أن يقضي فيه بعض الوقت ، وكان اليوم يوم جمعة والنادي مزدحماً بالناس . فلاحظ بعد قليل أنهم لا يكادون يجدون لأنفسهم مكاناً ، ومع ذلك بقيت المنضدة التي إلى جواره خالية يأخذون المقاعد من حولها ولا يجلسون إليها ، فأدرك أنه أصبح تهمة ، وسارع بالخروج من النادي ليفرج عنهم !

قبع في بيته لا يزور أحداً ، ولكن كان يزوره زملاؤه الذين كانوا معه في المصري ، وأصدقاؤه الذين فهموا من عدم القبض عليه أنه قابل للمس . وكان الزملاء حزانى لأن المصري كان بالنسبة لهم عملاً كبيراً . لم يفكروا في سياسته التحريرية التي أدت إلى إقفاله لأنهم لم يربطوا أنفسهم يوماً بعجلتها ، وإنما كانوا يفكرون في المدرسة الإدارية التي أقاموها ، وفي النجاح التوزيعي والإعلاني الذي حققوه .

وبينما كان الزملاء يناقشون موقفهم دق جرس التليفون ، وكان المتكلم أحد صاحبي أخبار اليوم . إنه وأخاه في طريقهما للزيارة . وبعد قليل حضرا ، فقال أحدهما لصاحبنا : « إننا نريد أن تعمل لأخبار اليوم مثل ما عملته للمصري ... » ، وقبل أن يتم كلامه انفجر صاحبنا باكياً ! لقد كان هذا آخر ما تصوره ، فقد كان إلى ثلاثة أيام خلت

مديراً للمصري ، وكان منافساً منتصراً ، فهل يترك اليوم مكتبه إلى مكتب غريمه ؟ صحيح أن قلعة المصري قد انهارت ، ولكن ساعة إنزال العلم هي التي تبكي .

وذهب يستطلع الأحوال في « أخبار اليوم » ، فإذا هو يرى منظراً لا ينساه :

محرر يأخذ بخناق أمين « الخزينة » ويضربه بمسطرة في يده ، وأمين « الخزينة » يدافع عن نفسه ويقول : « أنت أخذت مرتبك في الشهر الماضي ، فدع غيرك يأخذ مرتبه في هذا الشهر » . واستفهم صاحبنا عن جلية الأمر فعرف أن الدار عجزت عن دفع مرتبات المحررين منذ أشهر ، فقررت أن تعطي فريقاً منهم في شهر ، وفريقاً آخر في الشهر التالي ، ليقبض كل منهم مرتبه الشهري كل شهرين . وانتهز أمين « الخزينة » هذه الفرصة فخلق لنفسه سوقاً سوداء : يعطي المرتب لمن يدفع الإتاوة ويمنعه عمن لا يدفعها .

وفيما صاحبنا يتجول في الدار رأى المعاون يفاوض نجاراً في إصلاح شباك ، فطلب النجار خمسة عشر قرشاً ، ووافق المعاون ، ولكن النجار اشترط الدفع المقدم ، وقال إن على الدار عشرين قرشاً لم تدفعها عن عملية أخرى منذ أشهر .

وفي غرفة الحسابات رأى تاجر ورق يتهجم على رئيسها . إن التاجر عائد لتوه من البنك بعد أن لم يتمكن من تسلم قيمة « الشيك » الذي أعطته الدار إياه لنفاد رصيدها .

وأدرك صاحبنا مهمته على حقيقتها . إن الدار تكتنفها الصعوبات

المالية من كل جانب ، فلا بد من قطرات من الدم في حقنة سريعة قبل التفكير في العلاج .

وذهب صاحبنا إلى « أحمد عبود (باشا) » ومعه هدية هي قطعة من أستار الكعبة عليها هذه الآية الكريمة : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » . قال : يا باشا ، إن أعمالك الاقتصادية في حاجة إلى إعلان دائم ، والدار في حاجة إلى مبلغ عاجل ، فأعطنا ثلاثين ألفاً ونحن نقدم لك خصماً كبيراً على أسعارنا ، فقبل الباشا وتسلم المدير المبلغ ، فلم يودعه في البنك خوف الحجز عليه ، وإنما أودعه خزانة حديدية في مكتبه .

وذهب صاحبنا إلى « عبد المقصود أحمد (باشا) » . وكان رئيس مجلس إدارة بنك مصر ؛ قال : يا باشا ، أنت تعرفني كمدير للمصري وتعرف خطتي في العمل . إن على أخبار اليوم للبنك ديناً كبيراً ، ولكنني لم أحضر لأسده ، بل حضرت أطلب ديناً جديداً يحيي للبنك دينه الأول فاسمح لي أن أتقدم بمذكرة أشرح فيها خطتي لتحقيق ما أقول . قال « عبد المقصود أحمد » بعد أن قرأ المذكرة : أنا أعرف أن أحوال أخبار اليوم سيئة ، ولكن ثقتي في مقدرتكم تجعلني أوافق على السلفة الجديدة .

ثم ذهب صاحبنا إلى البنك العربي ، فوجد « عبد الحميد شومان » ثائراً . قال إن أخبار اليوم قدمت للبنك « شيكات » من شركة التوزيع ، ثم ظهر أن الشركة ليست شخصية معنوية مستقلة ، وإنما هي إدارة من إدارات الدار . وقال إنه تسلم « شيكاً » على أنه من معلن ، فإذا بالمعلن مندوب من مندوبي الإعلانات قدم « الشيك » ليمكن الدار من سحب

حاجتها من الورق في انتظار ورود القيمة المقابلة ،ثم أنهى كلامه قائلاً : « نحن نريد أن نسكر الحساب » .

ولكن صاحبنا قال إنه يربأ بالبنك العربي أن يقرن اسمه بإشهار إفلاس أخبار اليوم ، وطلب مزيداً من الصبر .

على هذه الصورة عمل صاحبنا في سنته الأولى . كان كمن يسند حائطاً بالخشب والحبال ، فقد غير في الوظائف والموظفين ، واقتصد في بدلات الانتقال والتمثيل ، ورتب مع الدائنين نظاماً للدفع يضمن لهم حقوقهم ولا يرهق مالية الدار .

وكان الإمضاء على « الشيكات » لصاحبنا وحده لا يشاركه فيه حتى أصحاب الدار أنفسهم . كان مطلق اليد إلا في شيء واحد هو كل ما يتعلق بالأستاذ « محمد التابعي » . فقد تتلمذ عليه صاحبا أخبار اليوم ، ولذلك كانت كلمة « الأستاذ » لا تنصرف إلا إليه ، وكان يتسلم مرتبه بدون أن يمضي على إيصال ، فلما حاول صاحبنا تغيير الوضع رفض التابعي ثم قبل بعد إلحاح .

كان في أخبار اليوم مفهوم خاطئ للمسئولية الإدارية . فالإدارة تنحصر سلطتها في الإداريين ، أما المحررون فيخضعون في حقوقهم المالية لرئيس التحرير . هو الذي يقرر ما يخصم من ضريبة كسب العمل ، وهو الذي يحدد مدة الإجازة السنو ية لكل منهم ، ويمنحهم السلف . فلما أرادت الإدارة أن تبسط نفوذها في هذه الميادين قام الخطباء في صالة التحرير يندون بالاتجاه الجديد ، ويستفزون العزائم لمقاومته وكتب كامل الشناوي لصاحبنا خطاباً قال فيه :

« إذا كنت يا سيدي تود الاشتغال بالتحرير فإنني أهدد بالاشتغال بالإدارة . إنك وازنت بين الإيرادات والمصروفات بجمع التبرعات من المحررين ، وأحلت أخبار اليوم من مؤسسة صحفية كبرى إلى متجر كبير » .

ولكن المحررين أدركوا بعد قليل أبعاد النظام الجديد ، وسعدوا به حين توجهوا بعد شهرواحد إلى « الخزينة » فوجد كل منهم مرتبه بالجنيه والمليم في ظرف عليه اسمه .

وانصرف صاحبنا إلى زيادة التوزيع ليتمكن بعدها من زيادة حصيلة الإعلانات ، فأجرى استقصاء ميدانياً في مناطق القطر ، ليتعرف على خصائص المشترين لصحف أخبار اليوم والمشترين لصحف الدور الزميلة ، وخرج منه بذخيرة كبيرة من المعلومات أنارت السبيل أمام المسئولين عن التحرير ، فقدموا للقراء ما طلبوه من مادة تحريرية . ثم أشعل الجذوة في نفوس العاملين بتقرير حوافز للإنتاج مجزية ، فزادت الإعلانات وتحسنت سمعة الدار لدى البنوك والمتعاملين .

وكان « عبد المقصود أحمد » قد ترك بنك مصر . فلما دفع صاحبنا آخر قسط من الدين زاره في داره وقال له : « لقد كنت يا سيدي عند حسن ظنك ، وهذه مخالصة من بنك مصر » . ففرح « عبد المقصود أحمد » فرحاً شديداً وعانق صاحبنا مهنئاً .

ثم أراد صاحبنا أن يسافر إلى الخارج ليتصل بمنابع الإعلانات . فلما انتهى في المطار من الإجراءات الجمركية ، واستعد لركوب الطائرة بعد أن نقلت إليها حقائبه . سمع منادياً يناديه في المكبر أن يذهب

إلى مكتب الشرطة . ويذهب صاحبنا فيجد اسمه في سجل الممنوعين من السفر . ثم يصدر أمر بإنزال حقائبه من الطائرة . فتنتشر في المطار شائعة بأنها مملوءة ذهباً ، وأن المسافر مهرب دولي كبير . ويلطم موظف الجمارك خديه على أن صدق المسافر فلم يفتح حقائبه ، وتلتهم الأنظار شخص صاحب الحقائب لتحقق معالمه ، فترى مظاهر المكر في عينيه ، وأمارات الخيانة في وجهه ، ولكن ضابطاً يخرج فجأة فيخيب ظنهم ويفسح الطريق للمسافر ليعود إلى بيته . ثم يعرف الناس أن أمراً صدر بمنع الذين كانوا يعملون في المصري من السفر ، ومن بينهم صاحبنا .

وفي الصباح زار صاحبنا « عبد العظيم فهمي » ، وكان مديراً لمخابرات الشرطة بوزارة الداخلية . قال مدير المخابرات : « نحن نعتقد أن فيك طاقة من الوفاء لأصحاب المصري . وقد تسافر إلى أوربا فتتورط معهم في عمل لا تريده ، وأنا أريد أن أحميك من نفسك » . قال : شكرا ، ولكن لي ماضياً يمكن أن يدل على مستقبلي ، فقد كنت مديراً لجريدة المصري ، ومع ذلك فلم أكن عضواً في لجنة من لجان الوفد في وقت كان الانتساب إليه مكسباً كبيراً . ولست اليوم مضطهداً حتى أبحث عن مغامرة جديدة ، فأنا أتقاضى من عملي مرتباً هو من أكبر المرتبات في الدولة وأنا سعيد بأسرتي ، ولي طفلة لم تكمل سنتها الأولى . ومن كان هذا حاله لا يعد نفسه لعمل أحمق » . قال « عبد العظيم فهمي » : « أنا اقتنعت » . وسمح لصاحبنا بالسفر .

ثم سار كل شيء في طريقه فسعد صاحبنا بتحسن الأحوال في أخبار اليوم وتزايد ثقة صاحبيها فيه . ولكن أحد كبار المحررين بدا له يوماً أن يكتب له خطاباً جارحاً للاحتجاج على قرار إداري وجده

مجحفاً به ، فلم يزد صاحبنا على أن أمسك قلماً أحمر ــ كما كان يفعل وهو مدرس ـ وأصلح الأخطاء اللغوية الكثيرة التي وردت في الخطاب ثم حوله هكذا إلى صاحبي الدار .

ولفت نظرهما دقة صاحبنا في قواعد النحو والصرف ، وتذكرا نشأته الأزهرية فطلبا منه أن يعالج الأغلاط اللغوية في صحف الدار بالإشراف على المصححين ، ورأى أن يطمئن على مستواهم فاختبرهم في اللغة ، وخرج أحدهم يشكو من قسوة الامتحان متهكماً : « هذا المدير أين عمامته » .

وذات يوم قال الصحفي الكبير أحمد قاسم جودة لصاحبنا إن السيد حسن الشربتلي الثري السعودي ينوي إنشاء مطابع كبيرة في جدة وهو في حاجة إلى خبير يقدم له مشورته في أثناء التنفيذ . وقد ذكر له كثيرون اسمكم فهل يتسع وقتكم ؟ وتم الاتفاق على أتعاب قدرها ألف وخمسمائة جنيه يدفع ثلثها عند توقيع العقد وثلثها بعد ستة أشهر والثلث الأخير بعد ستة أشهر أخرى عند نهاية العقد . وسار كل شيء على ما يرام وتقاضى صاحبنا القسطين الأولين ولكن الشربتلي لم يدفع القسط الأخير .

وبعد مطالبات كثيرة رفع صاحبنا عليه دعوى أمام محكمة العمال في القاهرة ، وكان محامي الشربتلي هو الأستاذ حمادة الناحل ، ومحامي صاحبنا هو الأستاذ أحمد لطفي حسونة . وجاء يوم القضية فجلس الثلاثة في انتظار دورها وقال الأستاذ الناحل لصاحبنا : « يا أخي زادك الله نعمة . أفمن أجل خمسمائة جنيه تترك أعمالك الكثيرة إلى محكمة العمال ؟ » قال صاحبنا : « إذا كانت أتعاب المبلغ قد

جاءت بك إلى هنا فكيف لا يجيء بي المبلغ نفسه ؟ » وفي مثل هذا تحدثوا في إخاء حتى نودي عليهم واستأذن صاحبنا من محاميه كعادته فقال : يا حضرات القضاة :

أنا لا أستحق عطفكم وإن كنت أستحق عدالتكم . إن دخلي في السنة يصل إلى عشرة آلاف جنيه والمبلغ الذي أطالب به اليوم قليل بالنسبة إلى هذا الدخل وهو تافه بالقياس إلى ثروة المدعى عليه . ولكن السبب الذي رفعت من أجله الدعوى هوطلب الإجابة عن هذا السؤال : « هل يستطيع عامل صغير من الذين يلجأون إلى هذه المحكمة أن يأخذ حقه من مثر كبير كالشربتلي ؟ » أنا أقول : « نعم » ! ولكن الأستاذ الناحل ـ وهو محام قدير ـ يعتقد أنه يستطيع بعلمه وذكائه وخبرته أن يثير في القضية من الإشكالات والتأجيلات ما يصرف صاحب الحق عن حقه . وقد فعل ذلك معي فادعى أن محكمة المدعى عليه في جدة هي المختصة بنظر القضية ، وأنا أطالبه الآن بإبراز توكيله لترى المحكمة أنه حرر في القاهرة ولم يحرر في جدة .. وكان هذا كافياً فحكمت المحكمة لصاحبنا بالمبلغ والفوائد وحجز الأستاذ لطفي حسونة على أموال الشربتلي في بنك مصر ثم نفذ الحجز وقبض المبلغ .

وكان الشربتلي قد تبرع لقناة السويس بمائة ألف جنيه فرأى جمال عبد الناصر أن يستقبله في مكتبه وأن يسأله عن أحواله وكان مقيماً في القاهرة . قال إن كل شيء جميل لولا أن مدير أخبار اليوم قد رفع عليه دعوى . فأمر الرئيس بإيفاد عبد الحميد خيرت حكمدار القاهرة إلى صاحبنا لتعوضه الحكومة مقابل التنازل عن القضية . قال صاحبنا : إن الدعوى قد حكم فيها ونفذ الحكم . فاقترح عبد الحميد خيرت على

صاحبنا أن يرافقه في زيارة للشربتلي وألا يذكر عن القضية شيئاً فهو لا يعرف أن الحكم فيها قد صدر ولا يشعر أن ملايينه في البنك قد نقصت شيئاً ، وتمت الزيارة فتعانق المتقاضيان ودارت أكواب الشاي .

وكان صاحبنا على موعد مع القدر حين جاءه يوماً الدكتور عيسى عبده ابراهيم فقال : إن الدكتور مصطفى الحفناوي استشاره في القيمة الدفترية لقناة السويس ، وإنه علم منه أن في نية الرئيس جمال عبد الناصر أن يعلن تأميم القناة في الغد ، وفكر صاحبنا في سبق صحفي عالمي تنفرد به الأخبار ، فدخل على صاحبي الجريدة يريق الخبر في آذانهما ، ويقترح أن يسافر محمد يوسف كبير المصورين إلى الإسماعيلية ومعه أحد المخبرين ليقوما بتحقيق صحفي عن منطقة القنال . فإذا أعلن الخبر كانا في المكان المطلوب ، ولكن صاحبي الجريدة استبعدا صحة الخبر فلم يستجيبا للاقتراح . وفي اليوم التالي كان صاحبنا مع الأخوين حول جهاز الراديو يستمعون إلى خطاب الرئيس ، فإذا به يتندر ويمزح . قال أحد الأخوين لصاحبنا متهكماً : « ألا تزال تظن أن الرئيس مقدم على تأميم القناة ؟ » وبعد قليل انتقل الرئيس من المرح إلى الجد فأعلن القرار التاريخي .

كان صاحبنا لا يسعى إلى الأخبار ولكن بعض الأخبار كانت تسعى إليه بحكم وجوده في الوسط الصحفي . ومن ذلك أن أحد المحققين من رجال الجامعة كان يشرف على قسم المعلومات ، وجاءه مقال من الأستاذ عباس محمود العقاد رأى فيه اسماً لاتينياً يحتاج إلى تعديل فعدله ، وظهرت الجريدة في اليوم التالي فهاج العقاد وكتب إلى صاحبنا خطاباً جاء فيه : « قل لمصحح الجاهل ألا يستطيل قلمه على

مقالي ... » وأخفى صاحبنا الخطاب عن المحقق ، ولكنه رجاه أن يستثني العقاد من تحقيقاته ، فقال : « هل أفهم من ذلك أن العقاد غاضب من التصحيح اليسير الذي أجريته ؟ » قال صاحبنا : « نعم » ، فقال المحقق : إنني أعد العقاد أستاذي ، فلا بد أن أزوره لأعتذر له . وكان صاحبنا يعرف في العقاد حدة الطبع ، فنصح المحقق ألا يفعل .

وخرج المحقق متأثراً ، وعاد إلى مصطفى أمين مهدداً بالاستقالة إذا لم يجر تحقيقاً مع العقاد ، ولكن مصطفى أمين طيب خاطره وقال له : « إن كل ما سيترتب على التحقيق مع العقاد أنه سيؤكد رأيه فيك وسيضمني إليك في هذا الرأي » . وانتهى الموضوع .

رحم الله العقاد . لقد كان معتداً بنفسه إلى درجة المبالغة حتى إن أحد علماء الزيولوجيا كان يتحدث إليه يوماً في المجمع اللغوي فجاء على لسانه قوله : « عندنا في الزيولوجيا » فعز على العقاد أن يقول : « عندنا » ، وعقب قائلاً : « عندكم إيه يا حيوان . هل تعني أنني لا أفهم في الزيولوجيا أحسن منك ؟ » .

وجاء العقاد يوماً إلى « خزينة » الدار ليقبض مستحقاته فوجدها مقفلة ، فدخل على صاحبنا في مكتبه منفعلاً وقال : « لم أكن أعرف أنك أصبحت صاحب أخبار اليوم تقفلها حين تشاء ! » .

كان صاحبنا مطالباً ـ بحكم عمله ـ أن يتعامل مع التحرير ، وأن يسترضي كبار المحررين ، وكان يلاحظ أن الطاقات الكبيرة لها انحرافات كبيرة ، ولذلك كان يداريها إن لم يستطع معالجتها ، وظل يعمل بنجاح حتى جاء يوم في سنة ١٩٦٠ ..

لقد دق جرس التليفون مرة أخرى في إصرار ذكر صاحبنا بدقته الأولى حين أقفل المصري . وكان المتكلم هذه المرة هو « أمين شاكر » . مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر . لقد قال إن قانوناً صدر بتنظيم الصحافة ، وإن قراراً صدر بتعيين صاحبنا عضواً منتدباً وطلب منه أن يكون في مكتبه في تمام الساعة السابعة .

صدر قرار رئيس الاتحاد الاشتراكي بتعيين صاحبنا وأمين شاكر عضوين منتدبين ، على أن تكون الإمضاء مقصورة على صاحبنا ، فنشأت بينهما بسبب ذلك خلافات كثيرة أدت إلى أن يرسل له الزميل خطاباً كتب العنوان على ظرفه هكذا :

« إلى العضو المنتدب نمرة ٢ »

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن أن صاحبنا رفض تسلم الخطاب ، ولكنه فضل أن يتسلمه ويرد عليه بما يلي :

إلى السيد الزميل فلان :

« لم أصدق عيني حين وجدتك تسمح لنفسك بأن تسميني في خطابك (عضو مجلس الإدارة المنتدب نمرة ٢) لم أصدق عيني لأن من واجبنا نحن الاثنين أن نضع أنفسنا حيث أراد لنا السيد الرئيس أن نكون ـ على أنني رجعت إلى قرار تعييننا فوجدت اسمي وارداً فيه قبل اسمك والإمضاء لي دونك ، ومع ذلك فمعاذ الله أن أسمح لنفسي أن أناديك بما سمحت لنفسك أن تناديني به » .

وأرسل صاحبنا خطاب الزميل وصورة من رده عليه إلى جمال عبد الناصر فكان لهما في نفسه الأثر المطلوب .

وبناء على إيعاز هذا الزميل اجتمع مجلس الإدارة للنظر في طلبات العمال الذين تجمعوا أمام قاعة الاجتماع وهددوا بضرب أعضاء المجلس إذا لم يوافقوا على طلباتهم . وتحت الضغط وافق الأعضاء جميعاً إلا صاحبنا الذي أثبت في محضر الجلسة أن الطلبات مخالفة للقانون .

ويعلم الله أن صاحبنا كان أكثر من هذا الزميل حرصاً على مصلحة العمال ولكنه آثر القانون على الشعبية .

ثم مرت من تحت القنطرة مياه كثيرة ، ونقل صاحبنا من أخبار اليوم عضواً في مجلس إدارة الأهرام ومشرفاً على دار المعارف .

رجل الأعمال في تربية الأطفال ١٩٥٧

نحن الآن في سنة ١٩٥٧ . علي أمين يقوم بحملة واسعة في جريدة الأخبار بعنوان «اهرش رأسك» يدعو فيها القراء إلى أن يقترح كل منهم فكرة يقوم عليها مشروع بألف جنيه . ويحمل إليه البريد مئات الردود فتتكون لجنة في الدار لغربلتها وإحالة الجاد منها إلى لجنة فنية من المتخصصين في دوائر الحكومة ودوائر الأعمال . ويسفر البحث عن اختيار مشروعات أربعة :

أولها : دار لحضانة أبناء العاملات .

وثانيها : تصنيع اللوف لاستخدامه في نعال أحذية التنس .

وثالثها : بيع الماء المثلج معبأ في ورق مشمع .

ورابعها : استخدام الفسبا كتاكسي على أن تدفع أمامها أريكة تحمل اثنين من الركاب .

وتبنت أخبار اليوم المشروع الأول وهو إنشاء دار للحضانة ، وكانت السيدة نوال الدجوى هي التي تقدمت بفكرتها .

وعهد علي أمين إلى صاحبنا — وكان مديراً لأخبار اليوم — بتنفيذ المشروع وقدم ألف جنيه إليه وإلى صاحبة الفكرة بحق النصف . فحرر صاحبنا معها عقداً بذلك .

ولكن صاحبنا سرعان ما وجد المبلغ لا يكاد يكفي متطلبات

المشروع فدعا زملاءه في أخبار اليوم إلى أن يساهموا معه في زيادة رأس المال إلى ستة آلاف جنيه ففعلوا وقام المشروع باسم دار الطفل بالزمالك .

كان المفروض أول الأمر أن تفسح الدار صدرها للأطفال من سن أربعين يوماً ، ولكن رضيعاً فاجأته نوبة إسهال كادت تقضي عليه لولا أن الله سلم ، فرفعت الدار سن القبول إلى سنة ثم زادتها إلى ثلاث سنوات .

ورأت الدار أن تنفق وقت الأطفال في تعليمهم بعض الأناشيد والتمثيليات والرقصات التوقيعية ، ثم رأت أن تعطيهم فكرة عن الأحرف والأرقام . وفي نهاية العام كان ولاة الأمور قد طلبوا فتح فصل للسنة الأولى الابتدائية . فلما نجح أبناؤهم طالبوا بفتح فصل للسنة الثانية . . وهكذا حتى تمت المرحلة الابتدائية . وعز على الآباء أن ينتقل أبناؤهم إلى مدرسة أخرى ، فاستأجرت الدار مبنى للمرحلة الإعدادية ، ثم أتبعتها بالمرحلة الثانوية .

وقد كان التعليم مقصوراً على القسم العام ، فطالب أولياء الأمور بفتح قسم خاص يكون فيه التعليم باللغة الإنجليزية ، وكان لهم ما أرادوا . وبعد أن كان اسم الشركة صاحبة المدارس «دار الطفل» أصبح اسمها «دار التربية» واقتصر الاسم القديم على مرحلة الروضة والمرحلة الابتدائية ، ولم يعد رأس المال كافياً فاكتتب المساهمون في رفعه إلى عشرة آلاف جنيه . وهكذا وجد صاحبنا نفسه مسئولا عن مؤسسة تعليمية كبيرة نبتت وترعرعت واستكملت حلقاتها في عشر سنين .

ولكن كيف نجحت دار التربية فاستحقت تقدير وزراء التربية المتعاقبين ، بل استحقت تقدير وزارة الخارجية حين اختارتها دون سواها لأولاد الشهيد لومومبا بعد اغتياله والتجاء أسرته إلى القاهرة ؟ وكيف أقبل عليها أبناء ليبيا والكويت والسعودية وسائر البلاد العربية ؟

إن صاحبنا يهنئ نفسه على فكرة آمن بها من أول يوم وهي أن المؤهلات التربوية لا تكفي وحدها لخلق المربيات ، فلا بد من انتقاء الشخصيات قبل كل شيء . ولذلك تولى صاحبنا بنفسه مقابلة المتقدمات للتدريس واحدة واحدة ، فتحدث إليها وأحاط بظروفها وعرف حالتها العائلية وعدد أبنائها ، ووجه لها بعض الأسئلة المفاجئة ليقيس رد الفعل عندها . وبعد أن قام بهذه الرحلات الاستكشافية في نفوس المتقدمات انتقى منهن الصفوة الصالحة ، ورجا نوال الدجوى أن تصطنع المناسبات لزيارة كل منهن في مسكنها لتقف على درجة نظافته ، وترى أطفالها فتعرف حظهم من عنايتها .

وهنا لا بد من وقفة عند «نوال الدجوى» أو «ماما نوال» كما أصبح الأطفال ينادونها . إن هذه السيدة مربية بطبيعتها . وقد توافرت على العناية بزوجها وابنها وابنتها ولكن قدراتها كانت أوسع من هذا فامتدت إلى دار الطفل . ويبدو لصاحبنا أنها لو لم تجد مدرسة تربي فيها الأطفال لاستأجرت حديقة تربي فيها الشجر . لقد وجدت مرة تلميذة من تلميذاتها تبلل نفسها مع أنها جاوزت سن هذه المرحلة ، فدرست ظروفها وعرفت أنها فقدت أمها ، وأنها تخاف من زوجة أبيها ، فأخذتها إلى بيتها وجعلتها تنام مع أطفالها لتشعرها بالأمان إلى جوارها وتنسيها ظروفها الخاصة ، وهكذا برئت مما بها . إن المدرسة

عند نوال يجب أن تكون اجتماعية لأنها جنين المجتمع .

إن نجاح نوال الدجوى يزيد صاحبنا اقتناعاً بأن أنجح المربيات لسن بالضرورة أكثرهن علماً بالمواد التربوية . وقد بحث المركز العربي للبحوث والإدارة (اراك) عدداً من أبناء وأساتذة التربية فوجدهم أقل توفيقاً في دراستهم من التلاميذ في مجموعهم . وتتبع حياة بعض أساتذة الاجتماع فوجد منهم أستاذاً طلق مرتين وتزوج للمرة الثالثة ، ووجد تربوياً من المتخصصين في معالجة الشذوذ مكروهاً من إخوانه جميعاً ومتهماً منهم جميعاً بالشذوذ .

لقد أعد صاحبنا سجلا بتواريخ ميلاد الأطفال ، وكان يرجو نوال الدجوى أن تقوم بعد اليوم الدراسي بزيارة الأسر التي حل عيد ميلاد أطفالها فتأخذ لكل منهم «تورتة» صغيرة عليها شمعات بعدد سنوات أعمارهم وتجعلهم يطفئونها في حضرة آبائهم .

وقد جعلت نوال من مجلس الآباء أداة فعالة لاتصال المدرسة بالبيت ، فأصبحت صديقة شخصية لكل أم . وكانت تقيم في آخر كل عام حفلة تمثيلية يقوم فيها الأطفال بأدوار يعجز عن أدائها الكبار .

إن صاحبنا مدين بكثير من نجاحه لنوال ولزوجها وجيه الدجوى ، ولكنه لا ينسى نفسه فيذكر أنه كان وراء كل عمل إداري . ويكفي أنه اختار الدكتور قاسم فرحات مشرفاً على الشئون الصحية ، والأستاذ أمين عدلي مشرفاً على حركة السيارات ، والدكتور صليب بطرس مشرفاً على الشئون الحسابية ، والأستاذ يوسف سيد

مدير البعثات السابق مشرفاً على الشئون التعليمية ، والأستاذ عبدالله عبد الباري مشرفاً على العلاقات العامة . لقد جعل هؤلاء المديرون دار التربية مؤسسة نموذجية فيها انضباط في الأداء ، وهيمنة على المرافق ، فتعاونت العوامل الإدارية كلها على تهيئة الجو التربوي الصحيح .

كان المدرس حين ينتدب من وزارة التربية والتعليم إلى دار التربية يأخذ علاوتين من علاوات الدرجة التي هو فيها . وكانت المدرسة حين تدخل الفصل تلبس روباً يحفظ هيبتها ويقي ملابسها ، وكان معها مشرفة تعتني بالأطفال عناية شخصية في أثناء الدرس فتسقيهم إذا عطشوا ، وتحنو عليهم إذا شكوا ، وتساعدهم في قضاء حاجاتهم كلما احتاجوا .

وفي الوقت الذي كان فيه أصحاب المدارس الخاصة يعلنون عنها في الصحف فيذكرون النتائج التي وصلت إليها في الشهادات العامة كان صاحبنا يقول في الصحف : «هم يقولون في تعليم الحساب (١ + ١ = ٢) ، ونحن نقول : «هات يدك اليمنى وضمها إلى يدك اليسرى . إن لك الآن يدين اثنين» وهكذا مكث صاحبنا يعرض في كل يوم أسلوباً حديثاً من أساليب التعليم حتى اقتنع الآباء في النهاية بأن دار الطفل شيء آخر فوق المدارس الأخرى ، وعبر صاحبنا عن رسالة الدار فوضع لها هذا الشعار «تربي العقل والجسم والخلق» .

وأراد أن يستفيد من « عقدة الخواجة » فسماها دار الطفل

(Baby House) لتنافس English School و Manner House وكانتا تستمتعان بسمعة عالية . واختار كلمة الدار بدل المدرسة ليشعر الأطفال بالأمان .

وعندما أراد صاحبنا أن يفتتح دار التربية بالدقي للقسم الإعدادي ، حصل بصفة خاصة على أسماء الناجحين في امتحان القبول بمنطقتي الدقي والزمالك قبل إعلان النتيجة بصفة رسمية ، وكان قد طبع من قبل خطابات تهنئة فكتب أسماء أصحابها ووزعها على الفور فوصلت إلى أولياء الأمور قبل أن تعلن النتيجة بالطريق العادي ، وكان لهذه المبادرة أثرها الساحر ، فامتلأت الدار في الصباح بالآباء والأمهات يشكرون ويشاهدون الدار وشغلت جميع المقاعد من أول عام .

وكان الأطفال يجلسون في الغداء أربعة أربعة إلى مائدة صغيرة مربعة فيدور الخدم عليهم بالطعام ويغرف كل منهم بنفسه كميته من الطبق الكبير ، ثم يعاود الخدم تقديم الخبز والخضر والنشويات إلى كل من لا يزال في حاجة إلى مزيد . أما اللحوم والفاكهة فكانت تقدم مرة واحدة . وفي الساعة العاشرة يأخذ كل تلميذ كوباً من اللبن ، وفي الساعة الثالثة قبل الانصراف يأخذ شيئاً من البسكويت أو عصير الليمون .

وقد آمنت دار التربية بالاختلاط في جميع مراحلها ، فلم تفصل البنات عن البنين في القسم الثانوي ، ومع ذلك سار التعامل بينهما

في جو نظيف ساعد عليه أن الفريقين متعارفان منذ الطفولة . وقد دعت هذه التجربة الناجحة وزراء التربية والتعليم إلى محاولات مماثلة في مدارس أخرى .

ويذكر صاحبنا أن الوزارة كانت تقدم لدار الطفل في أول سنواتها إعانة مالية وفق نظام موضوع لجميع المدارس الخاصة . فلما استطاعت الدار بمواردها العادية أن تغطي نفقاتها وتحقق أرباحاً مجزية ، أرسلت كتاباً إلى الأستاذ سيد يوسف تشكر الوزارة فيه على سابق إعاناتها ، وتطلب وقفها وتحويلها إلى المدارس المحتاجة فكان هذا الخطاب أول طلب من نوعه تلقاه الوزير .

إن صاحبنا يشهد اليوم نجاح دار التربية فيعجب لأن المدارس القومية لا تزال تمد يدها إلى الحكومة . ويرى نجاح دار المعارف فيعجب لإخفاق مؤسسة التأليف والنشر . ويرى نجاح الأهرام فيعجب لتخلف بعض المؤسسات الصحفية التي كانت يوماً في المقدمة . ثم يزداد اقتناعاً بدور الإدارة في صنع النجاح .

إن صاحبنا قد باع حصته في دار التربية وتخلى عن إدارتها وهي في قمة المجد . وهو يسعد اليوم كلما رأى سياراتها تجوب شوارع العاصمة وعليها الشعار الذي اختاره للدار وهو طفل وطفلة يرحبان بمن يود الانضمام إليهما .

ثمَّ ظهرَ الأستاذ عارفٌ
١٩٦٣

لم يكن صاحبنا بمستطيع أن يفرط قيد أنملة في النجاح الذي حققه بعرق الجبين في أخبار اليوم ، ولم تكن نقابة العاملين بمستعدة أن تحسبه من الأسرة بعد أن كان يعمل مع أصحاب رأس المال . كانت النقابة تتحدث إليه باسم العاملين ، وكان صاحبنا يرد بلغة الأرقام . كانت تطالب برفع الأجور وكان يطالب برفع الإنتاج . وأخيراً ثار العمال فلم يجد بدًّا من أن يستقيل .

لن ينسى صاحبنا ثلاث صور من ذكرياته في أخبار اليوم : إحداها لإبراهيم مراد رئيس النقابة ، وهو جامع أحرف يسكن في بولاق ، لقد زاره صاحبنا مرة فوصل بالسيارة إلى أن أصبح التقدم بها متعذراً ، وانحرف يساراً في طريق متعرج ، ثم يميناً في طريق منحدر ، ثم استقام به الطريق إلى أمام حتى انسد ، فعرف أنه وصل إلى حيث يسكن إبراهيم مراد ! هذا الرجل كان يختلف مع صاحبنا كثيراً في الرأي ، وكان كلما زاد خلافه معه زاد احترامه له ، لأنه لم يطلب منه يوماً علاوة لنفسه أو لأحد أبنائه . كان يهاجم الإدارة بالحق وأحياناً بالباطل . وكان يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ولكنه كان في هجومه نزيهاً بغير حدود ، مخلصاً في حدود ما يرى . وقد بحث صاحبنا عن منزله بعد أن ترك أخبار اليوم ليعبر له عن تقديره لنزاهته .

والصورة الثانية لعضو في النقابة كان عاملا بالجراح ، يجيد الإثارة ، ويلوك بين شدقيه كلمات : الانطلاق ، وأرضية المفهوم ، واللجنة المنبثقة ، دون أن يفهم دلالاتها ! ولكنه أصبح عن طريق ذلك موظفاً كتابياً — وذات مساء دخل صاحبنا إلى بيته فوجد في الظلام شبحاً . كان عضو النقابة واقفاً في ركن في مدخل العمارة ، فلما رأى صاحبنا انحنى يقبل كتفيه ويردد : «أنا خدامك . إنك إذا أعطيتني خمسة جنيهات علاوة فسأكون نصيرك على الدوام في خلافك مع النقابة ، بل سأضرب من يخالفك من الأعضاء» . وأبدى صاحبنا امتعاضه ، ثم صعد إلى مسكنه . وكانت النتيجة مؤتمراً كبيراً عقد بعد يومين في نادي أخبار اليوم لمحاسبة المدير على تقصيره في حق العمال . وخطب فيه عضو النقابة هذا فقال إنه لا يفهم أن ترفض الإدارة سلفة قدرها ثلاثة جنيهات لأحد العمال إذا كان لها في البنك ربع مليون جنيه . وحين يدعي المدير أن المبلغ مخصص لشراء آلة طباعة من الخارج فإن النقابة تتهمه بالمغالطة ، لأن المبلغ بالجنيه المصري وثمن الآلة تدفعه مراقبة النقد بالإسترليني ! أما المدير فقد خرج من المؤسسة ، وأما عضو النقابة فقد أصبح من رجال التحرير !

والصورة الثالثة لأحد السعاة ، لقد اعتدى بالشتم على إحدى المحررات ، فنقله صاحبنا من القسم الذي يعمل فيه ، وحقد الساعي على صاحبنا ، فانتهز فرصة وفاة ولده بعد خروج صاحبنا من أخبار اليوم وكتب له خطاباً جاء فيه .

لقد ذهبت أمس لأسير في جنازة ولدك . وقد تظن أنني كنت

أجاملك ، ولكن الواقع أنني أردت أن أتشفى فيك . فلما رأيت عينيك لا تدمعان قلت : يا لله ! إن هذا الرجل قدّ قلبه من حجر فهو لا يرق حتى لابنه !

ودارت الأيام . . فانتدب صاحبنا من جديد مشرفاً على أخبار اليوم بعد استقالته منها ، فتوقع الساعي شرًّا ، وجاء يقبّل الأعتاب . فدعا له صاحبنا بالسعادة ليطهر قلبه من الحقد .

استقال صاحبنا من أخبار اليوم ، ليوفق بين ما يراه واجباً كمدير ، وما يجده ضروريًّا من النزول عند رأي الأغلبية . لم يكن أمامه إلا أن يترك فراغه لمن يستطيع أن يملأه خيراً منه . وأراد محمد حسنين هيكل أن يكرمه فجمع مجلس إدارة الأهرام ليدعوه لقبول عضويته . ومن الجلسة اتصل هيكل تليفونيًّا بصاحبنا ليبلغه رغبة المجلس . وفي غمرة هذا التكريم نسي صاحبنا ما أصابه من خدوش في معركة الدفاع عن أخبار اليوم .

ومن الأهرام أشرف على دار المعارف ، فوجد في عمله الجديد اختلافاً كبيراً . لقد كان يعد الجريدة متأخرة إذا صدرت بعد ربع ساعة من موعدها ، فأصبح يرى الكتاب يصدر بعد ثلاثة أشهر أو أربعة . وكان يحسب توزيع الصحف بمئات الألوف ، فأصبح يحسب توزيع الكتب بالألوف فقط بل بالمئات . وكان يعمل مع مجموعة من الصحفيين يتصفون بسرعة الحركة وكثرة الإنتاج ، فأصبح يتعاون مع مجموعة من المؤلفين يتميزون بالعمق في التفكير والدقة في إبداء الرأي . وقد ترك أخبار اليوم وهي كبيرة منتعشة ليجد دار المعارف أصغر حجماً وأكبر سمعة .

بدأ صاحبنا عمله في دار المعارف فابتدع للإعلان عنها شخصية رمزية سماها الأستاذ عارف . والأستاذ عارف مفتوح الرأس على شكل كتاب لأنه من طلاب المعرفة . وهو متزوج من سيدة متعلمة تدعى «منار» والمنار هو الشعار الذي اتخذته لنفسها دار المعارف منذ زمن بعيد ولهما طفلان هما إبراهيم وسعاد .

والأستاذ عارف يتحدث إلى القراء في المناسبات فيهنئ طه حسين بأعياد ميلاده ، ويرثي عباس العقاد حين اختاره الله إلى جواره ، ويرحب بالمؤتمرات الأدبية والعلمية التي تعقد في القاهرة ، ويتحدث عن التحسينات في دار المعارف كلما أدخلت منها شيئاً . أما منار فتتحدث عن كتب المرأة من طهو وتريكو ، وأما إبراهيم وسعاد فيتحدثان عن كتب الأطفال .

وقد اقتصر صاحبنا على الصحف في الإعلان لأنه يرى أن قراءها هم الوعاء الواسع لقراء الكتاب . إن الطالب يبحث عن المعلومات الدراسية في كتبه المقررة ، ويبحث عن المعلومات العامة في المجلات الأسبوعية ليطالع صورها واستطلاعاتها ويضحك لنكتها وفكاهاتها ، حتى إذا بدأ يتابع الشئون العامة أقبل على قراءة الجرائد اليومية ، فإذا أراد أن يتعمق موضوعاً بذاته قرأه في كتاب .

وقد وجد صاحبنا كتب الدار مقصورة على الثقافة العربية فسعى إلى ربطها بالثقافة الأجنبية ، ووجد كتب الأطفال قريبة من كتب المطالعة تعنى باللغة أكثر من عنايتها بالمحتوى . ولذلك أصدر جديداً من الكتب في أسلوب أسهل وإمتاع أكبر ، وتمشى مع السن فجعل من كتب الأطفال «روشتات طبية» إن مشكلة الطفل عندنا أنه لا

يتكلم اللغة الفصحى فهو يتعلمها كما يتعلم اللغة الإنجليزية ، ولذلك لا بد من الملاءمة في التأليف بين مستوى الأسلوب ومستوى المعرفة .

وحين استهل صاحبنا عمله في دار المعارف واجهته مشكلة مستعصية هي خلاف كبير بين دار المعارف بمصر ودار المعارف لبنان . فالأولى تساهم بالربع في الثانية ولها عليها نحو مائتي ألف جنيه مصري تنكرها الشركة اللبنانية . وسافر صاحبنا مع رفيق مقصود المحامي لمقابلة رئيس مجلس إدارة الشركة اللبنانية ، فقابلهما هذا في صلف ، وقال : إن المؤسسة المصرية هي المدينة بنحو سبعين ألف جنيه ، ولكنه تلطف فاستقبلهما في منزله وكان رفيق مقصود حاد الذكاء فلمح من فتحة الباب سكرتيرة صاحب الدار وهي تعد الشاي في الداخل بملابسها الداخلية فاستنتج من ذلك أنها على علاقة شخصية برئيسها ، فهي إذن ليست على خُلق . وفي الصباح اتصل بها تليفونيًّا في المكتب ودعاها إليه واتفق معها على مساعدته في مهمته مقابل أجر اتفقا عليه . وجاءت السكرتيرة في المساء ومعها مجموعة من الدفاتر فيها الحسابات الجارية بين الدارين ، وقيمة الكتب المهربة من مصر ، وعكف صاحبنا على بحثها حتى استخلص منها المبلغ الإجمالي الذي يطالب به ، ثم اختفت السكرتيرة بعد أن قبضت ثمن الخيانة .

وأشرقت الشمس بنور ربها ، فجلست ضاربةٌ على الآلة الكاتبة في الفندق تعد بضع نسخ من مذكرة رقمية فيها كل شيء . وفي الساعة العاشرة من الصباح نفسه كان رفيق مقصود وصاحبنا يجلسان مع محامي الشركة اللبنانية ورئيس مجلس إدارتها في شرفة فندق

سان جورج ليطلعاهما على المذكرة وفيها أرقام صفحات الدفاتر وصور فوتوغرافية لهذه الصفحات ، فاتضح لهما أنه لا حل إلا بالتفاهم . وتم التفاهم على التنازل لدار المعارف بمصر عن ثلاثة أرباع الأسهم مقابل الدين وبذلك آلت الشركة اللبنانية كلها إلى دار المعارف بمصر .

ترى هل أخطأ صاحبنا حين استفاد من خيانة السكرتيرة ؟ لقد استرد لبلاده نحو ربع مليون ليرة ، ولكنه علم فيما بعد أن لبنان ضاق بالسكرتيرة فغادرته إلى كندا .

إن صاحبنا كرجل أعمال استفاد من الفرصة المتاحة ولكنه لا يدري كيف يحكم رجال الأخلاق على هذا التصرف ؟

ولما أصبح صاحبنا بحكم عمله مسئولا عن قسم النشر في دار المعارف بمصر ، وفيه مجلس من كبار الكتاب والعلماء ، قرر المجلس نشر كتابين يملآن فراغاً كبيراً في العالم العربي ، هما «محيط العلوم» و «محيط الفنون» ، فصدر الكتابان بأقلام صفوة من الجامعيين ، ولكنهما لم يصادفا رواجاً يذكر برغم قيمتهما العلمية الكبرى . إنهما كتابان للمثقفين غير المتخصصين ، ولكن يبدو أن المثقفين من القلة بحيث لا يجد الكتابان من يشتريهما .

وتأمل صاحبنا عشرة آلاف مؤلَّف أصدرتها دار المعارف خلال ثمانين عاماً ، فخرج منها بنتيجة غريبة ، هي أنه لو قيل إن رواج الكتب يتناسب تناسباً طردياً مع قيمتها لكان هذا أبعد عن الصواب مما لو قيل إنه يتناسب تناسباً عكسياً مع هذه القيمة . لقد كانت الدار

تستمد الفائض طول عمرها من الكتب المدرسية والقصصية والأدبية وكتب الأطفال لتنفق منه على كتب العلم .

وهكذا أدرك صاحبنا لماذا يختلف الجامعيون مع دور النشر . فالعلماء يحكمون على مؤلفاتهم بمقدار ما فيها من مادة علمية ، على حين يحكم الناشرون عليها بمقدار ما ينتظرها من رواج ، فقد يكون المؤلف ذا قيمة ذاتية كبيرة ، ولكن قيمته السوقية محل نظر !

إن أحد الأساتذة في كلية الحقوق كان يتقاضى عن مؤلفه نسبة عالية ، فلما رقي مديراً للجامعة أنقص الناشر هذه النسبة إلى أقل من النصف ، لأن المؤلف لم يعد يضع الامتحان لتلاميذه ، فلم يعودوا يشترون كتابه .

ومن عجب أن أحد المؤلفين النابهين جاء يوماً إلى مكتب صاحبنا دون موعد سابق فاعتذرت له السكرتيرة بأن المدير مشغول بزائرين آخرين ، فخرج المؤلف هائجاً وذهب إلى أول تليفون صادفه فاتصل بصاحبنا ليقول :

— ما هذا الاستعلاء ؟ إن دار المعارف مثل شيكوريل يجب أن تكون مستعدة على الدوام لاستقبال زائريها منذ أن تفتح أبوابها .
— إذا صح أن مكتبات دار المعارف تقابل محل شيكوريل فإن مدير دار المعارف يقابل مدير شيكوريل . والمقابلات في الحالتين تكون بميعاد .
— لا . إنني أدخل على الوزراء دون ميعاد فكيف تطلب لنفسك ما لا يطلبه الوزراء ؟

ـــ أنا لا أطلب لنفسي شيئاً . ولكني أرى في اختيارك موعد الزيارة دون الاتفاق عليه معي استئثاراً بالذات وفرضاً لوقتك على وقتي ، والعدل يقضي بأن نتفق على موعد يناسبنا نحن الاثنين .

ولم ينجح هذا المنطق ـــ على بساطته ـــ في إقناع المؤلف . مع أن كتبه من أكثر كتب الدار رواجاً .

ومن أعلام المؤلفين من باع حق التأليف باللغة العربية لدار المعارف دون سواها ، ثم باعه مرة أخرى لناشر في بيروت . واعتقد صاحبنا أن الناشر الآخر مقلد فرفع عليه دعوى أمام القضاء اللبناني وإذا هو يبرز العقد الذي بينه وبين المؤلف المصري الكبير ! وشك صاحبنا في صحة التوقيع فعاد إلى القاهرة وسأل المؤلف إن كان قد وقع عقداً في لبنان بعد عقد القاهرة فرد بالإيجاب وقال : «أنا يا سيدي لا أستطيع أن أمنع الثقافة عن أحد !»

إن المؤلفين المصريين يتسربون إلى لبنان . وصاحبنا لا يلومهم بقدر ما يلوم وزارة الاقتصاد في مصر لأنها لا تعطيهم جزءاً من حقوقهم بالعملات الحرة .

وقد فتح صاحبنا منافذ النشر في دار المعارف على جميع الثقافات والأديان ، فترجم الكتب الروسية والكتب الأمريكية ، ونشر تفسير القرآن وتفسير الإنجيل . ذلك أن الثقافة للناس جميعاً فليس من حقه أن يفرض نفسه على القراء . إن عليه أن ينتقي المادة الطيبة في كل فرع من فروع المعرفة ثم يرسلها إرسالا فيرى ناس أن ما فيها صحيح ويرى ناس أن ما فيها يستحق التعليق ، ولكنهم جميعاً يرون أنها

تستحق القراءة ، ثم يخرجون بعد قراءتها وقد أعملوا فكرهم في معانيها ، وتمثلت المعاني في أذهانهم ثقافة خالصة .

وبمثل هذه الروح فتح صاحبنا مكتبات الدار لكتب الناشرين الآخرين . إن القارئ يرفض أن يحرم نفسه من حرية الاختيار ، فهو يتجه إلى المكتبة التي فيها أكبر مجموعة من الكتب في كل فرع من فروع الثقافة . وعرض الكتاب المنافس مع كتاب الدار فرصة لدراسة السوق واختبار لنواحي القوة ونواحي الضعف في مؤلفات الدار ومؤلفات الآخرين .

ومن حسن الحظ أن على رأس النشر في الدار شاعراً كبيراً هو في الوقت نفسه رجل أعمال ... وعادل الغضبان يتخذ من الشعر هواية ، ومن التعامل مع المؤلفين مهنة ؛ ومن الغريب أنه يستطيع الجمع في عمله بين الحقيقة والخيال .

أما اسماعيل شوقي فهو المدير الفني للمطابع . وهو يعمل فيها كالآلة في أقصى سرعتها ، فإذا أراد التغيير انكب على متن مطبوع ليصحح أسلوبه ، وإذا أراد الترويح عن نفسه جمع بين العملين في وقت واحد !

لقد نجح صاحبنا بنجاح زملائه في دار المعارف ، وتوج زملاؤه في الدور الأخرى هذا النجاح حين انتخبوه أول رئيس لاتحاد الناشرين ولكنه اكتشف أن وزارة الثقافة التي أنشأت الاتحاد لم تعترف به من الناحية العملية ، فاستقال بعد سنة واحدة من تولي الرياسة . وهو يدعو كل رئيس أن يستقيل من عمله إن وجد أنه لم يعد فيه منتجاً .

لقد رأى صاحبنا أن ينقل إلى الأطفال في العالم العربي ثقافة الغرب فترجم باسم دار المعارف لبنان عدداً كبيراً من الكتب الفرنسية والانجليزية والإيطالية والاسبانية . وهو يعتقد أن مستقبل دار المعارف في النشر المشترك ولذلك يدعو إلى ترجمة الموسوعات الأجنبية والخرئط والأطالس والمعاجم .

أراكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ

١٩٦٥

هكذا يتندر الناس كلما سمعوا اسم (اراك) وهو مختصر (المركز العربي للبحوث والإدارة) ، فيبتهج صاحبنا لأنه يرى في هذا التندر نجاحاً للاسم الذي اختاره .

و (اراك) أصبح حلماً لصاحبنا بعد أن قام ببحثه الميداني لدار الهلال في سنة ١٩٤٢ ، فقد علم بالبحث إنجليزي كان مديراً لشركة في القاهرة تستورد الصابون ومعجون الأسنان ، فقال لصاحبنا إنه لا يؤمن بالبحوث الميدانية في مصر ، لأن أهلها يكذبون ، فقد قام باستقصاء عن عدد الذين ينظفون أسنانهم بالمعجون فأسفر عن أن أكثر من نصف السكان يفعلون ذلك ، وهو ليس بصحيح إذ أن المستورد كله من معجون الأسنان لا يزيد على طنين في العام وهو لا يصنع في مصر .

واطلع صاحبنا على الأسئلة التي وجهت للناس فوجد أولها هكذا : هل تنظف أسنانك كل يوم ؟ فرفع عينيه عن الورقة إلى وجه الإنجليزي قائلاً : « هذا السؤال يا سيدي هو المسئول عن النتيجة الكاذبة التي وصلت إليها . إنك استثرت كرامات الناس بهذا السؤال ، فجاءت إجاباتهم تدافع عنها . إنني أقترح أن يكون السؤال : هل ترى أن تنظيف الأسنان بالمعجون والفرشاة ضروري ؟ » قال : وما الفرق ؟ قال صاحبنا : « إن سؤالك يسأل المستهلك عن نفسه ، وسؤالي يسأله عن

رأيه . سؤالك محرج ، وسؤالي لا إحراج فيه . وإذا كان المستهلك لا يرى ضرورة في استخدام المعجون والفرشاة فلك أن تستنتج أنه لا يستعملها » . واقتنع الإنجليزي بخبرة صاحبنا ، فطلب منه أن يقوم بالاستقصاء من جديد ، وجاءت النتائج منسجمة مع أرقام الاستيراد ، وعاد الاستقصاء على المدير الإنجليزي بتوجيهات طورت سياسته التسويقية . وعاد على صاحبنا بسمعة زكته للقيام باستقصاء كبير للكوكا كولا .

كان ذلك في سنة ١٩٥٠ ، وكانت الكوكا كولا قد غزت سوق المشروبات الخفيفة ، فرأى الأمريكيون المشرفون عليها في القاهرة أن يستزيدوا من انتشارها بتعمق نواحيها التسويقية . وتقدم أحد الأساتذة المصريين بعرض قدر فيه أتعابه بثلثمائة جنيه ، وتقدم صاحبنا بعرض آخر قدر فيه أتعابه بثلاثة آلاف ، فقبل الأمريكان العرض الثاني ! والذي أنشأ الفرق الكبير بين أتعاب صاحبنا عن استقصاء دار الهلال الذي لم يصل إلى مائة جنيه وأتعابه عن استقصاء الكوكا كولا ، هو أنه كان مدرساً بخمسة وعشرين جنيهاً في الشهر ، فأصبح عضواً منتدباً لشركة الإعلانات الشرقية ، ومديراً لجريدة المصري بخمسة آلاف جنيه في السنة .

ولا ينسى صاحبنا أن أحد الباحثين معه استوقف سيدة في الطريق العام وسألها عما تشربه ، فظنت به سوءاً وصفعته أمام رجل الشرطة ، فقاده هذا إلى القسم بتهمة معاكسة السيدات ! لقد بذل صاحبنا جهداً كبيراً في إقناع المأمور أن الباحث لم يكن يريد من السيدة إلا أن تخبره بأنها تشرب كوكا كولا أو تفضل عصير الليمون !

وفي سنة ١٩٥١ قام صاحبنا ببحث ميداني عن قراء الصحف ظهر منه أن أحب كاتب للقراء في الأهرام هو « أحمد الصاوي محمد » وأحب كاتب في دار الهلال هو « فكري أباظة » ، وأحب كاتب في المصري هو « عبد الرحمن الخميسي » ! ودخل صاحبنا بهذه النتيجة على صاحب المصري ، وكان الخميسي قد طلب منه علاوة رفضها ، فلما وقف على مكانته بين القراء طلب من صاحبنا أن يمنحه العلاوة دون أن يقول إنه رجع فيها لأحد . ودخل الخميسي على صاحبنا شاكراً ومحذراً بأنه سبق أن عرض الأمر على صاحب المصري فلم يوافق عليه فلبس صاحبنا مسوح الأسد وقال للخميسي : « إذا كان صاحب المصري ملكاً فإنني رئيس الوزراء . إنه يستطيع أن يقيلني ، ولكنه لا يستطيع التدخل في عملي . إني مدير وهو ممول ، فعلاقتي به لا تزيد على علاقتي ببنك مصر . هل يتدخل البنك في أعمال الجريدة ؟ » فخرج الخميسي وهو يؤكد لكل من يقابله أن مدير المصري هو أقوى شخصية في الجريدة . إنه أقوى من صاحبها .

وفي سنة ١٩٥٥ قام صاحبنا ببحث كبير عن قراء صحف أخبار اليوم ، فأثبت البحث أن « أنيس منصور » من أحب الكتاب للقراء ، فأوفده صاحبا الدار في رحلة صحفية حول العالم ، وأثبت البحث أن مجلة « الجيل الجديد » لا مكان لها في السوق فتقرر وقفها .

ثم قام (ارالك) في مستهل سنة ١٩٦٥ فكشفت بحوثه عن حقائق تقتضي كثيراً من التعامل . منها أن قراء الثقافة العامة أغلبهم من طلاب الجامعات ومدرسي التعليم الثانوي ، وأن العزاب يقرءون أكثر من المتزوجين ، وأن متوسطي الدخل يقرءون أكثر من الأغنياء ، وأن

الشباب يقرءون أكثر من الشيوخ ، وأن المتخصصين في مجموعهم لا يقبلون على الثقافة العامة ، وإنما يقبلون على القراءة فيما تخصصوا فيه .

وقد أثبت البحث أن قرية غالبية سكانها من الأقباط في الوجه القبلي تقرأ الكتب الإسلامية . فلما شك صاحبنا في هذه النتيجة أرسل مستقصين جدداً ، فإذا هم يؤكدون النتائج الأولى بل يزيدون عليها أن أهل القرية يشتركون مع المسلمين في الاحتفال بمولد النبي ... نتيجة تبدو غريبة ولكنها صحيحة !

وقد أشار صاحبنا يوماً على مصنع للصابون النابلسي أن يجعل أطراف القطع مستديرة بعد أن كانت مدببة حتى لا تؤذي الأيدي عند الغسيل ، فنقصت المبيعات نقصاً مفاجئاً . وقد تبين بعد الاستقصاء أن المستهلكين رأوا تدوير الأطراف انتقاصاً من حجم الصابون ، مع أنه كان يباع بالوزن ! ... نتيجة غير منطقية ولكنها صحيحة !

وكان في شارع تحت الربع محل صغير للأحذية يتردد عليه شيوخ الأزهر فيتربعون على حشية من القطن ويقيسون المراكيب ، وقد بدا لصاحبنا أن يرفع المستوى فأشار على صاحب المحل أن يضيئه بالنيون فيزوده بكنبة وحامل خشبي يستقبل أقدام الشيوخ فإذا الشيوخ يفرون من المحل ! ولعن صاحبه يوم عرف صاحبنا وعاد إلى حشيته .. نتيجة أخرى غير منطقية ولكنها صحيحة !

لقد وجد صاحبنا أن المنطق فيما تقدم كان من صنعه ، فقد تشكل وفق رأيه في ربط المقدمات بالنتائج ، وقد يكون الربط في ظروف مختلفة ولذلك يجيء البناء غير صحيح في حقيقته ، وإن كانت عليه مسحة الحق . أما الواقع فهو صادق أبداً لأنه الحقيقة نفسها . والواقع

إذا ترجم في ظروف الشخص وأهدافه فإنه يكون منطقياً سليماً .

إن صاحبنا أصبح بعد هذه التجربة يعجب لمديري الأعمال الذين يبنون قراراتهم على المنطق وحده لا على الواقع فتجيء النتائج مخيبة لمنطقهم . إنهم حين يتخذون المنطق أساساً لقراراتهم يفترضون أن البائعين والمستهلكين والوسطاء منطقيون ، وهم ليسوا كذلك ، فهم بشر يحبون ويكرهون ، وعلى قدر حبهم وكرههم تجيء تصرفاتهم .

إن صاحبنا وهو يجري بحثه عن معجون الأسنان في القاهرة كان يعرف أن معجوناً آخر انتشر في أمريكا حتى أصبحت مبيعاته تمثل ستين في المائة من مبيعات المعاجين جميعاً ، ولما سئل المستهلكون عن سبب تفضيلهم المعجون الرائج قالوا : إنه مطهر ؛ وهو سبب ظاهر البطلان ؛ لأنهم لا يستطيعون الحكم على مدى تطهيره لأسنانهم . لقد وضع الإعلان في أفواههم هذه الحجة فرددوها .

وقد راجت سيجارة رواجاً كبيراً في إنجلترا ، فأراد مكتب للأبحاث أن يستقصي أسباب هذا الرواج ، وقدم لبضع مئات من المستهلكين ست سجائر غير معلمة طلب من كل منهم أن يخرج من بينها سيجارته المفضلة فأخفق أكثر من تسعين في المائة . وأكبر الظن أن المصادفة لعبت دورها مع بعض الناجحين . لم يبق إذن إلا أن المستهلكين يدخنون صورة ذهنية تكونت بفعل التعود .

وقد أراد أحد الباحثين في أمريكا أن يقف على فعل الإيحاء في الناس ، فقال في جمع منهم إن لديه نوعاً قوياً من البن جاء من اليمن ، وإنه يريد التثبت من مدى تأثيره في النوم ، فأعطى كلاً منهم عينة ليشرب قهوته منها ، فلم ينم القوم ، وعادوا يقولون إن البن مملوء

بالكافيين مع أن الواقع أن الكافيين كان منزوعاً منه !

وبعد مدة جاءهم يقول إن لديه مسحوقاً من البن مقوى بمواد تفيد الصحة ولكنها تدعو إلى النوم ، وهو يريد التأكد من مدى تأثير هذا البن فيهم ، فنام معظمهم نوماً عميقاً ، مع أن البن كان مملوءاً بالكافيين !

إن صاحبنا يذكر أن صحف أخبار اليوم أشادت كثيراً بدواء هـ ٣ لمدام أصلان وأثره في إعادة الشباب بعد أن أخذ منه أحمد لطفي السيد وهو في سن التسعين ست حقن فتمكن من الوقوف وقد كان عاجزاً عنه . وبعد أن شفي عبدالحميد حمزة مدير الكمبيالات في بنك مصر من صدفية كانت تكسو وجهه ، ولما اختلف الناس في أمر هذا الدواء أجرى الدكتور بول غليونجي الأستاذ بالقصر العيني تجربة في مستشفى الجمهورية على اثني عشر مريضاً فقسمهم إلى نصفين وأعطى الدواء للنصف الأول وأعطى ماء مقطراً للنصف الثاني فجاءت النتيجة مذهلة إذ شفي اثنان من القسم الأول وشفي ثلاثة من القسم الثاني ! إن الإيحاء هو الذي فعل فعله .

إن صاحبنا يضع في ذهنه هذه الأمثال وهو يقوم برسالته في (اراك) فلا يضع سؤالاً موجهاً حين يستفسر عن شيء ، ولا يبدي استغرابه إذا جاءت الإجابة عنه غير منتظرة . إنه يحب الإنصات لأن الإنصات أداة الباحث في الوصول إلى الحق ويؤمن بقول من قال : إن الله خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين اثنتين ليسمع ضعف ما يتكلم . ولكنه تعلم الكلام في سنتين بعد ولادته ، ولا يزال وقد تعدى الستين من عمره يروض نفسه على مزيد من الإنصات !

إن الإنصات إذا كان ضرورياً لجمع المعلومات ، فإن المعلومات ضرورية لتكوين الآراء ، ومن بين الآراء يطل القرار . وقديماً قال اليازجي : « بريق الحقائق من احتكاك الآراء » .

إن تنظيم الأعمال في (اراك) يقابل وضع برامج الدراسة في معاهد العلم ، والمدير يقابل المدرس . وقد كره صاحبنا دروس اللغة العربية في إحدى سنوات المدرسة الخديوية لأن مدرسه أراد تعنيفه مرة فبحث عن صورة بلاغية مبتذلة وقال : « أنت من شجرة نبتت على مرحاض » وأراد مرة أن يتظرف في استخدام التورية مع آخر فقال : « أنت من بيت أدب » ولكن صاحبنا أقبل على اللغة العربية في السنة التالية حين جاءه مدرس من كبار رجال التربية على نحو ما روي في فصل متقدم .

التنظيم وحده لا يكفي إذن لأنه لا يستطيع مواجهة كافة الاحتمالات ولذلك فإن (اراك) كالمهندس الذي يقيم البيت ويحدد مواضع الغرف ثم يبقى على صاحب البيت إذا زاره ضيف يريد المبيت أن يدبر له مكاناً مناسباً ولو في غرفة المكتب . إن صاحبنا لو تصور نظاماً كاملاً لقال إنه النظام الذي يسير تلقائياً دون تدخل المدير ، ولكن مثل هذا النظام غير ممكن التحقيق فلا بد من تدريب الإدارة على مواجهة المشكلات .

وقد قام في (اراك) قسم كبير للتدريب ذو شعبتين : إحداهما تناقش موضوعات بذاتها كالتسويق ونظم الإنتاج والتسعير والتكاليف. والأخرى قطاعية تجمع المهندسين والبائعين والمحاسبين في كل صناعة ليطرحوا مشاكلها الخاصة وليلتقوا عند مفهوم واحد هو القاسم المشترك

الأعظم لاتجاهاتهم المختلفة . وفي هذا قام الدكتور عاطف عبيد بوضع برامج إدارية للمهندسين ، وقام المهندس الدكتور أسامة الخولي بوضع برامج هندسية لغيرهم .

ولكن هل يعتقد صاحبنا أن تدريب (اراك) ـ برغم تفوقه ـ أنتج في الإدارة المصرية ما هو معقود عليه من آمال ؟ إن المشترك في التدريب يكمل البرنامج فيتحمس لإدخال كثير من التحسينات على نظام شركته ، ولكنه بمجرد أن يعود إليها يتوه في دوامة الروتين والقطاع العام ، ويصطدم بتعليمات الأجهزة الضابطة فيؤثر السلامة ويدس الأوراق التي أمامه بين مكتبه وأرنبة أنفه على الفور ، ثم يعمل القلم فيها كالمعتاد !

وقد نجح (اراك) فمد نشاطه إلى العراق وليبيا والكويت وبيروت والخرطوم . وصاحبنا ينوي فتح فرع له في السعودية ولكنه يعتمد في ذلك كله على حسن جاد ، ذلك الذي كان يوماً مديراً للتخطيط في شركة مصر للبترول فتركها ليعمل بحق النصف مع صاحبنا في (اراك) .

إن حسن جاد خبير في انتقاء الخبراء لكل عملية بخصوصها وتوقيت الحصول على ما يريده من كل منهم ليقدم التقرير النهائي في الوقت المحدد . إنه أنموذج لما تحتاج إليه التقنية من إدارة .

وهو اليوم يتتلمذ على تلاميذه

لكل إنسان في عمره مراحل ثلاث : مرحلة أولى يكون فيها رأس ماله ، ومرحلة وسطى يقرض فيها تلاميذه ، ومرحلة ثالثة يسترد فيها ما أقرضه .

ولكن صاحبنا كان يقرض في مرحلته الوسطى ويسترد ، بل لعله استرد ديونه من تلاميذه أضعافاً مضاعفة حين تسلق على أكتافهم إلى حيث أراد الله له أن يكون . ولكنهم في مرحلته الثالثة لا يزالون يعاملونه على أنهم مدينون له ، فهم يحيطونه بالعرفان ، ويضعون أنفسهم في خدمته كلما بحث ، ويكملون خبرته بعلمهم الجديد كلما طلب المشورة .

وإذا كان من الناس من يختزن المعلومات دون هضم ، فإن منهم من يختزنها بعد أن تتمثل في نفسه ثقافة خالصة ، ولكنه يخاف عليها من الضوء فلا يفاعلها بمعلومات الآخرين ، ومنهم من يصب ثقافته في بوتقة الحياة ، فيخرج منها بمشروعات اقتصادية ، ومبادئ سياسية ، وأصول أخلاقية ، وأسلحة فتاكة .

ولا يعرف صاحبنا مكانه من هذه المجموعات الثلاث ، ولكنه يعرف أنه تفاعل مع عدد مرموق من رجال الإدارة ورجال العلم في مجال الصحافة والأبحاث . وهو يداعب بعضهم بهذه الصور القلمية .

أمين عدلي ـ العضو المنتدب لمؤسسة أخبار اليوم

مدني الأخلاق عسكري النزعة . إذا تحدث عن عمله زمجر في كبرياء ، وإذا تحدث عن نفسه اغرورقت عيناه في تواضع . يحارب دفاعاً عن كل شبر من أرض الجريدة التي يعمل فيها ، ويحسب النسخ التي باعها في الصباح ، فإذا وجد فيها زيادة باعد بين شدقيه ليضحك طول النهار ، وإذا وجد فيها نقصاً فتش الأرض عمن كان السبب .

في سنة ١٩٤٣ كان في الصبح موظفاً في مجلس الشيوخ ، وبعد الظهر محاسباً بجريدة المصري . وانتدب صاحبنا من الجامعة خبيراً بالجريدة ، فلم يجد من يدله على طريق الإصلاح غير أمين عدلي . وهم صاحبنا أن يعينه رئيساً للحسابات لولا أن رآه صغير السن .

وكان ماهر فراج هو الذي يوزع الجريدة بطريقة بدائية ، فرأى صاحبنا أن ينشئ مكتباً للتوزيع كان نواة لشركة التوزيع المصرية ، ثم لشركة توزيع الأخبار . وكان أمين عدلي هو الرأس الفني الذي كفل نجاح المشروعات الثلاثة .

ناظر مدرسة تخرج فيها كثيرون من رجال التوزيع . له من اسمه نصيب كامل ، فهو أمين لا فضل له في أمانته ، لأنها طبع وليست تطبعاً .

د . حسين الغمري ـ رئيس مجلس إدارة الشركة القومية للتوزيع

عصامي كبير . بدأ حياته العملية بالشهادة الثانوية مندوباً للبيع في إحدى الشركات ، وفيها انتسب لكلية التجارة فحصل على البكالوريوس .

وأعلنت مؤسسة الأخبار عن حاجتها إلى رئيس لقسم الاشتراكات

فاستجاب حسين الغمري ، وطلب أربعين جنيهاً كمرتب ، ولكن صاحبنا بعد أن قابله زاد المبلغ من تلقاء نفسه إلى خمسين .

وتقلب حسين في مناصب المؤسسة ، كما تنقل من البكالوريوس إلى الماجستير إلى الدكتوراه ، حتى انتقل صاحبنا إلى دار المعارف فعرض عليه أن ينتقل معه مديراً للتوزيع . ولكن حسين اعتذر ، فاستعان عليه صاحبنا بصديق فقبل . وفي دار المعارف تولى منصبه فتألق .

جمع خبرته من بيع الشاي وتوزيع الصحف والكتب ، ومن الإشراف على الحسابات والإعلان بالبريد والعقل الإلكتروني وجمع علمه من التحضير للشهادات والتحضير للمحاضرات في الجامعة والمعاهد فتألف لديه من هذا كله مزيج إداري متعادل .

توحي قامته الطويلة بأنه لا يعرف مكر القصار ، ولكن الواقع أنه قصيران في قامة واحدة !

د . صليب بطرس ـ بالسفارة الأمريكية

قطار سكة حديد ، يسير على قضيبين فلا يحيد ، يتحدث في المحاسبة بلغة القانون ، ويتحدث في القانون بلغة الأرقام ، ولذلك يرتاح إليه المحامون والمحاسبون على السواء .

كان يعمل في الأربعينات مع محمود درويش بوزارة المالية ، وشارك معه في إخراج الجنيه المصري من دائرة الإسترليني . وكان يعمل في الوقت نفسه بجريدة المصري محاسباً بعد الظهر فلما جاء صاحبنا خبيراً وجد عنده خبرة بالمحاسبة والاقتصاد والقانون والضرائب وشئون

الورق والنقد ، فأقنعه بالاستقالة من الحكومة ، واستعان به في تنظيم المصري ثم نقله معه إلى أخبار اليوم ، فشغل منصب المستشار الفني وبرع فيه .

أراد يوماً أن يتخفف من صداقة صاحبنا فلم يمكنه من ذلك ، والصداقة عقد بين طرفين ، فلا يستطيع طرف أن ينهيها إلا بموافقة الطرف الآخر . لم يوافق صاحبنا لأنه مدين له بجهوده في الدفاع عنه وعن إخوانه مديري أخبار اليوم حين أحيلوا جميعاً إلى النيابة الإدارية في سنة ١٩٦٠ .

شديد الوفاء . شديد الحساسية . إذا أحبّ وهب ، وإذا عتب غضب ، ولكنه كثير الأصدقاء ؛ لأنه لا يحب الانتقام .

خدم الإدارة الصحفية في أكثر من ميدان ، ولعله أكثر الإداريين انتشاراً في الصحافة المصرية . ولكنه يؤثر منصب المستشار على منصب المدير وقد يكون ذلك لأنه المستشار الفني الوحيد !

طلعت الزهيري ـ مدير الإعلانات بأخبار اليوم

رأس مرفوع على قامة قصيرة . خبرة واسعة وباع طويل استغلهما في الإعلان والطباعة فظفر بتقدير المعلنين . يكتب المذكرة فيربط فيها الأسلوب بالمنطق والرقم ، ويرسلها فتصيب من تشاء ، وقد ترتد إليه فتجرحه ، ولكنه سعيد بها على أي حال لأنها تعبر بدقة عما يراه حقاً .

التقى به صاحبنا في فناء المعهد العالي للعلوم المالية والتجارية ، وكان قد تخرج فيه لتوه ، فأخذه في سيارته إلى شارع جلال ، وعينه محاسباً

بشركة الإعلانات المصرية ، وبعد سنوات قليلة خرج اليهود من الشركة ، فخلا فيها منصب رئيس الحسابات ، واختاره صاحبنا لملء المنصب ، فلم يخب ظنه فيه . فقد عمل بالليل والنهار حتى ملأ الفراغ وهو لما يزل صغير السن .

وجاء مع صاحبنا إلى أخبار اليوم وكيلاً لإعلانات الأخبار ، ثم مديراً لها ، فلمع كإداري وكمحاسب ، ثم أحب العمل في السوق بعد ذلك فنجح ولكن الصفة الغالبة بقيت أنه مدير .

إليه يرجع معظم الفضل في نجاح الإعلان بالبريد . وقد كان عبد العزيز فريد هو الذي أشعل قنديل الزيت ، فجاء طلعت الزهيري وأضاء الكهرباء . ولا تزال الكهرباء في حاجة إلى أسلاك ومصابيح .

قيمة كبيرة لم تستنفد دنيا الاعلان كل طاقتها على الانتاج .

عبد الحميد حمروش ـ العضو المنتدب لدار التحرير

مدير يحب الإصغاء لأن فيه بحثاً عن الحلول ، ومجاملة للعملاء . هو من القليلين الذين يفرقون بين المنافسة والعلاقة الشخصية ، وهو يعرف طريقه إلى صيده فيسلكه في سكون دون أن يشتبك في مناقشات ومناوشات فرعية .

جاء من كلية التجارة إلى شركة الإعلانات المصرية وكانت ملأى باليهود ، فوجد فيه صاحبنا مادة طيبة لمصري ناجح ، وعينه في قسم التحصيل .

ولمع على الفور ، فلما جاء موعد العلاوات حصل على علاوة تزيد على ما حصلت عليه زميلة عينت قبله بشهرين . وغضبت الزميلة ثم

لم تجد وسيلة للتعبير عن غضبها إلا أن تستقيل من عملها وتتزوجه ... وهما الآن زوجان من أسعد الأزواج .

واستقال صاحبنا من شركة الإعلانات المصرية ، وتعاقب عليها مديرون كثيرون ، فكان عبد الحميد حمروش موضع تقديرهم على السواء ، وارتقى في مناصب دار التحرير حتى أصبح عضواً منتدباً لها .

وقف من المركز العربي للبحوث والإدارة موقف المعارضة الصريحة، وأعلن أن مهمته كمدير لدار التحرير هي أن يدافع عن الجمهورية ظالمة أو مظلومة لا أن يكون قاضياً بينها وبين الصحف الأخرى . فاحترم صاحبنا هذا المنطق وزاد احترامه لصاحبه .

لا يعرف صاحبنا مديراً أرهق المحاسبة وإدارة الأعمال بالاستعمال مثلما أرهقهما عبد الحميد حمروش . إنه يهرش رأسه في كل دقيقة ليدفع الشر عن داره ، ولعله قد نجح !

عبد الغني عبد الفتاح ـ رئيس جهاز المحاسبة بالاتحاد الاشتراكي

عملاق عريض المنكبين . يحده شمالاً رأس كبير فوق وجه مستدير . ويحده جنوباً قدمان كبيرتان يضرب بهما الأرض لتفسح له الطريق . ومن الشرق والغرب ساعدان يصلحان لمصارع .

دخل الإدارة من باب الحسابات . ولذلك يفضل النسب المئوية في التقارير على الصفات وأفعل التفضيل . ولكنه حين يبيع يرسل الحديث في همس ويطوع الأرقام لمنطق الصفقات .

كان وكيل إدارة في أخبار اليوم . وطلب إحسان عبد القدوس رئيس مجلس إدارة روز اليوسف من صاحبنا أن يزكي له مديراً للإدارة ،

فاختار عبد الغني عبد الفتاح . ولكن عبد الغني تردد ، فألح عليه صاحبنا حتى قبل ، وكان القبول بداية عمل خلاق فقد أصبح في روز اليوسف مدرسة إدارية .

عصامي دخل سوق الوظائف بالشهادة الثانوية ، ثم انتسب لكلية التجارة ، فحصل على البكالوريوس ، وأصبح إلى جانب عمله الإداري محاسباً وخبير ضرائب . ولما تولى شئون روز اليوسف تعمق في شئون الطباعة وجدد فيها .

وفيّ لزملائه ورؤسائه القدامى . يزورهم كلما استطاع ، ويأخذ السوق منهم كلما استطاع أيضاً !

صديق لدود لرجال التحرير . يريد أن يخضعهم لقيود المطابع ، وهم يصرون على أنهم ليسوا صواميل ولو كره المديرون !

عبد الله عبد الباري ــ المدير العام لمؤسسة الأهرام

قوام ممشوق وصوت خشن . أدب جم وتعامل لا يعرف الرحمة . شباب العشرين وخبرة الثمانين ، ولذلك امتد في وجهه أنف طويل على فم دقيق ليرسم علامة تعجب من هذا الخلط والمزج !

جاء في سنة ١٩٤٩ إلى شركة الإعلانات المصرية ، وكان مندوباً لشركة مصر للطيران في مطار ألماظة ، فما إن رآه صاحبنا حتى عرض عليه أن يعمل معه محرراً في المكتب الفني ؛ وقبل العرض . وكان في المكتب خطاط يتولى رياسته . ففزع من النفوذ الذي أصبح لهذا الوافد الجديد . يمسك بسماعة التليفون فيأتي بالإعلان من مصدره في القاهرة أو في فرشوط . وشكا الخطاط من أن الإدارة لا تتصل في شئون

المكتب برئيسه وإنما تتصل بعبد الله عبد الباري ، فرأى صاحبنا أن يصحح الوضع وعين عبد الله رئيساً ، فخرج الرئيس السابق إلى دار أخرى .

وسعد المكتب برئيسه الجديد ، ولكن الرئيس لم يسعد بالعمل المكتبي ، فجاء إلى صاحبنا يعرض أن يعمل مساعد مندوب ، ومنذ خرج إلى السوق عرف كيف يخاطب القلوب فيصل إلى الجيوب .

يجوب الدنيا بحثاً عن المعلنين وقد أغرق صفحات الأهرام بالمساحات المحجوزة ، وأغرق السوق بالبضائع المستوردة .

هو اليوم أحسن بائع للإعلان في العالم العربي ، فهو يبيع وهو يتنفس مستعيناً بلغات ثلاث ، وخبرة كبيرة بالناس وسحر في التعبير والتصوير .

د . فؤاد شريف ـ في ذمة الله

غابة على شكل شنب ، وعناد يعبر عن نفسه في صوت خفيض فتحسبه دبلوماسية أصيلة ، وقامة قصيرة تحمل دماغاً كبيراً في إدارة الأعمال .

كان تلميذاً لصاحبنا في جامعة فاروق ، وعاد من أمريكا بعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو . وبعد قليل من التدريس في كلية التجارة بجامعة القاهرة وثب إلى مركز علمي خطير هو رئيس مجلس إدارة المعهد القومي للإدارة العليا . وبعد قليل هجره إلى مركز خطير آخر هو المستشار الاقتصادي لهيئة الأمم المتحدة ومعه زوجة وخمسة أولاد .

وقد بلغ من وفائه لرسالته وهو رئيس للمعهد القومي أنه لم يرفض طلب صاحبنا حين دعاه أن يكون عضواً في المجلس الاستشاري لـ (اراك) ، بل أخذ مكانه في رعايته مع الدكتور حسن توفيق والدكتور حسن حسين والدكتور مصطفى زهير والدكتور إبراهيم سعد الدين .

قاد يوماً حركة التدريب الإداري في الجمهورية العربية المتحدة ، فوقع الخلاف بينه وبين كليات التجارة في أيهما أحق بالتدريب . ولكن وزارة التعليم العالي عادت فاعترفت بمكانته حين عينته عضواً في لجنة الترقية لكرسي الأستاذية .

ترك منصبه في هيئة الأمم وتولى الوزارة ليصلح الإدارة ولكنه دار في طاحونتها فطحنته .

د . مصطفى زهير ـ العميد السابق لكلية التجارة بجامعة عين شمس

عقل كبير في جسم نحيل . وقد تعب الجسم في مراد العقل ، فجعل يشكو ويئن .

كان تلميذاً لصاحبنا في المعهد العالي للعلوم المالية والتجارية ، فأصبح أستاذه في بحوث التسويق . فيه تواضع العلماء وعزوف الأنبياء. ولذلك لم ينافسه أستاذ حين جاءت إليه العمادة فعرضت نفسها عليه .

لجأ إليه صاحبنا في بحث ميداني عن نوع قراء المصري ، ولجأ إليه في بحث آخر عن صحف أخباراليوم ، ثم عرض عليه عضوية المجلس الاستشاري في المركز العربي للبحوث والإدارة فاستجاب دائماً كعالم باحث ، لا كرجل أعمال مستغل .

وصاحبنا يشهد كعضو في لجنة الترقية لكرسي الأستاذية أن أحداً من الأعضاء لم يناقش ترقية مصطفى زهير أستاذاً في إدارة الأعمال بعد الاطلاع على بحوثه . فقد انعقد إجماع الأعضاء في اللحظة التي تلاقت فيها نظراتهم ، وكأنهم يقولون في نفس واحد : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » !

وصاحبنا عضو في مجلس القطاع التجاري للجامعات ، والدكتور زهير عضو في هذا المجلس . وزمالتهما تعطي صاحبنا إشباعاً من نوع خاص يصل إلى منتهاه حين يتحدث زهير في صوت خفيض مستأذناً على الأسماع قبل أن يصب فيها خلاصات نقية من أبحاث اللجان التي يشترك فيها .

ليته يعطي السوق بعض ما يعطي الجامعة !

مِن وَحيِ السِّتّين

لم يكن صاحبنا يدري ما فعلت به الأيام حتى سافر مع زوجته إلى لندن بعد أن بلغ الستين فخطر لهما أن يزورا مسكنهما الذي كانا فيه منذ أكثر من ثلاثين سنة حين كان صاحبنا عضواً في البعثة وكانت امرأته معه .

كان صاحبنا يقطع المسافة من مسكنه إلى محطة المترو ذهاباً وعودة صباحاً ومساءً فلا يجد في ذلك عناء . ولكنهما حين أرادا أن يقطعا هذه المسافة في هذه المرة خيل لهما أن البيت انتقل من مكانه ، أو أنهما أخطآ طريقهما إليه . فقد بلغ منهما التعب مبلغه ، وعدلا عن العودة لمحطة المترو سيراً على الأقدام كما كانا يفعلان من قبل .

جعلا يدوران حول المنزل : هنا كنت استذكر دروسي ، وفي هذه الحديقة كان طفلي يلعب ، ومن هذا الشارع كنا نمر إلى السوق .. وفيما هما يعتصران ذكرياتهما رأتهما سيدة عجوز في البيت المقابل . قالت لقرينها إنها تذكر هذين الزوجين ، فقد كانا هنا منذ مدة طويلة ، وكان معهما غلام . فاستكثر عليها هذه الحدة في الذاكرة . وخرج يتمسح بصاحبنا قائلاً : « هل أستطيع أن أساعدك يا سيدي ؟ » قال : « شكراً ، لقد جئت أستعيد ذكرياتي منذ ثلاثين سنة في هذا البيت » . فصرخ الرجل مهنئاً نفسه بذاكرة زوجته ، ودعا الزوجين إلى فنجان قهوة معهما .

إن صاحبنا أتم في نوفمبر ١٩٦٨ ستين سنة من عمره الذي لا يدري أيطول أم ينتهي قبل شهر . لقد مر على مولده هذا العمر فترك كل يوم منه أثره في تجاعيد الوجه ، وبياض الشعر ونظرة العين . ولم تفلح قطع الغيار من نظارة وأسنان صناعية في استعادة ما ضاع من نور عينيه وقدرة فكيه ، فقد أخذت زيادته في النقص ونقصه في الزيادة .

يقول إبراهيم زيدان :

لقد كان كالليل شعري فلما ... مضى الليل أشرق صبح المشيب

كذلك يتلو المساء صباح ... ويحلو سنا البدر بعد المغيب

لبدء الحياة ختام ولا بد ... للشمس إن بزغت أن تغيب

ومن قبله قال الشاعر القديم :

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب !

وصاحبنا يشكو شيخوخته إلى شبابه مع هذا الشاعر ، فقد كان يجري إلى مستقبله وهو أمامه ، ثم أصبح يمشي والمستقبل خلفه ، كان يفكر بقلبه ، فأصبح يحب بعقله ، كان يبتسم للدنيا فتضحك له ، ولكن ابتسامته بهتت مع الأيام ، فلم تعد تجذب هذه اللعوب . كان بمفرده خفيفاً يهرول ، فأصبح مثقل الكاهل بما حوله من عيال وما فوقه من أعباء .

ولكن هل الصورة قاتمة إلى هذا الحد ؟ كلا ، إن في الشيخوخة جمالاً لا يعرفه الشباب . فالحب بعد الستين من النوع المتقد غير المشبوب ، هو كالنبيذ المعتق يزكو طعمه بين الزوجين بفعل السنين . والحكمة بعد الستين تجعل الفرد ينعم بالحياة على مهل كأنما يمضغها

مضغاً . والصداقة بين الشيوخ تاريخ حافل وتقدير متبادل ، فهي تنتج عن تلازم طويل وتنبع من وفاء مقيم . وحياة الأسرة تاج على رأس عميدها لا يراه إلا من فاته القطار فلم يكمل نصف دينه . في مثل هذا يفكر صاحبنا وهو يبعد عن الستين ، ثم يرجع بذاكرته إلى وراء .

ترى هل كان خيراً توافره على العمل الإداري طول حياته وانشغاله عن العمل السياسي ؟ إنه ليس نادماً على هذا ، وليس فخوراً به . فقد كره السياسة فتركها ، وأحب الإدارة فأقبل عليها . والناس في الدنيا يتصرفون حسبما يحبون ويكرهون ، ثم تجيء عقولهم فتضفي على ميولهم اعتبارات منطقية هي في الحقيقة مسوغات وليست أسباباً .

لقد نشأ صاحبنا في بيئة أزهرية فيها خطب ومظاهرات . كان من الممكن أن تسلمه إلى العمل الصاخب ، ولكن أباه فرض على طفولته نوعاً من التسليم بالواقع ، والانصياع لمن هم أكبر منه ، فانصبت شخصيته في قالب من الرتابة يصلح للإدارة ولا يصلح للسياسة .

وهل كان صاحبنا حراً في اختيار مهنته الإدارية ؟ لقد كان ممكناً أن يصبح أزهرياً ، ولكن قريبه استشار والده فأدخله المدرسة . وكان من الممكن أن يكون مهندساً أو طبيباً ولكن مجموعه لم يمكنه من ذلك ، وكان من الممكن أن يدخل مدرسة المعلمين فرسب في الكشف الطبي ، وكان من الممكن ألا يدخل مدرسة التجارة العليا فأسعفه معاون المدرسة . لقد كان سفره إلى إنجلترا بفعل الظروف ، وعمله في المصري طارئاً . ونجاحه فيه من صنع السماء . ولم يكن ليعمل مديراً في أخبار اليوم لو لم يقفل المصري أبوابه . ولم يكن ليسعد بهذه السيدة

التي تزوجها لو لم تخلق الحياة بينهما توافقاً خاصاً .

« كل ميسر لما خلق له » ! هكذا يؤمن . وكل سنة مرت من عمره زادت هذا المعنى رسوخاً في نفسه ، ولذلك لم يستبد به الغرور كثيراً في إثر نجاح حققه ، ولا استبد به الأسف كثيراً على خير فاته . كان يؤمن دائماً بأن العامل في الدنيا كالسابح في المحيط . لا بد أن يتعلم السباحة لكي يعوم ، ولكن موجة عاتية قد تداهمه برغم ذلك فتغرقه .

وهل ينسى أن ولده تخرج في كلية الهندسة بالقاهرة ، ثم في أكبر معهد بسويسرا ، وعاد زينة المهندسين ، ثم أوفدته شركته إلى ألمانيا في عمل كبير ، فسافر بالطائرة جالساً في مقعد مع المسافرين ، وعاد بالطائرة مسجى في صندوق مع أمتعتهم ؟ إن والده لم يعبر عن حزنه عليه بغير التسليم ، ولكن هذه الفلسفة لم تتحكم في آرائه ولم تغير في تصرفاته .

كان يتقبل بسهولة ما يقال له من خرافات تنسب إلى الدين ، ومن كرامات تشد إلى الأولياء فأصبح يطالب نفسه بالتفكير .

أما ميوله فظلت في جوهرها واحدة . إنه يحب القراءة ، لأنه لا يشبع من المعرفة ، ولا يحفل كثيراً بما يذاع في الراديو أو في التليفزيون . وهو يغشى دور السينما أحياناً تضامناً مع زوجته وابنته ، ولكنه يشهد الفيلم فلا يرجو من الله إلا أن ينعم عليه بنعمة الخلاص منه . وهو يأكل الطعام الأوربي ولكنه لا يفضل شيئاً على الثريد واللحم المسلوق ، وبينه وبين مستخرجات الفول حب ، ولكنه مفقود ،

لأنه أصبح عسر الهضم على معدته . وفي خلقه صرامة موروثة تسيء إليه أحياناً فيحاول التخلص منها ، ولكنها مركبة في أعماق نفسه .

ولما تحررت آراؤه أصبح لا يفرق في عمله وصداقته بين مختلف الأديان . كان سكرتيره في شركة الإعلانات مسيحياً ، وزملاؤه من اليهود ، وكان الداخل إليه في أخبار اليوم يمر في طريقه بآنسة قبطية ورجل يهودي ، وقد علق على ذلك مرة أحد المتعصبين فقال : إن هذا المدير وهو مسلم لا يحب المسلمين ، فسأله أحد الحاضرين مستغرباً : « ومتى أسلم مدير أخبار اليوم ؟ »

كان يتمثل بقول محيي الدين بن عربي :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

لقد أنفق صاحبنا صدر حياته قريباً من الأزهر والأزهرين ، فكان يتمنى دائماً لو ظهر من بين علمائهم مجتهد جديد ـ وباب الاجتهاد مفتوح ـ يعيد كتابة الدين في حدود القرآن والحديث بما يوفق بين المذاهب الأربعة ، ويتمشى مع تطور العصر . إن الدين الإسلامي

ينشر لواءه في إفريقيا وآسيا ، وصاحبنا يريد أن يرى ألويته في أوربا وأمريكا . وقد فرح بإنشاء جامعة الأزهر . لأنه يرى أن العالم الديني لا غنى له عن لغة العلم ، فالدين أهداف والعلم أساليب .

وقد سمع صاحبنا مع أعضاء كثيرين في نادي الروتاري بهليوبوليس الشيخ أحمد الباقوري ـ وكان يحاضرهم بعد الإفطار في رمضان الأسبق ـ أن « أبا حنيفة النعمان » أفتى بأن الخمر هو ما استخلص من عصير العنب ، وهو الذي يصدق فيه أن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، أما ما اصطلح الناس على تسميته نبيذاً كعمر الخيام في مصر ، وكالعرق في لبنان فهو حرام . والويسكي في الاصطلاح الشرعي نبيذ لأنه ليس مستخرجاً من عصير العنب ، فشاربه إذا انتشى لا يرتكب محرماً ، وإنما يرتكب المحرم إذا سكر . وعرض صاحبنا هذه الفتوى في محاضرة له بجمعية العلاقات العامة بالقاهرة فاستغربها كثيرون من الحاضرين . ثم نقلها للصديقين : الدكتور محمد كامل حسين (رحمه الله) ، والدكتور محمد سليمان (أستاذ الطب الشرعي بجامعة القاهرة سابقاً) وهما عضوان في المجمع اللغوي ، فوافقا على أن ما نسب إلى أبي حنيفة صحيح ، وإن كان لم يقل به الشيخان ، ثم أضافا أن أبا حنيفة سئل إن كان يقبل شراب النبيذ فقال ما معناه إنه لا يرضى ذلك لنفسه .

ولقد رجع صاحبنا في هذا إلى فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق فأحاله إلى كتابه « فتاوى شرعية وبحوث إسلامية » الجزء ١ ـ ٢ وقد جاء فيه فيما يتعلق بالمسكر والخمر:

« عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجة وفي رواية مسلم: « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » .

وجاء فيه أيضاً :

« وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر ويسمونها بغير اسمها » (رواه ابن ماجة) .

ويتابع فضيلة المفتي السابق كلامه فيقول :

« وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به « وهو من أعلام النبوة» فقدسمى الناس في الأزمنة الأخيرة الخمر بأسماء استحدثوها كالويسكي والروم والبيرة والكونياك وما إلى ذلك مما ابتدعوه في الأسماء لما حرمه الله سبحانه في المسميات » .

* * *

وقد سمع صاحبنا أن تنظيم النسل حرام ، وسمع أنه حلال ، سمع أن التأمين حرام ، وسمع أنه حلال . بل سمع أن الموسيقى وإقامة التماثيل من المحرمات .

أما تعدد الزوجات وضربهن فقد أفتى بعض رجال الدين بأنهما حقان لا يجوز لمن يمارسهما أن يسيء استعمالهما . في حين اتجه آخرون إلى أنهما رخصتان مطلقتان .

وأفتى بعض رجال الدين بأن المرأة لا يجوز لها أن تسفر عن شعرها أو أظافرها وإلا ارتكبت محرماً ، في حين اتجه البعض الآخر إلى أن الهدف هو عدم إثارة الفتنة ، فالفلاحة التي تكشف عن وجهها وساعديها

وهي تعمل بالمحراث لا ترتكب محرماً ، ولكن التي تهز نفسها في الطريق العام بقصد الإثارة ترتكب محرماً ولو كانت متدثرة .

ورأى صاحبنا المسلمين في جاكرتا يغشون المساجد ويحرصون على أداء الصلاة والحج ، ولكنهم يحلون كثيراً مما نحرمه ، فلما سألهم في ذلك قالوا إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ! وقد فرح صاحبنا حين عرف أن الأزهر بعث عدداً من رجاله إلى أندونيسيا لتصحيح ما اشتبه على أهلها .

وهناك أمور استحدثت في النصف الثاني من القرن العشرين كركوب الطائرات . إن في الطائرات ماء ولكن الوضوء فيها غير ممكن ، وليس فيها تراب فالتيمم غير ممكن ، فكيف تكون الصلاة ؟

كان السفر على ظهور الإبل لعدد قليل من الفراسخ يجيز الإفطار في رمضان ، لأن هذه المسافة كانت تستغرق بضع ساعات ، فأصبحت تستغرق بالطائرات دقيقة واحدة ، وبالقطارات السريعة بضع دقائق ، فهل يجوز للصائم مع ذلك أن يفطر ؟

والفدية للمضطر كانت قدراً صغيراً من البر أفلا يزال هذا المقدار يكفي في سنة ١٩٧٢ ، أم يحسن النظر في رفعه عيناً أو نقداً رعاية لارتفاع مستوى الدخل ؟

إن صاحبنا يعرض هذه الأمثلة الخلافية ، ولا يدعي لنفسه أهلية الإفتاء فيها ، وإنما يدعو إلى مؤتمر إسلامي كهذا الذي عقد أخيراً في طرابلس الغرب ليقول كلمته في كل منها .

وأنفق صاحبنا سنوات من عمره في التعليم الجامعي . وهو لا

يستطيع أن يقنع نفسه حتى الآن بأن تكافؤ الفرص يعني أن تمضي الدولة في الإنفاق على الطالب في الجامعة مهما طال بقاؤه فيها . إن الذي يستحق رعايتها هو الطالب الناجح . أما الذي يرسب فعليه أن يدفع المصروفات . ثم إن الدولة أعطت التعليم الجامعي من عنايتها أكثر مما أعطت التعليم الفني ، فنشأ هذا الفراغ الذي نحسه في الكفايات .

إن الجامعات ضاقت بطلابها ، وعجزت عن تعليمهم بعد أن صارت تحشر كل ألف في مدرج ، وتسمح لخمسين طالباً أن يستديروا حول مريض واحد يفتح فمه ، فيحاولون مشاهدة ضرسه والطبيب يخلعه . لقد أصبح يجدر بشهادات التخرج أن تذكر أن فلاناً أمضى خمس سنوات في كلية كذا بدل أن تقول إنه تخرج فيها .

إن صاحبنا يقترح على الدولة أن تفتح معاهد عملية يدخلها التلاميذ بعد الإعدادية ، فيتخرجون فيها سباكين أو برادين أو لحامين أو ميكانيكيين أو كهربائيين أو عمال تليفون . فالتلميذ إذا دخل المرحلة الثانوية أصبح من حقه أن يدخل معهداً عالياً أو كلية ، لأنه إذا لم يدخل تعطل ، وما دامت الدولة لا تستطيع توفير الأماكن لجميع التلاميذ في الجامعات فعليها أن تنشئ طرقاً فرعية في مرحلة مبكرة تخفف الضغط على الطريق العام .

إن الرئيس الخالد جمال عبد الناصر أقام السد العالي في أسوان ولم يقمه في دمياط ، وكما حفظ السد العالي مياه النيل من أن تذهب بدداً في البحر ، كذلك تهيئ هذه المعاهد العملية لتلاميذها أمكنتهم ، وتحمي الجامعات من التراحم ، وهو اتجاه يستند إلى الكفاية ولا يخل بمبدأ تكافؤ الفرص ، ويسد فراغاً قائماً في الصناعة ، ويخفف زحاماً

هائلاًعلى الكليات ، خصوصاً بعد أن تعهدت الدولة بتوظيف خريجيها سنوياً في شركات القطاع العام .

وترك صاحبنا عمله في الجامعة إلى الصحافة فازداد إيمانه بوظيفتها الكبرى ، ولكنه ود لو أصبح كل محرر فنياً في ميدانه ، فلا يكون مندوب الجريدة في وزارة التعليم العالي إلا جامعياً ، ولا يكون مندوبها في وزارة الصحة إلا من خريجي الطب أو الصيدلة . وفي وزارة الاقتصاد أو الخزانة أو التموين إلا من خريجي التجارة أو الحقوق .

إن المندوبين يختارون لصلاتهم بمنابع الأخبار ، وبعض المحررين يعتمدون على رشاقة الأسلوب أكثر من اعتمادهم على المادة العلمية . إن أحد المحررين كتب يوماً في جريدته عن قانون صدر فأثنى عليه وبشر بنتائجه الاقتصادية الطيبة ، ثم قابل صاحبنا في نفس اليوم يسأله عن الحكمة من إصدار هذا القانون !

لقد صدق أنطون الجميل حين قال : « إن الصحافة تتطلب من الصحفي عقل فيلسوف ، وقلب شاعر ، وضمير قاض . ولا مانع ـ بعد ذلك ـ أن يكون الصحفي صاحب قلم » .

والصحفيون ـ وصاحبنا منهم ـ يتمتعون بمزايا قد تقتضيها طبيعة عملهم في الانتقال واستخدام التليفون ، ويتمتعون بمزايا أخرى شخصية لا يجد صاحبنا مسوغاً لها . منها ألا تخصم من مرتباتهم نسبة حين يتغيبون بسبب المرض على خلاف سائر العاملين . ومنها أن إجازاتهم شهر في السنة ، على حين يستحق العاملون معهم في نفس الدار أربعة عشر يوماً فقط . إن هذه الطائفية في الصحافة قد آن لها أن تزول في ظل

الاشتراكية . كما يجب أن تزول في الجامعة امتيازات أبناء الأساتذة في دخول الكليات .

وصاحبنا يلاحظ أن توزيع المجلات المصرية قد نقص كثيراً في البلاد العربية لأنها لا تعنى بشئون العالم العربي عنايتها بالشئون المحلية ولأنها تنافس الجرائد اليومية في إبراز الحوادث الساخنة فلا يتسع الوقت أمامها للتجويد في الطباعة والألوان . ولأنها كانت تهاجم البلاد العربية التي تختلف في سياستها مع مصر فتتعرض للمصادرة .

وصاحبنا يرى أن تعنى المجلات المصرية بالاستطلاعات لا بالأخبار الساخنة ، وبالشئون الاجتماعية قبل الشئون السياسية ، وأن تهتم بالأخبار العربية اهتمامها بالأخبار المصرية ، ثم تترك للجرائد اليومية مهمة الهجوم والدفاع . كما يرى صاحبنا أن القاهرة ملأى بآلات الطباعة الكليلة التي لم تعد تصلح لمنافسة المطابع الأجنبية . وهذه المطابع لا يكفي أن تصان لكي تبقى عاملة بل لا بد من العدول عنها إلى آلات أحدث ، ثم تذهب الآلات القديمة إلى المحافظات حيث تساعد على إنشاء وحدات إعلامية تنشر صحفاً محلية تعنى بالزراعة وبنك التسليف وحوادث المحافظات وأخبار المحافظين فتنمي الوعي المحلي .

وانتقل صاحبنا من الصحافة إلى صناعة الكتب ، فراعه أن الناشرين يعنون بمادة الكتاب ولا يعنون بإخراجه وتسويقه . إن الكتاب سلعة ولو كره النظريون . والسلعة شكل ومحتوى ، والطلب عليها مشتق من شكلها ومحتواها .

إن عدم الاهتمام بتوفير الورق والحبر وآلات الطباعة الحديثة للكتاب المصري أثر في رواجه خارج جمهورية مصر العربية فنزل توزيعه إلى ما يعادل عشرين في المائة من مجموع الكتب العربية ، ولو كانت المادة وحدها كافية لبقي الكتاب المصري في مكانته الأولى .

والذي يدعو صاحبنا إلى هذا النظر إيمانه بأن العمل الناجح هو الذي يزيد الإنتاج ، فالإنتاج هو وعاء الحقوق ، والحقوق هي وعاء السعادة .

إن صاحبنا بهذا الإيمان يلقي نظرة راضية على ماضيه ، ونظرة باسمة على حاضره ، ونظرة مطمئنة إلى أيامه الباقية ، ثم يرفع بصره إلى السماء راجياً أن يوفق الله كل داعية إلى أن يسأل نفسه هذا السؤال :

هل من شأن هذا الذي أدعو إليه أن يزيد الإنتاج ؟

مِن وَحي السَّبعين

عندما أصبح صاحبنا على عتبة السبعين لاحظ أن الجنس اللطيف بدأ يسرف في مجاملته بل تقبيله دون خشية ، وسمع معارفه يبالغون في تحيته فيقولون إن زوجاتهم وبناتهم معجبون بشباب الروح والقلب في شخصه . وحزن صاحبنا لأن معنى ذلك أنه أصبح من النوع الذي « لا يؤذي » وأن الناس يتحدثون عن شباب الروح والقلب بعد أن افتقد صاحبنا شباب العمر .

ونازعته إلى الخلد نفسه كما يقول شوقي فردد أن عقله لا يزال قادراً على أن يتتلمذ على تلاميذه فهو لا يزال ينمو ، وأن عباس العقاد سئل يوماً « هل تود أن تعود شاباً ؟ » فقال « لا . لقد عشت حياة الحمق وأريد الآن أن أعيش حياة العقل » وأن السبعين لا تهم ما دام المرض لم يدخل جسمه بعد ولكن صوتاً من الداخل انطلق يقول « قصر ديل يا أزعر » .

ردد كل هذا ولكن الواقع لم يعبأ بهذا المنطق وفرض نفسه على تصرفاته فهو لم يعد يقوى على الفول والفلافل مع أنه يحبهما . ولم يعد يأكل البيض والسكريات لأن الأطباء نهوه عنهما ، واقتصر طعامه في المساء على الجبن والفاكهة لأن معدته أصبحت أعجز من أن تواجه ثلاث وجبات كاملة . وقد كان يجلس في الحدائق العامة بلندن ليستذكر دروسه وهو طالب ودرجة البرودة ثلاثون تحت الصفر

فاصبح اليوم لا يحتمل برد القاهرة في الشتاء فيتدثر بالصوف خمسة أشهر في السنة .

إن هذه هي الطبعة الرابعة من ذكرياته العارية تصدر في سنة ١٩٧٩ وقد صدرت الطبعة الأولى في أكتوبر ١٩٧١ فهل طرأ خلال هذه السنوات جديد يستحق التسجيل ؟

نعم فقد ترك صاحبنا صناعة الكتاب في دار المعارف إلى صناعة الصحافة للمرة الثالثة ، وترك رياسة أراك إلى رياسة المجموعة الإستشارية للشرق الأوسط . فأصبح في وقت واحد عضواً منتدباً للأهرام ورئيساً لمجلس إدارة شركة أقلام جافة ، ورئيساً لشركة نشر وتوزيع في بيروت . ثم وجد نفسه على عتبة السبعين فنظر حوله فرأى محمد عبد الوهاب قد توقف عن الغناء واكتفى بالتلحين ، وعرف أن للسن حكمها فاعتزل مناصبه الإدارية كلها ليصبح مستشاراً في ميادين المال والصحافة ويبقى عضواً في المجلس القومي للإنتاج . ترك الغناء في دنيا الإدارة واكتفى بالتلحين !

هذا من ناحية عمله . أما من حيث الترويح عن النفس فهو عضو في نادي الجزيرة ونادي السيارات . ينفق أوقات فراغه مع أم البنين في المشي على شاطئ النيل وهو على بعد خطوات من بيته ، ويلتقي بالأصدقاء معها في نادي « كان » وهو الاسم الذي أطلقه على نادي السيارات لأن كل من فيه من المحالين إلى المعاش يتحدثون عن ماضيهم فيقول كل منهم « لما كنت كذا .. ولما رقيت وكيلاً للوزارة سنة كذا .... » .

واشترك صاحبنا يوماً في أحاديثهم فذكر شيئاً عن حاضره وهو العمل الذي لا يزال يزاوله ، ثم انصرف بعد قليل فتساءل أحدهم « ألا تجدون في هذا الذي يدعيه صاحبنا ما يضحك ؟ لكأنه يريد أن يقول إنه لا يزال دون الستين ! » فرد عليه آخر يعرف صاحبنا « إنه يعمل فعلاً مديراً لإحدى الصحف الكبيرة » قال الأول « وهل الصحافة لا تحيل إلى المعاش ؟ » فأجاب الثاني بالنفي ، وضحك الجميع هاتفين « ليتنا كنّا جميعاً في الصحافة ! » .

هكذا يحيا في صحبة زوجته فما أحلى الحياة الزوجية في خريف العمر ! إنها حب يبدأ مع الشباب ويصبح صداقة حلوة مع مرور الأيام ، ثم يصبح امتزاجاً ووحدة بعد إنجاب الأولاد والإشتراك في مواجهة الحياة . لقد فقد صاحبنا أمه قبل أن يكمل السنة الأولى من عمره فعوضه الله في شبابه وكهولته برفيقة حياته .

يلحّن صاحبنا إذن من مكتبه الخاص فيبدي رأيه في صنوف مختلفة من الأنشطة الصحفية والإدارية والإعلانية والتسويقية ، ويساهم في مجلس الإنتاج برأيه في المشاكل التي تكاثرت هذه الأيام فجعلت من المسئولين جميعاً رجال إسعاف أو مطافئ يهرولون لدفع الضر عن سكان توشك عمارتهم أن تسقط عليهم ، وعن طوابير تقف ساعات أمام المجمعات لتجد حاجتها من الخبز أو الكستور ، وعن شركات تسعى جهدها لتوفير مرتبات العاملين فيها آخر الشهر ، وعن شوارع تغمرها المياه لانفجار ماسورة طال عليها الزمن .. ودعك من التليفونات التي صمتت عن الكلام ، ومن الاتوبيسات الكليلة التي تميل على جانبيها وهي تئنّ من السير شاكية ظلم الإنسان لأخيه

الجماد ، ومن القطارات التي تتصادم والطائرات التي تتساقط والحرائق التي تتصاعد ، فقد أصبحت هذه كلها أخباراً عادية في جرائدنا اليومية .

لقد كان صاحبنا يتحدث يوماً إلى رئيس شركة صناعية كبرى فاقترح عليه أن ينشر صفحة إعلانية .. تزيد المبيعات وإذا الرجل يرد ساخراً « صدقني فإنني مستعد لتخصيص مائة ألف جنيه للإعلان عن شركتي إذا وجدت في ذلك سبيلاً لانقاص الطلب على منتجاتها ! إنني لا أعلن الآن إلا للترحيب بوزير جديد ، أما الأجانب فيعلنون ليبتلعوا ما بقي لدينا من قوة شرائية .. » وهكذا ذكّرني بأن مشكلتنا في التنمية ليست التسويق وإنما الإنتاج ، ومشكلتنا في الإنتاج ليست رأس المال وإنما الإدارة . وترحمت على تلميذي وأستاذي الدكتور فؤاد شريف فقد صعد من منصبه كوزير للتنمية الإدارية ، إلى جنة الخلد مرة واحدة وهو في شرخ الشباب بعد أن ترك عمله في هيئة الأمم لينهض بالإدارة في مصر ، ولكنه دار في طاحونتها فطحنته !

إن صاحبنا يعجب لاهتمامنا بالكم على حساب الكيف : فالنسل في تزايد مستمر ولكن العناية قليلة بالتنشئة . والجامعات المصرية في تكاثر مستمر ، ولكنها لا تعدو أن تكون لافتات كبيرة على مبان خاوية ، وصناعات خان الخليلي تركت مكانتها المرموقة في البلاد الأوربية والأمريكية فأصبحت أعمالاً متناثرة ينقصها التجويد ، وصناعة الأحذية أكثرت من إنتاجها وفرطت في عرضها الفني ، وصناعة الغزل والنسيج تقدمت إلى وراء فاستهلكت آلاتها وعملاءها في وقت واحد .

والغريب أننا الآن نستورد التكنولوجيا ولكننا لا نعمل على توطينها كما فعلت اليابان والصين وتايوان . وصاحبنا يحلو له أن يقرب هذا المعنى إلى سامعيه في أسلوب ساخر فيقول إن الكسكسي صناعة مغربية والفول المدمس صناعة مصرية والكبّة صناعة لبنانية ولكن من الذي يجرؤ على القول بأن صناعات الحديد والصلب والسيارات والتليفزيون قد أصبحت تكنولوجيا مصرية ؟

لقد كان لعبود باشا شعار في إعلاناته عن كولونيا « قسمت » يقول « صممت في باريس ، وصنعت في القاهرة » وهو حقٌّ أريد به باطل لأن الهدف هو المفاخرة بالذوق الفرنسي ورفع قيمة الكولونيا في نظر المشترين . ولو نظرنا في الأسماء التي تحملها محالّنا ومطاعمنا وسلعنا لوجدنا معظمها أجنبياً وكأننا بذلك نسلم مقدماً بأن الجودة هي فيما نستورده أما المحلي فهو دون المستوى المطلوب .

إن البتروكيماويات في بلاد البترول تستخدم مئات الألوف من العمال العرب ولكن أسرار المهنة دائماً في يد قلة من الأجانب ، والسيارات في البلاد النامية تأتي إليها في قطع مصنعة لتجمع على الخطوط فتعطي الأهل ــ كما لو كانوا من الأطفال ــ إشباعاً بأن السيارة التي تجري من إنتاجهم ، مع أن محركها في أغلب الأحايين مستورد وأجزاءها الفنية الدقيقة مستوردة كذلك . فلم يبق لهم إلا الحديد والصفيح والدهان !

وإذا تركنا الصناعة إلى الزراعة وجدنا أنفسنا جادين في تفتيت الأرض وتوزيعها على الناس بالعدل والقسطاس ، ولكننا لا نحسب

حساب التدهور الذي أصابها بسبب عدالة التوزيع . وحبذا لو تكونت الآن جمعيات تعاونية تضم هذه الوحدات الصغيرة من جديد وتدخل عليها الميكنة وتوزع العائد على صغار الملاك بعد أن تستعين بهم نظير أجر مضاف !

ثم أين تصنيع الزراعة . وتربية الدجاج والحيوان ؟ إننا نهتم مرة أخرى بالكم دون الكيف فنوجه استغلال الأرض اتجاهاً أفقياً قبل أن يكون رأسياً وهكذا أصبحنا كمن يبني طابقاً أرضياً في عمارة ، ثم ينتقل إلى عمارة أخرى فيبني فيها طابقاً أرضياً آخر بدل أن يبني طابقاً أول في عمارته الأولى .

ولم تشذ الخدمات عن الكم إلى الكيف فهي تصب الخريجين صباً في شركات القطاع العام دون أن تعنى بتخصصاتهم أو بوجود فراغات لاستقبالهم . وهي تفتح الوحدات الصحية بالمئات دون أن يكون فيها أحياناً قطن طبي أو صبغة يود . وهي تعلّم بالمجان فتحمل المدارس فوق طاقتها وتجعل منها معابر لشهادات اسمية ، هي بدورها معابر لوظائف لا وجود لها . والنتيجة أن الدولة أصبحت تعول الشعب فلم يصبح الشعب مسئولاً عن نفسه مع أن المسئولية هي التي تكوّن شخصيته وتحضه على فهم واجبه . هل نعجب بعد هذا من جو التسيب الذي نراه ؟ إن قائد السيارة الذي يستعلي على رجل الشرطة ، والمنحرف الذي يسلب الناس أموالهم قهراً في الطرقات يعبّر بتصرفه عن هذه الروح التي تفشّت فجعلته يستهتر بالنظام والقانون .

وصاحبنا يعجب لأننا نقتل الوقت في البحث والتخطيط ولا

ننفق مثله في التنفيذ ! لدينا مجلس قومي للإنتاج ومجلس قومي للتعليم ومجلس قومي للثقافة ، وهذه المجالس الثلاثة تؤدي واجبها بنجاح ولكن قليلاً من توجيهاتها يأخذ طريقه إلى العمل .

ولنأخذ بعض الأمثلة الصغيرة : فماذا يحول دون أن تقف قطارات الاسكندرية في محطة شبرا قبل محطة مصر كما تقف قطارات الوجه القبلي في الجيزة وتقف قطارات القاهرة في سيدي جابر ؟ إن كثيراً من الركاب يودون التوجه إلى مصر الجديدة وشبرا والزمالك والجيزة والمعادي وحلوان ، فلماذا لا يسلكون طريق الكورنيش بدل أن يمروا وسط الزحام .

وما الذي يحول دون استخدام النيل ـ وهو أوسع شارع في مصر ـ لنقل الركاب في أوتوبيسات نهرية يزداد عددها وحجمها إلى القدر المطلوب ؟

إن صاحبنا ـ وهو من رجال الإدارة ـ لا يدري كيف توالى عقد المؤتمرات لتحديد مراحل صنع القرار ، وللتخطيط لمصر في سنة ٢٠٠٠ ثم نغفل أول ما يستحق العناية وهو تنظيم الأرشيف والمخازن ؟

إن الأرشيف هو ذاكرة كل جهاز ، وهو الذي يقدم المعلومات التي يصدر على أساسها القرار . والمخازن هي وعاء الثروة القومية فمن العجب أن نختار لها الأماكن المهدمة والموظفين المغضوب عليهم لتنعدم الرقابة وتضيع الأموال .

ثم ماذا ؟

ثم إن صاحبنا جاءه حفيد .. هذا الطفل الصغير قد أدخل على الحياة الرتيبة للأسرة من التوابل ما لذ وطاب . فهو يعبث بكل شيء ، ويفرض إرادته على جدّه وجدته ، ولكنهما سعيدان به وقد أحالهما إلى خادمين دون أجر !

ما أعجب الإنسان ! إنه يرى في أحفاده امتداداً لحياته ولذلك يحب نفسه فيهم . هو أناني بالطبع حتى في الحب !

المحتويات

الصفحة

الإهداء ٥
مزيداً من العرى في هذه الطبعة ٧
هذه الذكريات ١٥
مقدمة بقلم الدكتور شوقي ضيف ٢٥
رأس أزهري في طربوش ٣١
زهرة الصبا تتفتح – ١٩٢١ .... ٤٤
وبدأ الشاب يفكر – ١٩٢٥ .... ٥٦
قم للمعلم وفّه التبجيلا – ١٩٢٩ .... ٦٨
رأس المطربش في قبعة – ١٩٣٧ .... ٨٢
لم يضيّع في الاعلان عمره – ١٩٣٩ .... ٩٥
في الروب الجامعي – ١٩٤٢ .... ١١٤
الاستاذ في قصة صحفية ١٢٨
ابن بطوطة بين الشرق والغرب – ١٩٤٤ .... ١٣٩
المدير المحترف – ١٩٤٦ .... ١٥٩
ثم جاءت الثورة – ١٩٥٢ .... ١٦٩
وانتقلت المدرسة – ١٩٥٤ .... ١٧٨
رجل الأعمال في تربية الأطفال – ١٩٥٧ .... ١٩٠
ثم ظهر الأستاذ عارف – ١٩٦٣ .... ١٩٧
أراك عصي الدمع – ١٩٦٥ .... ٢٠٧
وهو اليوم يتتلمذ على تلاميذه ٢١٥
من وحي الستين ٢٢٥
من وحي السبعين ٢٣٧



مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً داشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٥٤٣١٤ - برقياً : شروق القاهرة





مزيداً من العري في هذه الطبعة

● هذه ذكريات يشيع فيها ألوان من النقد الذاتي والموضوعي ، فهي ليست خواطر عن طفولة وصبا وشباب وكهولة ، وما بعد الكهولة فحسب ، بل هي أيضاً ملاحظات ناقدة عن الكاتب ونشأته وتربيته ، وعن بعض من عرفهم في حياته : في المدرسة وفي الأزهر ، وفي الجامعات المصرية والغربية ، وفي الصحافة وفي دور النشر .

● لقد قرأ الناس الطبعة الأولى فوجدوا في مادتها صدقاً عارياً عن كل زيف ، وكأنما الكاتب قد تجرد من ثيابه التي يستتر بها نفسه وهو في الستين ليسير بينهم كما ولدته أمه . ذلك لأنه اعترف بأنه بشر لا ملاك ، والبشر يخطئ ويصيب .

● وها هوذا قد بلغ السبعين عند صدور هذه الطبعة الرابعة فلم يقنعه هذا العمر بأن يقبع في بيته ما دام شبابه الرتيب قد ادخر له شيئاً من العافية لا يزال يؤهله لأن يقود سيارته ويزاحم بها مواكب الطريق ، ويغشى مكاتب الصحف والشركات ثم يعود آخر النهار راضياً عن نفسه لأنه لم يعد يشتغل بالأعمال الإدارية اليومية . وإنما يغترف من تجاربه الماضية ما ينشئ به جديداً .

● إن صاحبنا يصف ذكرياته بأنها « عارية » لأنها حقائق مجردة . وهو يرجو أن تنجح هذه المحاولة فتدعو إلى حقائق أكثر عرياً ! ذلك أن في هذه الذكريات تزويراً بالحذف . فكل ما فيها حق . ولكنه ليس كل الحق برغم أن في هذه الطبعة فصلين جديدين وإضافات كثيرة .

السيد أبو النجا